فيليب فاندنبرغ

لعنة الفراعنة

التفسير العلمي لظاهرة لعنة الفراعنة الغامضة

ترجمة
خالد أسعد عيسى
أحمد غسان سبانو



لعنة الفراعنة

التفسير العلمي لظاهرة لعنة الفراعنة الغامضة

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبعَة الأولى

1425هـ 2004 م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
فاكس: 171 377 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

فيليب فاندنبرغ

لعنة الفراعنة

التفسير العلمي لظاهرة لعنة الفراعنة الغامضة



ترجمة
خالد أسعد عيسى
أحمد غسان سبانو




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بدأت قصة لعنة الفراعنة مع اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون، ذلك الاكتشاف الذي هز الدنيا في حينه، وقد تم على يد المنقب الإنكليزي هوارد كارتر وبتمويل من قبل اللورد كارنارفون.

ففي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) 1922 تم الكشف عن أبواب المقبرة، وقد وجد كارتر رقيماً خزفياً في إحدى الغرف فيه عبارة تقول: «إن الموت سوف يقضي بجناحيه على كل من يحاول أن يزعج هدوء الفرعون أو يعبث بقبره».

فكما أن كشف باب مقبرة توت عنخ أمون كان بداية أعظم كشف أثري في العالم، فإن الرقيم حامل تلك العبارة كان بداية أعظم قضية شغلت العالم، وفاقت الكنز بحثاً ودراسةً وغرابةً؛ إنها لعنة الفراعنة.

ذلك أن الظروف التي أحاطت بفتح المقبرة والوفيات الغامضة التي شملت عدداً ممن دخلوا أو عملوا في المقبرة أو آثارها جعلت الكثيرين يعتقدون أن قضية (اللعنة) ربما كانت سراً غامضاً يضاف لأسرار الفراعنة.

لقد بدأت اللعنة باكتشاف قبر توت عنخ أمون الفرعون الشاب الذي حكم بضع سنوات ومات أو قتل في ظروفٍ غامضة وظن الناس أن اللعنة محصورة بهذه المقبرة. إلا أن الدراسات أثبتت أن تلك الظروف الغامضة التي أودت بحياة بعض الناس العاملين في قبور الفراعنة كانت أسبق من فترة اكتشاف قبر توت عنخ أمون.

والآن وبعد مرور أكثر من نصف قرن على اكتشاف المقبرة فقد عرف العلماء محتويات المقبرة وكشفوا أسرارها ودرسوا نقوشها وأصبحت حقيقة ناصعة. إلا أن

قضية اللعنة بقيت اللغز المحير الذي لم يجد العلماء له حلاً أو تفسيراً رغم كل الجهود التي بذلت في هذا الخصوص.

ومن أهم الأعمال التي قدمت في هذا المضمار وأحدثِها كتابُ (لعنة الفراعنة) الذي نقدمه اليوم لمؤلفه الألماني الدكتور فيليب فاندنبرغ الذي كان شاهد عيان لبعض أطراف (لعنة الفراعنة) والذي استهوته دراستها والبحث والتقصي عنها فأخذ على عاتقه هذا العبء فقام بالدراسة العلمية الهادفة لعدة سنوات في سبيل تقديم بحث علمي وإحصائي عن قضية (اللعنة).

فكان كتابه (لعنة الفراعنة) بمثابة موسوعة علمية عن (اللعنة) ومحاولة جريئة لتقديم تفسير علمي في مختلَفِ ميادين العلم من فلك وكيمياء ورياضيات حتى الانشطار الذري وأشعة لايزر.

وقد درس المؤلف تاريخ ظهور اللعنة قبل اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وبعدَه فضمن كتابه أصدق المعلومات وأدقها بأسلوب علمي ممتع سلس جميل فكان كتابه بحقٍّ أعظم كتابٍ صدر عن اللعنة وأحدثه وأجرأه تلك القضية التي حيرت العقول، عقول العلماء قبل العامة وشغلت الناس ويكاد لا يوازي اللعنة في غموض سرها إلا قضية الأطباق الطائرة.

وقد قام بنقل الكتاب إلى اللغة الإنكليزية عن الألمانية توماس وير فكانت الترجمة تضم 235 صفحة من القطع العادي مقسمة إلى (13) فصلاً. وعن الترجمة الإنكليزية نقدم هذه الترجمة العربية نصاً وروحاً.

ومن الجدير بالذكر أن بعضهم وضع كتاباً أخذ أكثر مادته من كتابنا المترجم هذا وبتعديل واختصار وتصرف وزيادة مما جعل كتابه مشوّهاً للمعلومات العلمية التي ضمنها المؤلف كتابَه.

المترجمان

خالد أسعد عيسى   أحمد غسان سبانو

اللـعنـــة

«أتعلم أن هنالك مصادفات غريبة في هذه الحياة؟» قال محدثي الدكتور جمال محرز وهو يحدقني بنظرات حالمة، كان رجلاً قـوي البنيـة جامد التقـاطيع ذا حـاجبين كثيفَيْنِ وشفتين غليظتين.

كنا جالسين على طرف بركة السباحة في فندق عمر الخيام فـي القـاهرة قـرب جسـر 26 يوليو الذي يمتـد فـوق نـهر النيـل، وكنـا نحتسـي بعـض المشـروبات ونتحـدث عـن لعنـة الفراعنة التي كثرت أقوال الصحافة عنها، التي قيل: إنَّها تنصب على أي شـخص يتـورط في اكتشاف مقبرة الفرعون (توت عنخ أمون) وربما المقابر والمومياء الأخرى أيضاً.

وحيث إنَّ الدكتور محرزاً هذا هو المدير العام لمصلحة الآثار القديمة في المتحـف المصري في القاهرة فإنه هو المسؤول عن تلك البناية التي تضم حوالي 100 ألف قطعـة من الكنوز التي يرجع عـهدها إلـى آلاف السـنين مـن تـاريخ مصـر. فـهنالك الخنـافس الصغـيرة والتمـاثيل الحجريـة البـارزة للفراعنـة العظـام. وفـي الغرفـة رقـم / 25/ مـن الطابق العلوي هنالك عشرون مومياء مرتبة طبقاً للعمر والجنس بحيث وضـع الرجـال أولاً ثم النسـاء وكلها معروضة في توابيت زجاجية يراها الجمهور الذي يدفـع النقـود. وبالمناسـبة هنـالك أنـاس لا يسـتطيعون أن يتحملـوا منظـر الموميـاء المبتسـمة بأسـنانها البارزة. فهؤلاء الناس يندفعون خارج الغرفة وهم يتصببون عرقاً.

بادرته بالسؤال: «وهكذا فأنت بالحقيقة لست متأكداً أن هنالك لعنة؟».

تردد الدكتور محرز قبل أن يجيب بوضوح، فقد كان يزن جوابه بعناية. ثم قال بلهجة انكليزية قاهرية خارجة من الحلق يتكلمها معظم علماء الآثار المصريين الذين يتدربون في جامعات أكسفورد وكامبردج: «إذا أضفت جميع تلك الوفيات الغامضة فمن الممكن أن يكون تفكيرك صحيحاً من هذه الناحية لاسيما أن اللعنات كثيرة وبارزة في التاريخ المصري ولكني.... وهنا ابتسم الدكتور محرز ابتسامة صفراوية، قائلاً: «أنا ببساطة لا أؤمن بهذا. انظروا إلي، فأنا منهمك في قبور ومومياء الفراعنة طيلة حياتي ومع ذلك فأنا برهان حي على أن كل هذه اللعنات هي من قبيل المصادفات». لكنه بعد أربعةِ أسابيع من حديثنا هذا وجد الدكتور محرز هذا ميتاً وهو في الثانية والخمسين من العمر، وقد عزا الأطباء سبب موته لانهيار في جهاز دوران الدم في جسمه.

والظرف الغريب في وفاة الدكتور محرز أنه مات في نفس اليوم الذي نزع فيه قناع توت عنخ أمون الذهبي للمرة الثانية، في ذلك اليوم تحرك ناقلو الآثار إلى المتحَف في شارع ماريتا، وحزموا الجواهر والحلي فقناع توت عنخ أمون كان مؤمناً بمبلغ / 55/ مليون دولار، ثم نقل هذا الكنز على قاذفتي قنابل من القوة الجوية الملكية البريطانية جواً إلى لندن حيث أصبح جزءاً مما عرض لتخليد ذكرى مرور خمسين عاماً لاكتشاف مقبرة توت عنخ أمون على يد عالمين إنكليزيين هما: هوارد كارتر، واللورد كارنرفون.

ويعتبر توت عنخ أمون الشخصية الرئيسية في اللعنة التي كلفت إزهاق أرواح حوالي ستة وثلاثين رجلاً على الأقل من العلماء وعلماء الآثار والباحثين، حكم هذا الفرعون حوالي تسع سنوات فقط من عام 1358 ـ 1349ق. م، ويعتبر نسبياً ذا أهمية تاريخية متواضعة، ومع أنه كان يرأس الثورة المعاكسة التي أطاحت بفكرة التوحيد التي قدمها عمُّه الفرعون أخناتون، إلا أنه كان الواجهة لبعض الكهنة المتآمرين.

ولكن أهميته الحقيقية تكمن في اكتشاف مقبرته مؤخراً، والتي تمتاز عن مقابر الفراعنة الآخرين بأنها لم تتعرض للنهب والسلب، والتي تمتاز أيضاً بسلسلة من

الوفيات الغامضة التي تبعت التنقيب عن المقبرة، وعندها بدأت لعنة الفراعنة تثير اهتمام العلماء لأول مرة.

حياة اللورد كارنر فون:

كان علماء الآثار يموتون بأشكال غامضة من قبل، وكانت وفاتهم تعتبر قضاء وقدراً حتى قام اللورد كارنرفون بالمساعدة في فتح قبر توت عنخ أمون، ومات في نيسان عام 1923 وسط ظروف غامضة.

ما الذي دفع لورداً إنكليزياً ثرياً أن يتعب نفسه بالمومياء وبالكنوز المدفونة؟.

إن حياة هذا الرجل الأولى تزودنا ببعض المعلومات الموثوقة.

ولد كارنر فون في عام 1866 ونشأ طفلاً نموذجياً، فقد قضى حياته الأولى في ضيعة يملكها أبواه، وبعد دراسة منزلية خاصة دخل كلية إيتون ثم كلية ترينتي ثم جامعة كامبردج، حتى أصبح في شبابه مشهوراً بالإضافة إلى ولعه بركوب الخيل ووضعه ثعباناً في درجه المدرسي خلال فصل دراسي كامل.

توفي والده وهو في الثالثة والعشرين من عمره وبذلك أصبح المسؤول عن إدارة ضياع عائلته الكثيرة الواسعة، وبدأ ينحرف إلى حياة الشاب المستهتر المنغمس في الملذات. كما فتن برياضة قيادة السيارات. إذ ساهم في نشوء سباق السيارات وتأسيسه. فقد كان يملك العديد منها في فرنسا قبل أن يسْمَح للسيارات بالسير قانونياً في إنكلترا.

والحقيقة أن قصة تحوله من هاوي سيارات إلى عالم بالآثار المصرية أدت إلى اشتراكه في اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون، الأمر الذي انتهى بموته بسبب تلك اللعنة الفرعونية، إنّ هذا، لعمري، من سخريات القدر فضلاً عن أنه يحتاج إلى كثير من التوضيح والتفسير.

لقد لاحظت أخته بأن هواية السيارات كانت نوعاً من الطيش الذي أوصله إلى إحدى نزعاته الحاسمة.

ومع أن كارتر فون كان مشهوراً بلامبالاته؛ إلا أنه بالحقيقة كان متحفظاً، ويملك شيئاً من الحكمة تكفي لعدم إيقاع نفسه في مواطن الخطر.

وعندما عاتبه كاتب هذه السطور بسبب سعيه وراء الخطر دون أي مبرر أجاب قائلاً: «هل تظن أني أحمق؟ ففي قيادة السيارات لا يكمن الخطر إلا في المنعطفات. ولم أكن لأدور المنعطفات بسرعة جنونية».

وقد كان قوله هذا صحيحاً، ولكن أعظم الخطط تدبيراً يمكن أن تفشل إذا أغمض الإنسان عينيه قليلاً، فقد كانت الطريق التي سار عليها إلى حتفه مستقيمة ولا منعطفات فيها.

لقد كانت تلك الرحلة إلى ألمانيا هي التي سببت له تلك المصيبة، فبينما كان يسوق سيارته في طريق خالية ومعه سائق سيارته المخلص الذي رافقه مدة ثمانية وعشرين عاماً إذا بالسيارة تنقلب عندما صادف أمامه حفرة عميقة لم ينتبه لها، فاحترقت رجلاه وأصبح وجهه مشوهاً، كما كسر معصمه، وأصاب حنكه وصدغه بعض الأضرار، لذا أجريت له عدة عمليات نتيجة لذلك، ولكن هذه العمليات لم تفلح في استعادة صحته كما كانت، فقد أصابته متاعب في التنفس وخصوصاً في طقس الشتاء الإنكليزي الرطب، ولكي ينجو من هذه الرطوبة قرر أن يسافر إلى مصر خلال الأشهر الرطبة، وفعلاً بدأ رحلاته إلى مصر ابتداء من عام 1903 وما بعدها، فالرطوبة قلما ترتفع فوق 40° في مصر، ولذلك فالمناخ هناك مناسب لاتقاء ألم المرض.

وكان من الطبيعي لرجل متمكن ومتضلع بالفنون مجبر أن يقضي وقتاً طويلاً في مصر، نعم فمن الطبيعي جداً أن تنشأ لديه اهتمامات بعلم الآثار وعلى هذا فقد بدأ كارنر فون بالحفريات في ثالث فصل شتاء أقام به في مصر. ولكن مجهوداته لم تثمر أي نتيجة في أول الأمر ولهذا فقد طلب نصيحة أحد أصدقائه السير غاستون ماسبيرو الذي كان محافظاً لمتحف القاهرة فما كان من ماسبيرو هذا إلا أن عرفه على هوارد كارتر الذي كان رساماً إنكليزياً ومهتماً بالآثار أقام في مصر منذ عام 1890 وكانت أعماله تتراوح بين النجاح والإخفاق ولكنه بذلك حصل على معرفة عظيمة

وإن بقيت حالته المادية ضعيفة. ثم استطاع أن يكتشف مقبرتين في وادي الملوك غرب الأقصر لصالح ثيودور دافس وهو محامٍ أميركي متقاعد كان يتسكع في مصر منذ عام 1880. وبعد عدة سنوات من البحث عن الكنوز المخبأة أوضح كارتر وكارنرفون عما وجداه بفخر واعتزاز، وذلك في كتاب سمياه (خمس سنوات من الاستكشافات في طيبة) وبعد ذلك استمرا في الحفريات. كان كارتر متأكداً أن هنالك مقبرة منسيَّة لفرعون ولابدَّ أنْ تكون مخفية في مكان ما في وادي الملوك. وكان هذا الاعتقاد مبنياً على شهادة (جميس هنري براستد) وهو عالم آثار أميركي شهير.

وفي خلال موسم الحفر لعام 1907 ـ 1908 وجد عمال دافس مخبأ به جرار فخارية تحتوي على معدات جنائزية تتألف بصورة رئيسية من لفائف قماش الكتان، ولكنها تحتوي أشياء كثيرة تستعمل في المواكب الجنائزية.

ولم يهتم دافس بهذا الاكتشاف الذي كان سيبقى طي النسيان لولا أن انتبه أحد العاملين في متحف العاصمة إلى أن الختم المنقوش على أعناق الجرار وعلى بعض قطع الكتان كان يحوي اسم توت عنخ أمون.

وقد اكتشف دافس أيضاً حفرة قبر فيها بقايا صندوق خشبي يحوي على صحاف صغيرة ذهبية منقوش عليها اسم توت عنخ أمون، وقد قرر دافس أنه قد اكتشف مقر الراحة الأبدية لتوت عنخ أمون، ولكن كارتر كان يشك في هذا القول فإن ملكاً لا يمكن أن يدفن في قبر متواضع وخصوصاً في عهد الأسرة الثامنة عشرة العظيمة، أضف إلى ذلك أن كومة عظيمة من الصخور قد نصبت تكريماً لحكام المملكة المتوسطة، ولم يكن هنالك أي سبب معقول لوضع توت عنخ أمون في قبر حقير كهذا.

إذن أين قبر توت عنخ أمون؟.

كان دافس قد قام بكثير من الحفريات في نفس المنطقة، حيث كان كارتر يشك في وجود المقابر الملكية فيها ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى أوقف العمل مؤقتاً، ومضت ثلاث سنوات قبل أن تبدأ المغامرة العظيمة في وادي الملوك.

وحتى ذلك الوقت لم يكن هنالك أحد قد حفظ سجلاً عمن سبق في الحفر، وأين كانت الحفريات ومتى ولأي غرض تمت.

كان كارتر قد رسم خارطة للمكان وابتداء من عام 1917 أخذ يجوب المنطقة بشكل مبرمج قدماً بعد قدم. أزيلت أكوام ضخمة من الطبقات الترابية التي كانت قد تراكمت خلال سنوات الحفريات السابقة ومع ذلك لم يعثر المنقبون على شيء، وفي ربيع عام 1922 كان كارنرفون قد بدأ يفكر بترك العمل عندما طلب كارتر إعطاءه فرصة أخيرة واحدة. وأخبر مموله (كارنرفون) أنه لا تزال هناك بقعة مثلثة أسفل مقبرة رعمسيس السادس - التي أوقف التنقيب فيها نظراً لأن (حفرها) سوف يوقف زيارة السواح لمقبرة رعمسيس. وقد لاحظ كارتر وجود بقايا أسس من الأكواخ الحجرية البسيطة التي كان من الواضح أن بعض العمال القدماء قد بنوها. ولهذا قرر إزالتها أولاً.

وكانت هذه الأسس مؤلفة من ألواح حجر الصوان وفي الماضي كان وجود مثل هذه الألواح دليلاً أكيداً على عظمة المقبرة.

مضت سنوات، وكان هذا الرجلان يفتشان عن شيء لم يكونا متأكدين من وجوده، نعم ولمدة ست سنوات كانا يذوقان أمرَّ العذاب كل يوم خوفاً من أن تكون نتيجة المغامرة بأجمعها فشلاً ذريعاً. طيلة هذه السنوات الست كانا يساقان في عملهما بقوة الاستمرار وفجأة حدثت المعجزة في بضعة أسابيع:

في 28 تشرين الأول عام 1922 توجه كارتر إلى الأقصر ولم يكن معه كارنرفون واستأجر فريقاً من الحفارين.

وفي الأول من تشرين الثاني عام 1922 بدأ كارتر حفريات جديدة في وادي الملوك ابتداءً من الزاوية الشمالية لقبر رعمسيس السادس وقد حفر خندقاً يمتد جنوباً تحت الأسس الصوانية للأكواخ التي كان قد اكتشفها أولاً.

وفي 4 تشرين الثاني عام 1922 ركب كارتر بغلته كما كان يفعل كل يوم متوجهاً إلى موقع الحفريات وكان مندهشاً لذلك الهدوء غير العادي، وهنا ركض رئيس العمال نحوه قائلاً بانفعال:

«يا سيدي لقد عثرنا على درجة مهدمة داخل الصخور تحت أساس الكوخ الأول».

وفي الخامس من تشرين الثاني عام 1922 تم اكتشاف أربع درجات ولم يكن هناك أدنى شك في أن هذه الدرجات تؤدي إلى مقبرة مدفونة في الصخور. ولكن هل هذه المقبرة هي مقبرة فرعون؟. وهل سبقهم إليها لصوص المقابر؟ وفي مساء اليوم الثاني عشر كان قد كشف عن اثنتي عشرة درجة أخرى فظهرت بوابة حجرية مختومة بختم ظهر عليه صورة ابن آوى، وتسعة سجناء مصورين بأسلوب معين. وهذا هو ختم مدينة الأموات في وادي الملوك وكان يبدو أن المقبرة قد نهبت.

وفي 6 تشرين الثاني 1922، رجع كارتر إلى الأقصر وأرسل برقية إلى مموله (لورد كارنرفون في إنكلترا هذا نصها: «وأخيراً اكتشفنا اكتشافاً رائعاً في الوادي، مقبرة عظيمة والأختام لم تمس. أوقفنا العمل حتى وصولك، تهانينا»).

وفي 8 تشرين الثاني 1922 أرسل كارنرفون برقيتين متتاليتين:

«قادم حالاً، إذا أمكنني ذلك، سأكون في الإسكندريّة في العشرين من الشهر».

وفي 23 تشرين الثاني، وصل كارنرفون إلى الأقصر تصحبه ابنته.

وفي 24 تشرين الثاني: يفتح مدخل المقبرة الذي كان قد أعيد دفنه بالأنقاض الأصلية بعد أن وضعت شرذمة من الجيش المصري لحراستها.

وفي 25 تشرين الثاني صورت الأختام فوتوغرافياً وكسرت، فظهر دهليز ينحدر إلى الداخل حيث انتشرت جرار من المرمر مبعثرة وقطع فضية مختومة أيضاً تكاد تملأ الدهليز. وظهر كما لو أن المقبرة قد انتهكت حرمتها ونهبت ثم ختمت من جديد.

وفي 26 تشرين الثاني 1922 وجد الحفارون خلف البوابة الحجرية على مسافة ثلاثين قدماً بوابة ثانية. وبالإضافة لأختام مدينة الموتى وجدت شارة السلطة للفرعون توت عنخ أمون.

وقد وصف كارتر هذه الساعات الأخيرة في كتابه (مقبرة توت عنخ أمون) كما يلي: «ببطء وبطء شديد. كما كان يبدو لنا ونحن نراقب إزالة بقايا أنقاض الدهليز التي سدت الجزء الأسفل من المدخل حتى بدا الباب لنا بأكمله ماثلاً أمامنا، لقد أزفت اللحظة الحاسمة وبيدين مرتجفتين نقبت ثغرة صغيرة دقيقة في الزاوية العلوية اليسرى.

وفي الظلام الدامس والفراغ المطبق بالقدر الذي استطاعت عصاي الحديدية الوصول إليه، ظهر لنا أن كل ما وراء هذا كان فارغاً وليس مملوءاً كما كانت الحال في الممر الذي كنا قد نظفناه لتوّنا وقد استخدمنا أضواء الشموع كاختبارات احتياطية ضد ما يمكن أن يوجد من غازات مؤذية.

وبعد أن وسعنا الثقب قليلاً أدخلت الشمعة ونظرت إلى الداخل. وكان اللورد كارنرفون وابنته وأحد مساعديه واقفين إلى جانبي بقلق ينتظرون سماع النطق بالحكم. ولأول وهلة لم أستطع أن أرى شيئاً فقد كان الهواء الساخن ينطلق من الغرفة أمامي ويسبب الرجرجة في ضوء الشمعة ولكن في الحال وبعد أن اعتادت عيناي الضوء ببطء بدت تفاصيل الغرفة في الداخل بما فيها من الحيوانات الغريبة والتماثيل والذهب وفي كل مكان كان وميض الذهب الآسر يشع. مضت لحظة وكأنها الأبدية على أولئك الواقفين بجانبي فقد كنت قد أصبت بالبكم من الدهشة وكان كارنرفون أول من يسأل: هل يمكنك رؤية أي شيء؟.

نعم، إنني أرى أشياء رائعة.

لقد أظهر ذلك الضوء الرجراج ما لم تره عين بشرية من خمسة وثلاثين قرناً. إذ كانت أجمل أشياء استخرجها علماء الآثار من الأرض عبر التاريخ البشري وأثمنها، كان هنالك كأس بشكل زهرة اللوتس من المرمر نصف الشفاف وكومة

مبعثرة من العربات الملكية المقلوبة تلمع بما رصعت به من الذهب الخالص، وكذا تمثالان بالحجم الطبيعي للملك يتشح بالسواد يواجهان بعضهما كأنهما حارسان وهما يرتديان تنورتين مذهبتين وينتعلان نعلين مذهبين وهما مسلحان بالصولجان وعصا السلطة وعلى جبهتيهما الثعبان الواقي المقدس وهنالك أيضاً ثلاثة خوانات مذهبة كبيرة وأضرحة غريبة مجللة بالسواد وعرش مرصع بالذهب ولم يكن هنالك أي أثر لتابوت أو مومياء. ولكن كان كل هذا في غرفة أمامية يتبعها متاهة أتوقع أن تكون مترعة بالكنوز التي لا تنفَد».

ولقد اتفق كارتر وكارنرفون ويدون أن يريا ما ينتظرهما في مقاصير المقبرة الأخرى، على أن هذا هو أعظم كنز أثري في التاريخ.

لقد أحصى كارتر كل ما وجده باعتباره عالم آثار مسؤول، نعم أحصاه في أدق التفاصيل. ثم أقفل الفتحة وأوكل لحراسة المقبرة كتيبة من الجند ليلاً ونهاراً. ثم أمر بوضع باب حديدي خاص جلب من القاهرة إلى الأقصر بالقطار لكنه فكر أخيراً بأن كل هذه الإجراءات غير مأمونة بشكل كاف فأمر بردم المدخل بالأنقاض مرة ثانية.

وفي 5 كانون الأول ذهب اللورد كارنرفون وابنته إلى انكلترة لأداء بعض الالتزامات وللاستعداد لمفاجأة الاكتشاف ثم رجع إلى مصر في أوائل شباط 1923.

اللقية المشؤومة:

لم يضع كارتر الأسابيع التي مرت سدى فقد أخذ يجمع كل خبير استطاع أن يجده: (خبراء باللغة الهيروغليفية، خبراء أختام، خبراء كيمياء وغيرهم).

... بدؤوا أولاً: بتحطيم الحائط الذي يوصل إلى الغرفة الأمامية، وبذلك استطاعوا فحصها بشكل أكثر دقة من فحص كارتر لها.

في 26 تشرين الثاني أظهرت الفحوص الدقيقة أن القبر قد نهب جزئياً ولكن اللصوص كانوا قد فتحوا فتحات صغيرة جداً خلال الجدران الصخرية، وبالتالي فقد استطاعوا نهب أشياء صغيرة قليلة جداً من الكنز، وفوق ذلك فإن عملية النهب لابد

أن تكون قد حدثت بعد فترة قصيرة من دفن الفرعـون. وإلا فـلا مبرر لظاهرة إعادة ترميم الأختام المكسورة.

لم يكن من المستطاع كتمان أمر هـذا الاكتشاف طويلاً فقد قرر كارنرفون أن يعطي جريدة (لندن تايمس) حقوق نشر القصة رسمياً ولكن معظم صحف العالم بدأت بالزحف لتقصي الأخبار والتفاصيل. ولـذا فقد شددت الحراسة على المقبرة حالما انتشرت الأخبار بحجة أن الحفريات سوف تستأنف وقد علق كارتر وقتها بقوله: «في الوقت الذي انتهت به الأبحاث في الغرفة الأمامية كانت أعصابنا قد أصبحت في حالة خطيرة من التوتر والثورة».

لقد أخذت صور فوتوغرافية لكل موجودات الغرفة بعد أن اتخذت الترتيبات ووضعت المخططات اللازمة لصيانتها وحفظها، فقد أنشئ مخبر في قبر فارغ، وعلى أثر ذلك ورد سيل من الرسائل والبرقيات إلى موقع الحفريات تتضمن نصائح لصيانة وحفظ المكتشفات كما تحتوي طلبات لإرسال هدايا تذكارية (فقد كتب أحدهم يقول: «سأكون شاكراً لو أرسلتم لي بعض حبات من الرمل». أما التهاني فكثيرة ولا تسل عن عروض للمساعدة من كل فج وصوب حتى إن أقرباء مستجدّين قد ظهروا فجأة واكتشفوا قرابتهم لنا».

فقد كتب أحدهم: «حقاً يجب أن تكون ابن عمنا الذي كان يعيش في كبروويل في عام 1893 والذي لم نسمع عنه شيئاً منذ ذلك العهد».

ولكن الأشخاص الذين كانوا يعملون في مواقع العمل قل نشاطهم وضعفت همتهم لأنهم في الحقيقة - أصبحوا عصبيين بسبب عثورهم على رقيم خزفي وجده كارتر في الغرفة الأمامية يقول: «إن الموت سوف يقضي على أي شخص يحاول أن يزعج هدوء الفرعون».

والحقيقة أنه لا كارتر ولا جاردنر ولا أي واحد من العلماء الحاضرين كان يخشى تلك اللعنة أو يفكر بها جدياً (ولكن خشيتهم كانت من تأثُّر العمال المصريين

بها ولما كان الاعتماد الكلي على العمال الوطنيين، لذلك فقد محي هذا النص من السجل المكتوب لاكتشاف المقبرة وحتى الرقيم نفسه اختفى من المجموعة ولكنه لم يختف من ذاكرة أولئك الذين قرؤوه. (لقد حفظ الجميع نص تلك اللعنة في كل مكان ولكنه لم يصور واعتبر مفقوداً).

والخطير في الأمر أن اللعنة وجدت مرة ثانية في شكل آخر نوعاً ما وذلك عندما وجد مكتوباً على ظهر أحد التماثيل: «إنني أنا الذي أطرد لصوص القبر بلهب الصحراء. إنني أنا حامي قبر توت عنخ أمون».

وقد اكتشف هذا التمثال السحري في الغرفة الرئيسية للقبر وعندما نظف هذا التمثال لم يعد المنقبون بحاجة للخوف من قلق مساعديهم المصريين فقد وصل هؤلاء إلى الهدف.

وبعكس الثقافات السامية فإن التوراة تعج باللعنات إلاّ أن اللعنات كانت نادرة في مصر القديمة والشخص الوحيد الذي كان يلفظ اللعنات هو الفرعون الذي كان يتكلم بشرعية إلهية، فعلاً في خطاب العرش الذي قدمه الملك تحتمس الأول إلى ابنته حتشبسوت قال: «إن أولئك الذي يلعنون ملكهم سوف يموتون». ثم إن سجلات المحاكمات في قضية مؤامرات الحريم ضد رعمسيس الثالث تظهر أنه قبل المحاكمة كان المتهمون يلعنون. وهذا كان ينزع عنهم الحصانة الإلهية وتطبع عليهم سمة أعداء الآلهة. ويعتبر كجزء من هذه التقاليد أن ينقش اسم الشخص المتهم على جرة فخارية ثم تحطم هذه الجرّة. وهذه عبارة عن إحدى طقوس الحرمان.

وإن رقم أو (ألواح) اللعنات كالرقيم الذي اختفى من مقبرة توت عنخ أمون كلها تنوه بأن الآلهة هي البادئة باللعنات كلعنة أوزيريس، وسوكاريس وهو الإله العظيم سيد أبيدوس ولعنة إيزيس الآلهة العظمى.

وقد وجد المفتش العام للآثار في مصر في قبر اكتشفه قرب هرم ميدوم، وجد لعنة في رقيّم في الغرفة الأمامية كتب فيها: «إن روح الموتى سوف تدق عنق اللص

الخطير كما يدق عنق الإوزّة». وقد أشار الرقيم إلى روح شخص واحد ميت فقط ولكن الموظف وجد جثتين في المقصورة إحداهما محنطة والأخرى ليست محنطة. فالجثة الثانية كانت ضحية اللعنة. فقد قتل السارق بواسطة حجر سقط عليه من السقف في اللحظة التي مدّ بها يده للاستيلاء على مجوهرات المومياء.

لماذا سقط الحجر؟ لقد كان المصريون القدماء شعباً متديناً يؤمن بالمعجزات والأشباح والأرواح فأولئك الذين كانوا يفهمون ويستطيعون التنبؤ بفصول نهر النيل كانوا يظهرون كأنهم آلهة بالنسبة لإخوانهم البسطاء الذين لم يكونوا يعتبرون كعلماء. ولما كان الفراعنة يحيطون أنفسهم بالرجال الحكماء كانوا أول من يعلم موعد حلول موسم فيضان النيل وري الأراضي.

ولكن الإيمان بالآلهة والأشباح أخذ يضعف حالما انتشرت المعارف العلمية وحتى الناس العاديون أصبحوا يعرفون شيئاً عن التقويم والرياضيات والهندسة والفلك والري الصناعي، وفي الحقيقة لقد بدأت إزالة القدسية عن الملوك حوالي نهاية المملكة القديمة، عندما كان خوفو وتيتي لا يزالان يعتبران فوق البشر وذلك حتى اختفت الآلهة أخيراً عن عروشها الذهبية.

وكنتيجة لهذا فإن المصريين المتنورين ـ مع أنهم كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت لم يعودوا مقتنعين بالقدرة الكاملة للموتى وهكذا كان الكهنة والسحرة يستعملون المعارف التقنية لصيانة قوتهم والخوف والرهبة التي كانت اللعنات توحي بها. وهكذا فإنه ليس من قبيل الصدفة أن يسقط حجر من سقف قبو القبر عندما تلمس المومياء وإنما كان ذلك جزءاً من فخ بسيط محكم ومؤثر لإبعاد لصوص القبور عن الجثة المرتدية أفخر الكساء.

ولقد بذلت مجهودات أكبر لتأمين مثوى الفرعون الأخير مما بذل للمواطن العادي وبعكس الأشخاص العاديين كان باستطاعة الفرعون أن يخطط ببذخ لأجل دفنه وأن يتأكد أن جسمه سوف يكون محاطاً بالأبهة المطلوبة وأن يحنط تحنيطاً مناسباً يبقى للذرية.

وإذا كانت لعنة الفراعنة صادقة بالنسبة لتوت عنخ أمون ـ وهو ملك لم يكن بوسعه أن يعمل الكثير بالنسبة لمثواه الأخير ـ إلا أن هناك تفسيراً بسيطاً، فالملك توت عنخ أمون ودفنه كان قضية تهم الكهنة والسحرة. فقد كان في الثامنة عشرة فقط عندما مات وإنَّ نهايته كما سنرى كانت نهاية عنيفة مؤثرة.

فتح الباب المختوم، ولكن كل ما ذكرناه لم يكن معروفاً في يوم 17 شباط عام 1923 عندما كان هورد كارتر واللورد كارنرفون مستعدَّيْن لفتح المقصورة الرئيسية لقبر توت عنخ أمون.

لم يكن أي واحد من العشرين رجلاً من فرقة التنقيب يعلم أنه سوف يجد مومياء الفرعون في تلك المقصورة وذلك عندما تجمعوا في الساعة الثانية بعد الظهر في ذلك اليوم الدافئ من أيام شباط، في دهليز المقبرة وبالتأكيد لم يكن أحد يشك أن ثلاثة عشر رجلاً منهم سوف يموتون في فترة قليلة من الزمن.

هنا يصف كارتر المنظر بقوله:

كان يوم الجمعة السابع عشر من الشهر وهو اليوم المحدد، وفي الساعة الثانية بعد الظهر اجتمع أولئك الذين كان يحق لهم أن يشهدوا الاحتفال، في الموعد المحدد فوق المقبرة، كان هنالك إحساس من الترقب يسيطر على المشهد، فقد رتبت الكراسي في الغرفة الأمامية وقد غطِّي التمثالان الطبيعيان اللذان كانا يحرسان المدخل بألواح خشبية ووضعت حبال من الأضواء الكهربائية في الكهف ووقف كارنرفون ومعه العالم أرثريس على منصة قرب البوابة وهما يتناوبان أخذ الحجارة التي كان يقتلعها كارتر من الجدار بواسطة مطرقة وإزميل. وبعد أن فتح ثقباً في الحائط بقدر حجم رأس طفل دفع كارتر بمصباح كهربائي في الظلمة؛ عندها لمع الذهب ببريق أخّاذ: جدار من الذهب!! نعم من الذهب الخالص، بقدر ما تستطيع العين أن ترى.

وبعد إزالة بضعة أحجار أخرى، أصبح من المستطاع حلّ لغزّ الجدار الذهبي، فقد كنا في مدخل مقصورة مدفن الملك الحقيقية وذلك الذي اعترض طريقنا كان

جانباً من جوانب ضريح كبير موشى بالذهب بني لتغطية وحماية الناووس. وقد كان سقوط حجر واحد يمكن أن يحدث ضرراً بالغاً لسطح الضريح الرقيق الناعم وهكذا بعْدَ أن أصبح الثقب واسعاً بشكل كاف عملنا احتياطات إضافية لحماية الضريح ذلك بوضع حصير على القسم الداخلي من المدخل وتدلّى هذا الحصير على المدخل وقد استغرق العمل ساعتين من الزمن لتنظيف السد، وفي إحدى النقاط عندما كنا قرب القعر كنا مجبرين على تأخير العمل حتى استطعنا جمع الخرزات المبعثرة من عقد كان جلبه اللصوص من المقصورة وسقط منهم عند العتبة.

كان هوارد كارتر مرتدياً طقماً أسود تكريماً لهذه المناسبة، وبعد أن أصبح الثقب واسعاً كفاية بحيث يسمح لدخول رجل، عندها نزل كارتر إلى مقصورة المدفن الرئيسية وتبعه اللورد كارنرفون ولاكو.

كتب كارتر يقول: لقد كان من المسلم به أن هذه هي مقصورة القبر وهي التي وقفنا في داخلها، فهنالك كان يشمخ فوق رؤوسنا أحد الأضرحة المذهبة التي كان يرقد تحتها الملوك. وكان مبنى هذا الضريح هائلاً فقد كان طوله 17 قدماً وعرضه 11 قدماً وارتفاعه 9 أقدام وقد وجدنا فيما بعد أنه كان يملأ مساحة المقصورة وكان هنالك مسافة قدرها قدمان تفصل الضريح عن جدران المقصورة من الجهات الأربع بينما كانت قمة الضريح ذات إفريز «في قمته يصل إلى سقف المقصورة تقريباً».

هل وصل اللصوص إلى المقبرة أولاً يا ترى؟ هذا هو السؤال الملح الذي كان يشغل بال كارتر فكتب يقول:

«هنا وفي النهاية الجنوبية حيث كانت الأبواب العظيمة مغلقة ولكنها لم تكن مختومة، وهذا من الممكن أن يجهز الجواب على سؤالنا وقد سحبنا المزاليج بشغف وفتحنا الأبواب وهنالك في الداخل وجدنا ضريحاً آخر به أبواب مدربسة وعلى المزاليج ختم لم يمس.

لاشك أن اللصوص لم يجتازوا مسافة أبعد، فقد كان هنالك أشياء مخفيّة خلف الباب لم يرها أي إنسان منذ موت فرعون».

يقول كارتر: «كنت أظن أنه في تلك اللحظة لم نكن ننوي كسر الختم، لأن ذلك يبعث شعوراً بالإثم من هذا التطفل على حرم الفرعون، كان يخيم علينا جميعاً شعور بالرهبة لدى فتح الأبواب، وقد علا هذا الشعور بتأثير وجود غطاء النعش الكتاني المزخرف بوردات ذهبية.. لقد شعرنا أننا في حضرة الملك الميت، وعلينا أن نحيطه بالاحترام والتبجيل، وكنّا نتخيل أن أبواب الضريح تفتح واحداً بعد الآخر حتى أظهر الباب الفرعون نفسه. وهكذا انسحبنا بهدوء ونظام وأعدنا إقفال الأبواب الكبيرة التي كانت تدور على محور».

هذه هي كلمات رجل كان شاهداً ومكتشفاً لزاوية من زوايا التاريخ.

لقد كانت الاستعدادات لإخراج الفرعون الميت تظهر بأنها صعبة التنفيذ. وهكذا فقد ردم المدخل المؤدي إلى المقبرة مرة ثانية بالأنقاض ثم ذهب اللورد كارنرفون بسيارته راجعاً إلى القاهرة حيث استأجر شقة في فندق الكونتنتال لإقامة المنقبين. وأما كارتر فقد بقي في الأقصر.

موت اللورد كارنرفون:

في أوائل نيسان وردت إلى كارتر برقية مفادها: «اللورد كارنرفون قد انتابه مرض خطير ولكن كارتر لم يعر تلك البرقية اهتماماً كبيراً، ولكنه بعد أن استلم برقية أخرى تقول: اشتدت وطأة المرض على اللورد كارنرفون (حمى عالية)»: عندها توجه كارتر تواً إلى القاهرة.

بدأ المرض بشكل غريب «إنني أشعر بالجحيم» قال اللورد الذي كان قد بلغ السابعة والخمسين من العمر، وهو يتناول فطوره في صباح أحد الأيام وكانَتْ درجة حرارته قد وصلت إلى / 104/ فهرنهايت (40 درجة مئوية) وكان يرتجف من نوبات القشعريرة. وفي اليوم التالي تحسنت حالته، لكن سرعان ما عادت

الحمى العالية واستمر الحال على هذا المنوال اثنَيْ عشر يوماً. فقرر الأطباء أن اللورد كارنرفون كان قد جرح وجهه أثناء الحلاقة بحيث انفتح جرح مغلق قديم ولكن الحقيقة أن هذا التفسير لم يكن كافياً لتبرير بقاء الحمى مدة طويلة بهذا الشكل.

ويعلق ابن اللورد الأكبر على الحادث بقوله: «عندما وصلت إلى القاهرة أسرعْتُ إلى فندق الكونتنتال فوجدت والدي فاقد الوعي وكان بجانبه هوارد كارتر ووالدتي، ثم أيقظوني في الساعة الثانية إلا عشر دقائق بعد منتصف الليل عندما أتت الممرضة لتقول لي إن والدي قد توفّي. وكانت والدتي معه فأغلقت عينَيْهِ. وحالما خطوت داخل الغرفة انطفأت جميع الأنوار الكهربائية فأشعلنا الشموع ثم أخذت يد والدتي وبدأت أصلي».

وكتبت أخت اللورد كارنرفون في مذكراتها تقول:

«كان اللورد كارنرفون تعباً جداً فقد كان يقول: «إنني أسمع النداء وإنني أستعد».

لم يكن هنالك أي تفسير لانقطاع التيار الكهربائي في القاهرة في تلك الليلة فقد سئلت شركة الكهرباء ولم تعط أي تفسير معقول للانقطاع المفاجئ للتيار ثم رجوعه ثانية.

وقد روى ابن اللورد كارنر حادثاً غريباً آخر: «لقد ماتَ والدي قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت القاهرة. كما علمت فيما بعد أن شيئاً غريباً حدث في مدينةِ هايكلير في إنكلترا حوالي نفس الوقت أي حوالي الساعة الرابعة بتوقيت غرينتش وذلك أن كلبتنا الصغيرة التي كان يحبها والدي والتي كانت قد فقدت مخلبها الأمامي في حادث أخذت فجأة ودون مقدمات تنبح ثم وقفت على قائمتيها الخلفيتين ثم سقطت وقد فقدت الحياة»...

أحجية من الألف الثاني من قبل الميلاد:

لأول مرة أصبح العلماء والصحفيون يتحدثون بجد عن لعنة الفراعنة وعن الرقيم الذي كان قد وجد وفقد. وهنالك كثير من الرجال الذين تورطوا في هذا العمل قد فقدوا. كما بدأ كثير من مساعدي كارنرفون يموتون وبذلك انتشر الذعر.

كان كارتر قد طلب من عالم الآثار الأميركي آرثر ميس أن يساعد في فتح القبر وكان هذا قد نزع آخر قطعة من الجدار الذي سد المدخل إلى المقصورة الرئيسية، لقد شكا هذا الرجل من الإعياء المتزايد بعد وفاة كارنرفون وأخيراً استغرق في سبات عميق لم يستطع الأطباء أن يشخصوه وأخيراً توفي في نفس الفندق الذي كان قد توفي فيه اللورد كارنرفون.

ولقد كانت وفاة كارنرفون سبباً في قدوم أحد محبي التاريخ المصري وهو جورج جولد وهو ابن أحد المولين الأميركيين الكبار، فسافر في جولة من القاهرة إلى الأقصر ثم إلى وادي الملوك حيث أراه كارتر الاكتشاف المثير لضريح الفرعون. وفي الصباح التالي أصيب جولد بحمّى عالية مات على أثرها في المساء. ولم يستطع الأطباء أن يشخصوا أولاً ذلك المرض المميت ولكنهم استنتجوا أن سبب الوفاة كانت من الطاعون الدبلي وهو (مرض سببه ورم في الغدة اللمفاوية).

استمرت الوفيات الغامضة دون انقطاع إذ بينما استمر كارتر في استكشاف آثار المقبرة قدم رجل صناعي بريطاني وهو (جول وود) إلى موقع القبر وبعد الزيارة رجع إلى إنكلترا بحراً ولكنه توفي بالحمى العالية. وأما ارتشبولد دوجلاس ريد الاختصاصي بالأشعة السينية الذي كان أول من قطع الخيوط حول جسم مومياء الفرعون الميت وذلك لكي تصور الجثة تحت الأشعة السينية، هذا الرجل بدأ يقاسي من نوبات الوهن والضعف وبعد وقت قصير توفي عام 1924 إِثْرَ رجوعه مباشرة إلى إنكلترة.

ولم يأت عام 1929 حتى توفي اثنان وعشرون شخصاً من الذين كانت لهم علاقات مباشرة أو غير مباشرة بتوت عنخ أمون ومقبرته. كل هؤلاء توفوا قبل أوانهم

وقد كان ثلاثة عشر منهم قد اشتركوا في فتح القبر وبين المتوفين كان الأستاذان دنلوك وفوكرات وعلماء الآثار غاري دافس وهاركنس دوغلاس ديري والمساعدون أستور وكالندر.

ولقد توفيت زوجة اللورد كارنرفون عام 1929 وقيل: إنَّ سبب الموت كان لدغة حشرة. وأما أمين سر كارتر وهو رتشارد بيثيل فقد مات في تلك السنة أيضاً. ولقد كانت الظروف التي سبقت موت بيثيل هذا أغرب ظروف في سلسلة الحوادث المشؤومة المنحوسة هذه. ففي صباح أحد الأيام وجد بيثيل هذا ميتاً في فراشه نتيجة لقصور قلب احتقاني ولكن عندما علم والده بمصرع ابنه ألقى بنفسه من الطابق السابع في بيته في لندن وبعد ذلك وفي أثناء مرور الجنازة في طريقها إلى المقبرة دهست عربة الموتى ولداً صغيراً.

إن الموت سيقضي بجناحيه على أي شخص يحاول أن يعبث بهدوء الفرعون:

على ماذا تدل هذا اللعنة يا ترى؟ هل يستطيع إنسان مهما بلغت قدرته أن يؤثر على حياة الآخرين، أو أن يوقف حياتهم كلياً؟ هل كان هنالك أساليب لمثل هذه الأعمال في مصر القديمة، ربما اكتشفها بعض العلماء الموهوبين ونسيت بعد ذلك؟ هل كان هنالك سموم أو كائنات تسبب الأمراض قادرة على الاحتفاظ بقدرتها عبر آلاف السنين والتي كان الفراعنة الذين يتوقون إلى الخلود يأملون أن يحموا بواسطتها أجسامهم المحنطة والمذهبة من عبث البشر؟ أم هل كان هنالك إشعاعات مميتة تصدر من بعض العناصر الكيماوية النادرة أو المعادن التي كان يعرفها أولئك، والتي استعملوها لحماية قبورهم الصخرية الضخمة يا ترى أم أن هذه الوفيات الغريبة المتداخلة بعضها ببعض هي من قبيل المصادفات فحسب؟!

المـوت والمصادفـة

هنالك طريقتان لتفسير الحقائق التي وصفت في الفصل الأول:

الأولى أن نعزوها لمجرد المصادفة، والثانية الأصعب وهي أن ننشئ فرضية لتفسيرها وهذه الظواهر غريبة جداً إذ إنَّه لا يبدو من السهل وضعها في أي إطار علمي ومع ذلك فنحن قد اخترنا الطريقة الثانية.

إن ما ندعوه عادة الحظ هو ما يعرف عند العلماء بالمصادفات وقد درس علماء النفس الذين يبحثون التخاطر (أي الشعور عن بعد) هذه المصادفات، فإن (كارل غوستاف جنج) وهو أبو علم النفس الغامض وأحد أولئك الذين حللوا الأشياء التي تقع خارج الإدراك الحسي والتجربة الفيزيائية، كتب في كتابه (تركيب النفس وديناميكيّتها) يقول: لقد واجهتني ظواهر كثيرة من هذا النوع وعلمت كم هي هامة بالنسبة للتجربة الداخلية للكائنات البشرية وهي أصلاً مسائل لا يجرؤ الناس أن يتكلموا عنها خشية أن يتعرضوا لسخرية الآخرين وفضولهم. وكان هنالك رواد آخرون أوائل وأحدهم أحد علماء الحياة النمسويين وهو بول كميرير وأعظم عمل له (قانون التسلسل) نشره عام 1919 بعد أن قضى عقداً من السنين يستقصي ويبحث في (الفرص والعزم على الموت) ثم أتى بعده كتَّاب آخرون كتبوا في هذا الموضوع مثل (أرنست مالي) وكتابه (الاحتمال والتصميم) نشره عام 1938 وكتاب نظرية الاحتمال تأليف (وارنر ديفر) وكتاب جذور المصادفات تأليف آرثر كويستلر.

ولا يزال البحث العلمي حول المصادفات والاحتمال في مهده، ومع أن الإنسان كان مهتماً بكلا الموضوعين منذ آلاف السنين ويمكن أن نتقصّى ذلك الاهتمام في علم التنجيم عند المصريين والبابليين القدماء الذين اكتشفوا لأول مرة التناسق المنتظم في حركات النجوم واعترفوا بوجود بعض العلاقات بين حركات النجوم وحياة الإنسان.

ومع أن اكتشافات المصريين والبابليين القدماء كانت هزيلة سطحية وغير دقيقة، إلا أن المصريين أحرزوا فضل تصوير أبراج النجوم لأول مرة وابتكار التقاويم الفلكية التي تحوي جداول تظهر موضع كل جرم سماوي في عدد من التواريخ في تتابع منتظم وكانوا يعتبرون أن النجم سيروس أو (سوذيس) كما كان يدعوه اليونان، هو الذي يعلن فيضان النيل عندما يظهر صباحاً في السماء. وفي أول الأمر نظر المصريون إلى شروق (سوذيس) كتدبير من تدابير الآلهة ولكن وبعد قرون كانوا يلاحظون أن فيضان النيل كان يأتي مباشرة بعد ظهور هذا النجم، وعندها عرف المصريون العلاقة والارتباط بين هذين الحادثين فقد شرحت ملاحظات تغير الفصول منذ زمن طويل مسائل المصادفات وقد استطاعت العلوم التقليدية القديمة الإجابة على بعض هذه الأسئلة بينما بقيت المسائل الأخرى حتى يومنا هذا لغزاً لا يمكن حله.

ففي عهد ما قبل التاريخ المسيحي مثلاً كان الناس قد عرفوا ظاهرة تكرار الأمواج وتواترها فقد أشار اسكايليس ويوروبيدس إلى الموجة الثلاثية وهذه الموجة يمكن ملاحظتها على شطآن المحيطات فضلاً عن شواطئ البحيرات العظمى فبعد عشر موجات ذات أطوال متساوية تقريباً تأتي الموجات الثلاث التالية بشكل أعلى من سابقتها ومع أنه ليس هنالك أي تفسير كامل لهذه الظاهرة نرى القليل من الناس يميلون لاعتبارها (مصادفة محضة) وذلك لأن علم الفيزياء لم يصل بعد إلى التفسير العلمي الصحيح.

المصادفات الرياضية:

إذا فحصنا المصادفات رياضياً فإنها تخسر كثيراً من عدد قابليتها للتنبؤ فإذا رمينا قطعة نقود إلى الأعلى فإنها إما أن تنزل (طرة) أو (نقش) ففرصة نزولها (طرة) هي

واحدة من اثنين وأما إذا حدثت رميتان فإنهما تؤديان إلى واحدة من أربع نتـائج طـرة - طرة - طرة ، نقش ، نقش ، طرة ، نقش - نقش ، ولا يمكن أن تظهر مجموعات أخرى . وأما إذا رمينا القطعة ثلاث مرات فيصبح هنالك ثمانية احتمالات مختلفة طرة - طـرة - طرة ، طرة - نقش ، طرة - نقش - طرة ، طرة - نقش - نقش ، نقش - طـرة - طـرة ، نقـش - نقش - طرة ، نقش - نقش - نقش .

وفـي كتـاب (التناسـق فـي العـالم) يصـف (كـارل مـاريي) أول وآخِرَهـا نتيجـة للسلسلة وهـي الثـلاث رميـات التـي تـأتي بشـكل طـرة أو نقـش يصفـها بأنـها سلسـلة مجردة والنتائج الفردية كسلسلة عادية وكلما كـانت الرميـات متقاربـة كلمـا أصبحـت أقرب إلى السلسلة المجردة ولكن هذه النتائج نادرة وغير محتملة .

إنَّ قطعة العملة يمكن أن تأتي طرة عشر مرات نظرياً وبالتـالي فـإذا عوضنـا عـن عدد الرميات بحرف (ن) أي إنّ رمية واحدة لقطعة العملة الواحدة تنتج علاقةً قيمتـها 1 : 2 وعدد الاحتمالات يمكن أن يعبر عنه بالصيغة الرياضية 2 ن .

وإذا حدثـت ثـلاث رميـات فـإن هنـالك 21 احتمـالاً أو 8 حلـول محتملـة وإنَّ فرص نزول القطعة في الطرة 28 مـرة هـي حسـب هـذه الصيغـة تكـون 1 : 2^{28} أي 1 : 268435456 والعمليـة تصبـح أكثر تعقيـداً عندمـا يكـون هنـالك أكثر مـن احتمـــالين ويروي (وارن ويفير) حالة مماثلة حدثت في آذار عام 1950 في بياترس في نبراسكا إذ كان هناك تمرين لجوقة المرتلين في كنيسـة قريـة صغـيرة كـان مقـرراً أن تبـدأ فـي السـاعة السابعة وعشرين دقيقة مساء ، وكما حدث صدفة لم يكن أي واحد من أعضاء جوقـة المرتلين قد حضر في الساعة السابعة والدقيقـة الخامسـة والعشـرين فـالقس وهـو مدير الجوقة لم يحضر لأنه كان ينتظر زوجته لتكـوي رداء ابنتـه التـي كـانت ترتـل أيضـاً فـي الجوقة وكانت اثنتان من النساء المشتركات فـي الجوقـة كـل علـى حـدة لـم تسـتطيعا أن تسوقا سيّارتَيهما وهنـالك فتـاة أيضـاً مـن أعضـاء الجوقـة لـم تسـتطع أن تتـم واجباتـها المنزلية فلم تستطع الحضور وفتاتان أُخريـان كانتـا تسـتمعان إلـى مسـرحية مـن الراديـو فوجدتاها مثيرة حتى إنهما نسيتا الموعـد ، وإحـدى الأمـهات كـانت مضطـرة أن توقـظ

ابنتها مرتين فلم تستجب لها. وكل هذه أسباب بسيطة تضافرت لتفسير عدم تمكن أي واحد من هؤلاء من الذهاب إلى الكنيسة في الوقت المعين.

ولكن هذه الأسباب البسيطة سرعان ما تظهر فجأة تحت ضوء مختلف تماماً ففي الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة، وبعد خمس دقائق من موعد ابتداء تمرين الجوقة حدث انفجار الغاز في كنيسة بياترس مما سبب تدمير الكنيسة تدميراً كاملاً، فهل كان تأخر الخمسة عشر شخصاً هو بسبب العناية الإلهية يا ترى؟.

وهل أحس هؤلاء بشيء أم هي مجرد مصادفة. إنَّ هؤلاء لا يزالون أحياء.

وقد حسب (ويفر) أن الاحتمال ضد عشرةِ الأسبابِ للتأخر في تلك الليلة هي واحد إلى مليون وكانت المحاولة تجريبية لأن أعضاء جوقة المرتلين كانوا متأخرين بنسبة واحد إلى أربع مرات ولكن بما أن جميع أعضاء الجوقة متأخرون في نفس ذلك اليوم فإن إمكانية كل واحد منهم متأخراً هي نسبة (1 : 4)[10].

التناغم الحياتي:

إن تناسق الخصائص الفاجعة المشؤومة وتناغمَها غالباً ما يعزى للنجوم وهذه بالتأكيد هي أبسط طريقة وأكثرها شعبية للتفسير وحتى هذا التاريخ فإن اثنَيْ عشر رجلاً قد قفزوا قفزات عملاقة نحو القمر إلا أن تأثير القمر على الأرض قد ترك دون اكتشاف وكذلك فإن حركة المد والجزر قضية مسلم بصحتها ولكن قلما نعرف شيئاً عن تأثير القمر على الحياة البشرية، وإنَّ العلاقة المتبادلة بين نشاط الكلف الشمسي والمناخ قد تقرر ولكن علماء الحياة الروس فقط هم الذين ادعوا أن كلف الشمس يؤثر على انتشار الأمراض السارية أو المصائب أو الكوارث الطبيعية.

ولقد اكتشف عالمان روسيان الدورة الشمسية بتواتر أو تكرار قدره سبعة أو أحد عشر أو خمسة وثلاثون عاماً وفي تلك الدورات فإن العواصف المغناطيسية يمكن أن تهدم محطات كهربائية كاملة وقد أظهرت الأبحاث والاستقصاءات ازدياداً ملحوظاً في حوادث الاضطرابات العقلية وحوادث الطرق وحوادث الانتحار والموت

الطبيعي ففي 2 تشرين الأول عام 1970 ماتت ممثلة ألمانية شهيرة وزوجها الطبيب في حادث من حوادث الطرق في بافاريا وكان لموتها المأساوي أهميته إذ أنه في نفس ذلك اليوم (2) تشرين الأول كان هذان الزوجان في حالة من الركود الفيزيائي وهذا على الأقل هو رأي العلماء المتخصصين بالتناغم.

هذه التناغمات توصف بأنها عالية أو منخفضة وهي تظهر في أمزجة البيولوجي، إن التناغم البيولوجي نظرية قد كثر فيها الجدل وقد أنشأها (وليم فليس) وهو طبيب من برلين وهي مؤسسة على الفرضية التالية:

عند الولادة يبدأ تناغم الحياة البشرية وهو تناغم لقدرات المولود الفيزيائية والعاطفية أو (الروحية) والعقلية (أو الذهنية) وأن مقاييس هذه التناغمات توصف بأنها عالية أو منخفضة وهي تظهر في أمزجة الأفراد أو أدائهم للأعمال وإنَّ ما يعقِّد نظرية تناغم الحياة هذه أن كلاً من هذه التناغمات لها دورة زمنية مختلفة عن الأخرى فالدورة الفيزيائية تدوم نحو ثلاثة وعشرين يوماً والعاطفيَّة ثمانية وعشرين يوماً والعقلية حوالي ثلاثة وثلاثين يوماً.

وطبقاً لهذه النظرية فإن الناس يكونون في حالة جاهزة ومناسبة للعمل كل ثلاثة وعشرين يوماً ويكونون في حالة عاطفية جيدة كل ثمانية وعشرين يوماً وفي قمة الفاعلية العقلية كل ثلاثة وثلاثين يوماً وبنفس الوقت قدرة الدورة المنخفضة يجب أن يكون لها نتائج سيئة في الحضيض أو الدرك الأسفل في السلوك الفيزيائي أو النفسي أو الذهني. وبعد الحادث الذي تسبب بقتل الممثلة وزوجها الطبيب أخذ الباحثون في التناغم البيولوجي يقومون ببعض الحسابات المؤسسة على تاريخ الميلاد لكليهما ولقوس تناغم حياتهما وفي 2 تشرين 1907 وجدوا تأكيداً لنظريتهم فقد ثبت أن هذين الزوجين سعيا إلى حتفهما في يوم قد وصلا فيه إلى ذروة الدورة المنخفضة لحياتهما ـ هل كان ذلك على سبيل المصادفة؟.

لقد كثر الجدل حول نظرية التناغم هذه، فخصوم هذه النظرية لا يعتقدون بأن الدلائل الإيجابية أو السلبية هي نتائج للإيحاء الذاتي فيقولون: إنَّ أولئك الذين

يعلمون أنهم في حالة الحضيض العاطفي المزعوم سوف يشعرون بحالة من الكآبة في ذلك اليوم بينما أولئك الذين يعلمون متى ترتفع حالتهم النفسية تصبح جرأتهم عظيمة هذا بغض النظر عن تناغم الحياة بالنسبة لأولئك الذين لا يعلمون شيئاً عن نظرية التناغم الفيزيائي العتيدة. إن الوصول إلى الحضيض النفسي يعتبر السبب الرئيسي للعدد المثير للدهشة لحوادث الطائرات النفاثة المقاتلة الأميركية فقد بلغ عدد الحوادث خلال عام 1973 حوالي (156) حادثاً ولكن عندما درست حالات 23 طيّاراً من طياري هذه الطائرات من تاريخ الميلاد إلى يوم الحادث وجد أن ثلاثة عشر منهم قد وصلوا إلى حالة الانخفاض في التناغم الحياتي في اليوم السابق للحادث.

وقد بدأ اليابانيون يعيرون بعض الانتباه إلى نظرية التناغم البيولوجي فهناك (تايتو كوكوساي) صاحب أكبر مؤسسة لسيارات الأجرة في اليابان يكلف ثلاثة آلاف السائق الذين يستخدمهم بأن يكتبوا كل يوم قبل بداية العمل حالة تناغمهم الحياتية والمراسلون الخمسون الذين يشتغلون على الدراجات النارية في مصلحة التلفونات في يوكوهاما يضعون أعلاماً مثلثة الشكل صغيرة حمراء أو صفراء على مقود الدراجات النارية في أيام معينة ويعني العلم الأحمر: احذروا، السائق في حالة نفسية منخفضة، بينما العلم الأصفر يعني: انتبه، فالسائق يقترب من الحالة النفسية المنخفضة أو قد انتهى منها لتوه.

وقد بدأت سويسرا في تطبيق التجربة اليابانية واستعمالها، ففي زوريخ أخذت بعين الاعتبار قضية التناغم الحياتي لسائقي سيارات نادي سيارات الأجرة وذلك في تعيين الأعمال المنوطة بكل منهم وكنتيجة لهذا الإجراء فقد نقص عدد الحوادث بنسبة 30٪ وقد استطاع أحد مالكي سيارات الأجرة في بال (سويسرا) أن ينقص الحوادث بين سواقيه بنسبة 40٪ كنتيجة لملاحظة انحناءات التناغمات الحياتية بينهم، ويقدم جاك جوفنارد مدرب فريق الجمباز السويسري أبطاله الرياضيين للمباريات الدولية طبقاً لتناغماتهم الحياتية المواتية والمناسبة. وإذا كانت القسمة أو المقدور ليست مجرّد

خط فإن الظواهر تصبح جميعها ليست ذات أهمية عندما تظهر مقدورات عدة أشخاص ليس لهم أي تماس أو ترابط شخصي، متصلة بأسلوب غريب مثير ولنأخذ كمثل على هذا العالم الفيزيائي الإيطالي الذي ركز على أعمال (بيير كوري) في إحدى محاضراته عن النشاط الإشعاعي وبينما كان هذا العالم يتكلم توفي بيير كوري في حادث سيارة وفي مناسبة أخرى كان نفس الأستاذ يحاضر طلابه عن نظرية الغازات التي ابتكرها العالم النمساوي (لودفيج بولتزمان) وفي أثناء تلك المحاضرة كان بولتزمان هذا قد أقدم على الانتحار. إنّ هذا يبدو أكثر من مصادفات فهي تثير أسئلة خطيرة حول دور المصادفات المجردة ـ هل هنالك روابط نفسية أو تخاطرية بين الناس المتشابهين في اهتمامهم وشعورهم ومشاكلهم وهل يمكن للعنة الفراعنة أيضاً أن لا تكون أكثر من نتيجة عملية تفكير من قبل بعض الأفراد متشابهي الشعور والاهتمامات أو نتيجة فشلِهم.

إننا جماعة من الناس المستنيرين الهادئين المفكرين الذين يعيشون في الثلث الثالث للقرن العشرين ولكننا يجب أن نقبل الحقيقة القائلة بأن الفرق بين الملاحظة الحسية والملاحظة الحسية الزائدة يكون صغيراً جداً حتى إننا لا نلاحظ الفرق أولاً ولا نفطن إليه إلا ونحن في غاية الدهشة والذهول عندما نقف أمام جدار مسدود.

حقاً إن علماء الفسيولوجيا يستطيعون أن يفسروا بعض الظواهر كظاهرة صيرورة بعض الأشخاص الهستيريين أحياناً في حالة صمم مع أنهم يستمرون في السماع بواسطة أطراف أصابع أيديهم أي كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينقلوا مقدرتهم على الملاحظة من حاسة إلى أخرى ولكن هؤلاء العلماء لا يستطيعون أن يجيبوا على السؤال الوارد وهو لماذا يصاب بعض الناس بالسرطان وبعض الناس لا يصابون؟

إن البليثيسموغراف هي آلة لجعل النشاط العقلي مرئياً (أي تصوير النشاط العقلي) وإنّ المبدأ الذي تشتغل به هذه الآلة بسيط جداً فهناك جهاز حساس يسجل الضغط في الأوعية الدموية الدماغية وحجم الدم فيها فالضغط وهجوم الدم يزدادان

عندما تبدأ عملية التفكير وهناك آلة للقياس تسجل هذه التغيرات بشكل يشبه عمل آلة تخطيط القلب.

ولقد فحص أحد العلماء التشيكيين واسمه (فيجار) شخصين متشابهين في البنية العقلية والجسمية وقد وضعهما في غرفتين منفصلتين ثمَّ ألصق آلة التصوير العقلي في رأس كل منهما ثم طلب من أحدهما أن يحل مسألة رياضية معقدة نوعاً ما وأما الآخر فلم يعرف شيئاً عن المسألة وبدأت كل من الآلتين في تسجيل النشاط العقلي لكلا الشخصين في نفس الوقت. ولكن حدث ما لا يصدق - ولا يمكن معرفة سببه علمياً - وهو أن الرسم البياني كان مشابهاً لكلا الشخصين مع أن أحدهما لم يكن يعرف أن الآخر كان يحل مسألة رياضية.

وهنالك تجربة بعض العلماء الروس الذين ذبحوا بعض الأرانب في غواصة وفي نفس الوقت قاسوا نشاطات الأدمغة لأمهات الأرانب المذبوحة التي كانت في مخبر على بعد مئات الأميال من الغواصة.

وفي اللحظة التي ماتت بها الأرانب الصغار سجلت الآلة الملصقة بالأرانب الأمهات تموجات حادة لنشاط الأدمغة فقد كانت الأمهات تخضع لنوع من المثيرات أو المنبهات الغامضة ولكن ما هي هذه المنبهات؟ هل هي إشعاع أم أمواج كهرطيسية أم أمواج؟.

وقد أظهر ليونيد وازيليو الباحث السوفييتي في علم النفس التخاطري ذلك باستعمال تجارب فيزيائية بسيطة لإثبات ما يرمي إليه وهو أن الظواهر الخارقة والمهارات ليست نتائج الأمواج أو التيارات أو الإشعاع فقد حبس الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة في غرف من الرصاص مجهزة بأبواب مكسوة بالقصدير وهي أفضل طريقة للحماية من الأمواج الكهراطيسية أو أمواج (جاما) أو الأمواج القصيرة جداً أو الأمواج الطويلة جداً، ولكن الأمواج الطويلة تتطلب مقداراً كبيراً من الطاقة لا يستطيع أي دماغ بشري أن ينتجها بينما الأمواج القصيرة جداً تسبب عطباً في

الدماغ، فالأمواج لا يمكن أن تكون مصدراً من مصادر النشاط الدماغي وذلك لأن التجارب التخاطرية مع الأشخاص الذين أجريت عليهم التجارب والذين كانوا محصورين في الغرفة الرصاصية. هذه التجارب نجحت فثبت أن الأمواج لا علاقة لها بالنشاط العقلي.

وأحد الأمثلة الكلاسيكية قضية (روزا سكودل) وهي إحدى الفلاحات النمسويات ففي ليلة 14 تشرين الثاني عام 1941 استيقظت روزا على صوت صرير صادر عن باب غرفة نومها فقد كانت الريح قد فتحت الباب بقوة ولكن حالما حاولت المرأة أن تنهض لكي تغلق الباب رأت رؤيا غريبة «خيل إلي أن في القاعة ثلجاً وأن تابوتاً موضوعاً في الثلج وأن ابني في التابوت».

عندها شعرت المرأة بالذعر وأيقظت زوجة ابنها وأخبرتها بما حدث وكانت الساعة حوالي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. وقد ظلت روزا سكودل تعيش لمدة ثلاثة أسابيع في إيمان راسخ واقتناع أن ابنها ليوبولد قد مات في روسيا وبعد ذلك تأكدت مخاوفها إذ وردت لها رسالة من الضابط المسؤول عن ابنها في سمولنسك تقول: إنَّ ابنها ليوبولد قد أصابته شظايا قنبلة في رأسه وبعد أن سحبه الأطباء إلى مكان أمين نوعاً ما أجبروا على ترك النقالة في الثلج وانطلقوا بسرعة فراراً من قذف القنابل المتكرر، وحالما فعلوا ذلك ندت من ليوبولد صرخة «أماه أماه» ثم مات وكان تاريخ الرسالة وزمن وفاة ليوبولد هو 14 تشرين الثاني عام 1941 في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

كل شيء صافٍ في غرفة العمليات:

إن الحقيقة التي تقول: إنَّ هنالك اتصالاً بين الحيوانات والإنسان في حالات واقعة بين الخط الفاصل بين السوي وغير سوي، إنَّ هذه الحالات لا تناقض نظرية وجود مصدر مجهول لنقل الطاقة. وبالعكس إنها تحدد الفرضية بحيث تمنع وجود

الذكاء التقني كشرط أو متطلب لمثل هذا النقل والآن لنسمع لما قالته السيدة ايدالوني من كيبوزو في حوض الراين.

«عام 1944 اشتدت الغارات الجوية المركزة ضد ألمانيا وقد قاست مدينتنا الواقعة على الجانب الغربي لنهر الراين قرب أخن الكثير وكنا مجبرين على قضاء كل ليلة تقريباً في ملجأ الغارات الجوية، وقد زرت مريضاً في مستشفى المدينة وبعد ذلك تحدثت مع الممرضة (ارزولا) وهي راهبة هادئة كلها أمومة، قلت لها: إنَّ نقل المرضى الذين هم في حالة خطرة من غرفة العمليات إلى الملجأ في كل غارة جوية هو أمر فظيع، ولكن الأخت أزرولا أخبرتني أنَّها لا تنقل مرضاها دائماً إلى القبو في كل غارة، فقد كانت تعتمد على كلب صغير في بناية مجاورة كان ينبح نباحاً حاداً كلما كان هنالك خطر حقيقي يهدد المنطقة وكان ذلك الكلب لا يخطئ فهو يعرف دائماً إذا كانت قاذفات القنابل تمر حقيقة فوق المنطقة أو أنها ذاهبة إلى منطقة المرور.

وهكذا فإن هنالك ظروفاً صغيرة تؤثر في الحياة والموت فإذا كان موت الإنسان يقرر على يد عوامل غير منطقية ظاهرياً فقد آن الأوان للبحث عن هذه العوامل.

ففي تاريخ معين وفي ساعة معينة مثلاً لماذا نجد شخصاً عديم الانتباه لدرجة أنه يتعثر وهو ينزل من أعلى الدرج فتُدقُّ عنقه ويموت؟.

لماذا يصاب شخص أخر بنوبة قلبية في يوم معين وفي وقت معين؟. ويمكن للسؤال أن يقلب بشكل آخر. لماذا ينجو أحدهم من حادث طائرة بينما يموت كل الركاب الآخرين.

إن أسوأ كارثة طيران حدثت في ألمانيا في تاريخ الطيران المدني هي في كانون الأول 1972 عندما قتل 156 شخصاً في طائرة كانوا قد استأجروها من خط الطيران الإسبانيّ، وقد تحطمت حالاً بعد أن أقلعت من مطار تنيريف وقد أظهرت التحقيقات أن الحادث كان سببه الإخفاق البشري. لماذا أخفق الطيار وتخلف عن القيام بواجبه في ذلك الصباح بوجه خاص والأهم من ذلك لماذا رفضت زوجة أحد أصحاب

شركة من شركات الباصات في بافاريا ركوب تلك الطائرة قبل إقلاعها وصرخت صرخة هستيرية جعلت زوجها يعدل عن ركوب الطائرة ثم نزلا من الطائرة عندما كانت الطائرة على المدرج.

إن هذه الحادثة كما وصفها أحد العلماء هي مثال نموذجي من أمثلة الاستبصار الذي يمكن المرء من معرفة الأحداث قبل وقوعها، ولكن ليس لدى العلماء أي تفسير حقيقي لهذا الحدث. ولو عرفوا ذلك لكانت كوارث الطيران قد انتهت منذ عهد طويل.

لقد فقد عدد من الأطفال يبلغ (140) طفلاً والداتهم في قرية إكسبردج التي يبلغ عدد سكانها 1200 نسمة في 10 نيسان عام 1973 وذلك عندما اصطدمت طائرة تحمل 146 راكباً في قمة جبل مغطى بالثلج قرب مدينة (بال) وكان النادي النسائي المحلي قد نظم هذه الرحلة وكانت (ماريانا وارن) قد خططت للقيام برحلة هذه الطائرة أيضاً ولكنها رأت حلماً قبل بدء الرحلة ببضعة أيام وتقول السيدة «رأيت الطائرة تتجه نحو الأشجار وتصطدم بالأرض على الثلج وكانت جثث أصدقائي تتناثر حولي، وأخيراً وفي اللحظة الأخيرة بعت تذكرة سفري بنصف قيمتها: ثماني جنيهات».

إن الاحتمالات ضد حادث اصطدام الطائرة هو (330.000 : 1) وهذه هي حقيقة إحصائية. ومع ذلك فإن شركة الطيران الدولية كشفت النقاب عن أن (25) مسافراً قد ألغوا سفراتهم الجوية بسبب هواجس أو احساسات داخلية سابقة للخطر وأن الطائرات في ست من هذه الرحلات قد وقعت لها حوادث فعلية وتعتبر هذه احتمالات بنسبة 4: 1 من الخطر. هل هنالك أشخاص يعرفون عن الخطر أكثر مني ومنك يا ترى؟.

التنبؤات بالموت:

إن مقدرة (جين دكسون) على التنبؤ بالمستقبل كانت عظيمة جداً حتى إن هذه المقدرة ذكرت في كتاب (موهبة التنبؤ) تأليف روث مونت غومري.

ففي عـام 1952 تنبأت السيدة دكسـون أن رجلاً أزرق العينين سوف ينتخب رئيساً للولايات المتحدة عام 1960 وسوف يموت ميتة عنيفة أثناء توليه منصب الرئاسة وفي يوم الجمعة 22 تشرين الثاني عام 1963 كانت السيدة دكسون تتناول طعام الغداء مع سيدتين أخريتين في مطعم في واشنطن.

«ـ ما الخبر؟» سألها أصدقاؤها عندما رأوا أنها لم تمس طعامها فقالت: «إنَّ شيئاً مخيفاً سوف يحدث لرئيس جمهوريتنا اليوم ولذلك فإني قلقة ولا أستطيع تناول أي لقمة». وبعد لحظات بدأت نشرات الأخبار في الراديو والتلفزيون تذيع نبأ إطلاق النار على جون كندي.

لم تتنبأ جين دكسون بموت كندي فقط ولكنها ذكرت الحرف الثاني من اسم قاتله. وهو حرف (س) في اسم أو سوالد.

ومهما يكن من إثارة في هذه القضية فلا شك أن السيدة ديكسون قامت بهذه التنبؤات سلفاً قبل أن تحدث وذلك لأن شهوداً مستقلين أيدوا كل ما ذكر وفوق ذلك فإن السيدة دكسون تنبأت بموت (داج همرشولد) بحادث الطائرة وهو الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة وكذلك بانتحار مارلين مونرو وموت المهاتما غاندي.

فالموت إذن ليس قضية مصادفة فحسب بل يمكن أن يتقرر سلفاً على يد نوع من الظروف التي يمكن لأشخاص موهوبين بصورة خاصة أن يحسوا بها أو يتفهموها. من الغرابة أن نرى مفهوم الشعور قد تخطى معناه الأصلي فقد أصبح يبتعد عن معنى اللمس أو الإحساس، وصار يعني تسجيل المادة أو النشاط وهذا يعني أبسط تفسير للهواجس أو الاحساسات الداخلية للسيدة ديكسون حول الموت (لاحظ أن هذا أبسط تفسير).

اعتقد الصينيون القدماء أن كل إنسان هو مولد للقدرة التي تنتج الطاقة والنشاط المعروفَيْن (بقوة الحياة) وهذه القوة الحيوية تستمر في الفضاء وكنتيجة لهذا فهنالك علاقات القرابة بين الفضاء والإنسانية، ويمكن أن نجد جُذوراً لهذه النظرية في

كل ثقافة من ثقافات العالم فالهندوس يسمون هذه الطاقة (برانا) ويقولون بأنه يمكن شحن هذه الطاقات بتنفس الأوكسجين وهذا يشبه التأين[1] . ومن هذا نرى أن التنفس يلعب دوراً هاماً في (اليوغا).

لم تتطور نظرية (الطاقة الحيوية) هذه حتى القرن السادس عشر وقد أعطاها العالم (باراسيلوس) شرف القدرة على جعل الإنسان يعيش أو يموت.

وادعى أيضاً أنه من الممكن لهذه الطاقة أن تنتقل من شخص لآخر وقد سمَّى هذه الطاقة (مونس) وبعد قرن من الزمان اقترح جان هليمونت وهو طبيب كيماوي من بروكسل أن هذه الطاقة الحيوية يمكن أن تؤثر على إرادة شخص آخر في مكان آخر وهذا ما جعل هليمونت يقف على عتبة علم (التخاطر).

وبعد ذلك ظهر طبيب ألماني يدعى (فرانك مزمير) (1734 ـ 1815) درس بعض المظاهر الفيزيائية وكان يدعوها المغناطيسية الحيوانية واعتقد بهذه المظاهر حتى إنَّه أصبح يصف التداوي بالمغناطيسية لمرضاه لإرجاع متطلبات الطاقة في المريض إلى توازنها الطبيعي وقد اقتنع الدكتور مزمير هذا أن القوى المغناطيسية الكونية في الإنسان يمكن أن يكون لها تأثير شفائي على المرض فيما إذا وضع الطبيب يده على المريض مثلاً فالمرض حسب رأي الدكتور مزمير هو تعطل أو خلل في الدورة المنسجمة للقوى الكهراطيسية في كياننا بينما الشفاء هو استعادة هذا التناسق والانسجام الذي يتأثر بدوره بتطبيق الإشعاع المغناطيسي.

لقد ظهر اسم (الطاقة البيولوجية) تحت عدة أصناف من الأسماء مثل القوة الطبيعية أو أشعة (ن) أو القوة الأثيرية وأما العلماء المحدثون فيصفونها أنها الطاقة الجسدية النفسية ولكن هذا البحث يعتبر فتحاً جديداً في عالم العلوم وقد بحث كارل فون ريشينباخ وهو أحد الكيماويين الألمان فيما يدعى (حركة الهواء عند نقطة مكهربة) أو مجال الإشعاع البشري في منتصف القرن التاسع عشر بينما كان (مزمير)

(1) التأين: هو ازدياد سرعة الإلكترون وانسلاخه عن مداره بسبب تسريعه من قبل جهاز تسريع خاص.

يعتقد أن المغناطيسية الحيوانية عبارة عن سائل واعتقد ريشينباخ أيضاً أن جسم الإنسان يفرز نوعين من مواد صبغية سماها (أود) وطبقاً لأنصار هذه النظرية فإن الطاقة العصبية كانت فيزيائية بشكل يمكن به أن تفرز في الماء ويصبح لها طعم لا بأس به. ويقال أن (كلارفويانتش) وبعض الأشخاص الحساسين الآخرين كانوا يلاحظون هذه الظاهرة بأم أعينهم كنوع من الضوء.

ولسوء الحظ فإن المتحمسين للشؤون الغامضة والخفايا كانوا سريعين في إساءة استعمال أي مكتشفات جديدة حتى إنَّ العلماء كانوا قليلي التحمس لعمل أي أبحاث جديدة ومع أن رجلاً يدعى (هيدويلر) قد قاس المجال المغناطيسي حول الكائنات البشرية في عام 1902 إلا أنه مرت ست وعشرون سنةً قبل أن تستأنف أبحاثة هذه من قبل عالمين آخرين وهذان العالمان قاما بتجاربهما في داخل (قفص فارادي) وبرهنا بمساعدة الكالفانوميتر على وجود مجالات للتوتر في داخل جسم الإنسان تتغير شدتها طبقاً لرد فعل العضلات.

وفي وقت لاحق درس الدكتور (وست) إشعاع الأجسام وبما أن الخشب هو مادة غير مشعة لذلك أجريت التجارب على طاولات خشبية.

وقد أظهرت هذه التجارب أن المواد المشعة (مثل الأحجار والمعادن والسوائل) يمكن أن تقاس حتى بعد أن تزال خواصها الإشعاعية لغرض التجارب.

وهنالك فكرة يعوزها البرهان العلمي وهي فكرة وجود مناطق الحوافز والمنبهات المؤسسة على الإشعاع الأرضي ونظراً لأن أول من أوجد هذه النظرية كانوا من الباحثين العاديين فلم يعترف بها من قبل العلماء المتزمتين مع أن التجارب على الحيوانات والنباتات قد أنتجت براهين ساطعة على قيمة هذه التجارب وحتى بين الكائنات البشرية وجدت دلائل تثبت هذه المناطق الجغرافية إذ يمكننا أن نتتبع شفاء بعض حالات الأرق المزمنة وذلك بنقل الفراش من مكان لآخر.

الموت عند الكيلومتر 23.9:

أظهر العالم (سوير برشن) أنَّ التوتر الجسماني يعتمد على ظروف الطاقة الفيزيائية، ويعالج كتاب (جذور الإدراك الحسي) تأليف كارل جاكيل هذه الظاهرة، وهو يعطي تقريراً عن تجربة ممتعة، أجراها مع شخصين آخرين أحدهما (هانس دانر).

هنالك بعض الشوارع في ألمانيا تدعى (شوارع الموت) تحدث فيها عدة حوادث مميتة دون أي سبب ظاهر فمنذ عام 1932 حدثت المئات من الحوادث في امتداد مستقيم للطريق قرب (بريمن) عند علامة الكيلومتر 23.9، وعند ذلك أخذ (هانس دانر) ومعه باحثان آخران بعبور الطريق المحاطة بنطاق من الجند والشرطة في إحدى الليالي ولم يكن (دانر) يعرف الطريق وكانت العلامات مغطاة بالأكياس ولكن (دانر) اكتشف مصدراً من الإشعاع الأرضي مسبِّباً للتمزق وحيث استطاع (دانر) أن يجد مكان الإشعاع المسبب للتمزق وجد أن هنالك علامة مكتوب عليها الرقم (23.9).

التجارب في الأهرامات:

إذا كان الإشعاع الأرضي والجسماني والمادي عبارة عن طاقات فمن الممكن زيادة هذه الطاقات، وفي الحقيقة هنالك تجارب تدل على أن بعض الأجسام الهندسية يمكنها أن تجمع الطاقة ثم تطلقها بشكل مركز، وقد تركز الاهتمام بالنسبة لهذه القضية في الأهرامات المصرية.

أقفل المستكشف الانكليزي (بول برانتون) على نفسه في هرم خوفو الحجرة الملكية لليلة واحدة وفي نهاية الليلة شعر كأنه فقد عقله، وقد عانى وعياً منفصماً حافلاً بذكرياته عن تلك التجارب، وكانت أحلامه في تلك الليلة تدور حول موته وأصبح فاتر الشعور تماماً بعد أن خرج من تلك الغرفة في الصباح التالي.

وفي عام 1959 حصل (كارل دربل) المهندس الشعاعي في براغ على ترخيص باستئجار هرم صغير وقد كان (دربل) قد لاحظ بعض التجارب التي أجراها عالم الأشعة الفرنسي (مارشال) عن العلاقة بين شكل الهرم والعمليات الفيزيائية التي

تجري داخله. وقد جرب مارشال أولاً نماذج من الأهرامات حيث لاحظ ردود الفعل للمواد العضوية في داخلها لعدة أيام متعاقبة وكان استنتاجه كما يلي:

إن الأهرامات تسرع في عملية التحنيط والتجفيف، مثلاً إنَّ السمكةَ الموضوعة داخل نموذج هرمي خسرت ثلثي وزنها خلال ثلاثة عشر يوماً وقد تقلص جهاز التنفس في خروف إلى النصف في مدة ستة أيام وفي مدة ثلاثة وأربعين يوماً جفت بيضة فأصبح وزنها اثني عشر غراماً بعد أن كان اثنين وخمسين. وحتى السمكة لم يتغير شكلها ولا رائحتها.

وقد اعتمد (دريل) في عمله على التجارب السابقة المذكورة واستعمل التأثير الفيزيائي لشكل الهرم في الكشف عن التأثير في عملية سن موسى الحلاقة فبنى نموذجاً لهرم من الكرتون له قاعدة طولها 23 سنتيمتراً وعلوه15 سنتيمتراً وقد بقيت أرضية الهرم مفتوحة ثم بدأ بالتجربة التالية: وضعت شفرة حلاقة مثلمة (أي غير حادة) على قاعدة من الخشب أو الكرتون بعلو 5 سم ثم وضع الهرم فوق تلك القاعدة معرضاً لحرارة الشمس في النهار والأهم كان تخطيط وضع الشفرة ووضع الهرم الدقيق على المحور الممتد شمالاً ـ جنوباً بحيث كان الطرف الحاد من الموسى بشكل متصالب مع المحور الشرقي ـ الغربي وقد دامت عملية السن حوالي ستة أيام.

وهذان المثلان عن هندسة الأهرامات أخذت من الفيزياء التجريبية وهي تثير السؤال التالي: هل عرف المصريون القدماء أو على الأقل المثقفون منهم شيئاً حول تطبيقات الطاقة، هذه التطبيقات التي لم يستطع العلم الحديث أن يعيد اكتشافها بعد؟ هل يمكن لبعض الأشكال الهندسية أن تحشد بعض القوى النفسية القادرة على التسبب في الموت؟ وإذا كان الأمر كذلك هل هي تقدم قاعدة أو أساساً لحل اللغز الكامن وراء لعنة الفراعنة.

لقد مات ثلاثة عشر شخصاً من الذين حضروا فتح مقبرة توت عنخ أمون بشكل غامض فيما بعد ولم يكن موتهم مسبباً عن فعاليات سيئة معينة ففي المعدل الوسطي تعيش الذبابة حوالي 75 يوماً وملكة النحل تعيش خمس سنوات والقطة

تعيش خمس سنوات والحصان أربعين عاماً والفيل يمكن أن يعيش إلى الخمسين أما التمساح فيعيش مئة عام والحوت ثلاثمائة عام ولكن قليلاً من الكائنات الإنسانية تعيش أكثر من مئة عام ولكن على العموم قلما يصل الرجال إلى السبعين من العمر.

وعندما اكتشف قبر توت عنخ أمون كان عشرة من خمسة عشر شخصاً في أوربا يعمرون حتى الخامسة والخمسين ولكن عشرة من ثلاثة وعشرين شخصاً ممن اشتركوا في التنقيب عن القبر قد عاشوا حتى ذلك العمر.

أسرار العلوم:

من الصعب أن نصدق أن المدنيات القديمة كالمدنيَّة المصرية كانت تعرف الكثير عن العلوم الحديثة، وبالرغم من اكتشافاتهم الثورية فإن المصريين القدماء لم يسمحوا إلا للقلائل المختارين بالمساهمة في المعارف التي اكتشفوها، وأما عامة الشعب فالعلم بالنسبة إليهم كان مغلفاً ضمن أسوار من الكتمان والسرية كما كان الرجال الذين يمارسونه.

فما أصبحت الأقلية من الطبقة العليا تعرفه كحقائق كان بالنسبة لبقية الشعب من عمل الآلهة أو المعجزات أو السحر، وهذا ما يفسر سبب نقل العلماء المصريين ثمرات إنتاجهم معهم إلى قبورهم. فالمعرفة بالاختصار كانت مخصصة لإنجاز عمل معين أو وظيفة معينة لوقت محدد، وبعد ذلك تختفي من ضمير الشعب ربما ألف سنة أو ربما لأكثر من ذلك وإلى الأبد، ولكن البينات الأخيرة التي ظهرت عن هذا العصر كانت هامة جداً مما حرض الرجال العقلاء والمشهورين على شد الرحال إلى أرض وادي النيل لكي يكملوا ثقافتهم. ومن بين أولئك الذين قيل بأنهم قاموا بمثل هذه الرحلات هوميروس، واورفيوس، ويوروبيدوس ومن رجال السياسية ليكورغوس، وصولون، ومن الفلاسفة تاليس وأفلاطون، ومن الرياضيين يودوكسوس، وأرخميدس، وحتى إذا لم يكن من السهل البرهنة على أن هذه

الرحلات قد حدثت فعلاً فإن مجرد فرض أن هؤلاء قد سافروا إلى مصر هو برهان ساطع على الأهمية التي كانت الثقافة المصرية القديمة تتمتع بها.

ولقد بلغ من أفلاطون أنْ دعا شعبه اليونان أطفالاً بالنسبة للمصريين، ففي كتابه (تيماكوس) يجعل أفلاطون كاهناً مصرياً من (سايس) يقول لصولون:

«يا صولون. أنتم اليونانيين كنتم وما تزالون أطفالاً فليس هنالك أي شخص عاقل بينكم فأنتم لا تملكون أي تقاليد وإنَّ أساطيركم عن ديكاليون وفيتون هي نتف صغيرة من تلك التي أَتْلَفَتها النار والطوفان.

وإن مثل تلك الكوارث قد أثرت على الإنسانية من وقت لآخر وأفنت أمماً بكاملها ومعها كل ما سجلته من منجزات علمية ولكن النيل قد حفظ أمتنا من مثل هذه الكوارث وهذا ما جعلنا قادرين أن نحتفظ في معابدنا بالشهادة التاريخية عن ماضينا الخالد بينما عليكم أن تبدؤوا تاريخكم دائماً من جديد ولا تعرفون أبداً ما حدث في بلادكم فكيف بالبلدان الأخرى؟».

الانتحار في سبيل تقدم العلوم

في يوم الأربعاء الواقع في 10 آذار عـام 1970 وعلى أرض الحفريـات الأثريـة في صقارة على بعد 30 كيلومتراً جنوب القاهرة كان العمـال يستعدون لـترك العمـل بعـد يوم حافل، ومع أن الساعة كانت تشير إلى الثانية بعد الظهر إلا أن العمال كـانوا شعثاً غـبراً من رمـال الصحـراء فـأخذوا يلقـون بقففـهم المصنوعـة مـن الإطـارات المطاطيـة لسيارات الشحن على الرمل، ففي الساعة السابعة صباحاً كان العمـال ينقلـون الرمـل والتراب والصخور من باطن الأرض من عمق حوالـي عشـرة أمتـار، ولـم تكـن تلـك العمليات سهلة ولكن كـانت أجورهـا جيـدة، إذ أيـن يستطيع العـامل أن يجـد أجـوراً أحسن من تلك الأجور على طرف الصحراء الليبية؟.

لقد أصبحت قرية صقارة جذابة منذ عام 1935 عندما بدأ جميع أولئك المنقبون المهووسون بالحفر يتوافدون إلى هناك، وكانت مقبرة صقارة وهي مدينة الموتى التابعـة لمدينة ممفيس القديمة تبلـغ سبعة كيلومـترات طـولاً ومـن 500 إلـى 1500 مـتراً عرضـاً ويشرف عليها من علٍ هرم (زوسر) الذي يبلـغ خمسـة آلاف السـنة مـن العمـر ويعتبر أقدم بناء لم يُمسّ في العالم.

وقـف (ولـتر بريـان إيمـري) وهـو أسـتاذ الآثـار المصريـة القديمـة ورئيـس بعثـة الحفريات بجانب طرف الحفرة.

كان بريان وهو الاسم الذي اعتاد زملاؤه مناداته به يحمل تمثالاً صغيراً يبلغ علوه نحو عشرين سنتيمتراً وهو تمثال إله الموت «أوزيريس» وكان يتفحص التمثال من جميع جوانبه بإمعان ثم سار باتجاه القرية يرافقه مساعده المصري.

كان للحفارين بيت صغير مؤلف من طابق واحد في (صقارة)، وفيه مكتب وغرفة للغسيل، ولكن لم يكن أي من علماء الآثار يعيش هناك وعندما وصل إيمري ومساعده المدعو (علي الخولي) إلى المكتب كان علي الخولي منهوك القوى بسبب الجو فسقط على خِوان وأما إيمري فقد مشى ودخل إلى غرفة الغسيل والآن لنسمع المساعد يروي بقية القصة:

جلست على الخوان. وفجأة سمعت صوت عويل وأنين يصدر من غرفة الغسيل فنظرت من خلال الباب وكان مفتوحاً جزئياً ورأيت إيمري يتمسك بحوض الغسيل «فقلت له هل تشعر بالمرض؟» ولكن الأستاذ لم يجب وقد وقف هناك وكأنه مشلول فأمسكت به من تلابيبه وسحبته إلى الخوان وبعد ذلك أسرعت نحو الهاتف.

حضرت سيارة الإسعاف ونقلت إيمري إلى المستشفى البريطاني في القاهرة وكان تشخيص المرض كما يلي: «شلل في الجانب الأيسر» ولم يكن باستطاعته الكلام وقد مكثت زوجته ماري التي كانت تصحبه في معظم رحلاته معه طوال الليل وفي اليوم التالي الواقع في 11 آذار عام 1971 مات ولتر بريان إيمري وبعد يوم كتبت جريدة الأهرام القاهرية مايلي. «إن هذه الحادثة الغريبة تجعلنا نعتقد أن لعنة الفراعنة الخرافية قد عادت إلى الظهور».

كان الحفارون المصريون الوطنيون يقولون: إن (إيمري) لم يكن إنكليزياً بل مصرياً ينكر وجود تلك اللعنة باستمرار مع أنه قد سمع بها ولكن عندما يحدث أن يطلب الصحفيون منه أن يعلق عليها كان دائماً يرفض ذلك وقد قال علي الخولي:

«كان إيمري يتحدث عن كل شيء ما عدا تلك» لم يضع إيمري خطة لكي يصبح عالم آثار ففي أول الأمر كان التاريخ المصري بالنسبة إليه مجرّد مغامرة للتسلية

كاستراحة قصيرة. وقد تدرب على الهندسة البحرية واشتغل في إنشاء مدرعتين حربيتين كما حدث له تطور آخر بالنسبة لحياته فقد عاد إلى كليته عام 1921 لدراسة التاريخ المصري تحت إشراف أستاذه توماس بيت إذ إنّ هذا الموضوع قد استهواه منذ أيام الدراسة ولكن بعد أن أطال التفكير حول النصوص القديمة وجد أن هذه أيضاً لم تكن تروق له. وبعد سنتين ترك المدرسة فترة ثانية ليشترك في البعثة الذاهبة إلى الأقصر في مصر وفي عام 1926 كان قد قام بحفريات في أكثر من اثني عشر قبراً مصرياً قديماً وأهمها قبر الوزير (راموس) وهو أحد الشخصيات في الأسرة الثامنة عشرة وبعد ثلاث سنوات (عام 1929) نقل نشاطه إلى بلاد النوبة حيث كانت عدة مشاريع تنفيذ تنتظر الإنقاذ من الغرق والفناء بسبب مشروع خزان أسوان.

عين إيمري مدير التنقيب والحفريات في عام 1935 وكان أول عمل له هو تنظيف المقبرة الكبيرة التي يرجع عهدها إلى الأسرة الأولى وقد كرس معظم نشاطه في العشرين سنة التي تلت لهذا العمل، مع العلم أنه خدم في الحرب العالمية الثانية.

وبعد الحرب كانت الميزانية المخصصة للحفريات قليلة جداً وبعد ذلك حدثت مشكلة قناة السويس عام 1956 ولكن وبما أن إيمري قد أصبح معتاداً على جو مصر فقد قبل مركزاً دبلوماسياً في القاهرة وأخيراً عين أستاذاً للتاريخ المصري في جامعة لندن وهكذا استطاع أن يحق. ق تناسقاً بين محاضراته في لندن وأبحاثه في مصر. وفي 5 تشرين الأول عام 1964 بدأ إيمري ما كان يعتبره أهم عمل في حياته وهو البحث عن قبر أمنحوتب.

لقد كان أمنحوتب رجلاً ممتعاً وقد قال عنه إيمري إنَّه «أول طبيب يظهر واضحاً جلياً من بين طيات التاريخ القديم» وقد عاش في زمن الفراعنة الأوائل وقد كان لديه معلومات طبية جعلت الناس يعتقدون أنه إله الشفاء وقد كان مهندساً أيضاً ومستشاراً للفرعون (زوسر) ووزيراً له عمل كمشرف على الأشغال العامة في مصر العليا والسفلى وقد بنى هرم (زوسر) ويعتقد أنه هو الذي اخترع التقويم (الروزنامة) والكتابة وبالاختصار كان كتلة من العبقرية.

ولما كان قبر أمنحوتب لم يكتشف بعد فلا مناص من الافتراض بأن ذلـك القبر لم يمسّ ولم ينهب ويدعم هذا الافتراض أن أمنحوتـب كـان ذا مقـدرة هندسـية رائعـة ومن المؤكد أنه قد بنى لنفسه قبراً وهو لا يزال على قيـد الحياة وهـو يختلـف عـن هـرم الفرعون زوسر ولكنه لا يقل عنه في فخامته وروعته وكان (إيمري) يعتقد أن اكتشـاف قبر أمنحوتب لا يقل في أهميته بالنسبة لتاريخ المملكة القديمـة عـن اكتشـاف قـبر تـوت عنخ أمون بالنسبة للإمبراطورية الجديدة.

ولكن أين يجب أن يبدأ الحفر يا ترى؟.

إن أولى الحفريات التجريبية أوضحت أن الوادي بأجمعه مملوء بالآثار التي يرجـع عهدها إلى المملكة القديمة والأسر القديمة وقد حفظت كثير من الأبنية التي كان علوها لا يتجاوز ثلاثة الأمتار، حفظت فقط لأنه في زمن بطليموس ألقيت كتل من الحجـارة بـين الأنصاب وكان هذا سبباً أعفى الأرض من إمكانية إنشاء أبنية جديدة عليها.

وقد كتب الأستاذ إيمري يقول: أصبحت مهتماً بمنطقة الوادي في أقصى الغرب من مدينة الموتى القديمة في شمال (صقارة) وذلـك لأن المنطقـة بأجمعـها مغطـاة ببقايـا الفخار الذي يرجع عهده إلى البطالسة وتذكرنا (بأم القواب) في أبيدوس وقبل انتـهاء أعمال جماعة التنقيب في عام 1956 حفرت حفرتين في هذه المنطقة فظـهر لـي بعـض الأعمال الفخارية من عهد الأسرة الثالثـة ووجـدت عجلـين مقدسـين مدفونـين وبقايـا مومياء إيبيس في أواني فخارية مقفلة وإنَّ وجود إيبيس مدفوناً فـي ممرات تحت الأرض كان معروفاً من قبل بعض المنقبين في القرن الماضي. ولكن لسبب ما لـم تعـرف دلالـة وجوده مع قبور القرن الثالث، ونظراً للاعتقـاد المنتشـر أن قـبر أمنحوتـب موجـود فـي مكان ما في مدينة الموتى القديمة (وهذا ما يثبته بقوة العلماء فيرث وكويبـل وريزنـد) فـإن وجودَ العجل وإيبيس أكَّدا أن هذا الموقع له ارتباط محتمـل بمدفـن أمنحوتـب، وعلـى أي حال فإن أحوال سطح الأرض في تلك المنطقة تشير أيضاً إلى ذلك نظراً لأن المكان كان مخصصاً للحج في زمن البطالسة والرومانيين.

استمر إيمري في العمل بشكل محموم واضعاً ذلك الهدف نصب عينيه وفي 10 كانون الأول عام 1964 عثر على حفرة تحتوي قبراً من الأسرة الثالثة على بعد عشرة أمتار من سطح الأرض وقد وجد أمامه متاهة متشعبة الفروع . ممرات وبوابات من الآجر المجفف وعدداً لا يحصى من مومياء إيبيس وكان من الواضح أن عدة أجيال قد تعاقبت على هذا المكان وعندما وجد (إيمري) تمثالاً من عهد بطليموس عرف أنه يسير في الطريق الصحيح . إذ إنَّهُ وجد على قاعدة ذلك التمثال قائمة بالأعياد التي كان يحتفل بها على شرف إله الشفاء (وكان أحد أيام تلك الأعياد هو اليوم الذي سوف يموت فيه إيمري) وفي طقوس الاحتفالات يوصف أمنحوتب أنه هو الذي يرقد في (ديهان العظيم) وهو كهف محبب إلى قلبه .

اعتقد الأستاذ إيمري أن ذلك الكهف هو المتاهة العظيمة المتشعبة الممرات تحت الأرض ولم يكن إيمري يشك أنه كان في طريق اكتشاف قبر أمنحوتب ولكنه لم يكن يعلم إذا كانت القضية قضية أيام أم سنوات وقد علق علي الخولي على ذلك بقوله : «وفي النهاية كان متأكداً تقريباً أنه سوف يجد قبر أمنحوتب قطعاً» .

إن علماء الآثار عقدوا الخناصر كما فعل أرديان في متاهة كريت المينوسية لكي يتأكد أنه سوف يرجع إلى ضوء النهار من متاهة الممرات فقد عملت مصورات وختمت الأنفاق التي تم اكتشافها ولكن بعد أشهر كان إيمري مجبراً أن يسلم ويذعن أنه ما من ممر قد عمله سوف يؤدي إلى قبر أمنحوتب .

شعر (إيمري) بخيبة الأمل ولكن لم يكن هنالك أي شيء قادراً أن يثنيه عن عزمه ، فلم يكن فشله في الاقتراب من القبر يعني أن قبر أمنحوتب غير موجود بل بالعكس ثبت له أن كل الحفريات التي عملها كانت دون هدف .

بدأ إيمري في الحفر في موقع آخر ولكن عبثاً ، فلم يكن قد قدر له أن يشهد بأم عينيه أعظم انتصار له وهو اكتشاف قبر أمنحوتب .

لقد تتبعت قصص حياة كثير من علماء الآثار وكنت حريصاً على أن أكتشف فيما إذا كان هنالك أي قاسم مشترك في الحياة التي كانوا يعيشونها وفي الميتة التي

ماتوها ولكن وجدت أن ليس هنالك إلا القليل في حياتهم مما يمكن أن يقال: إنَّه خاص بهم دون غيرهم اللهم إلا هوى وانفعالاً عاطفياً تمليه عليهم مهنتهم المختارة إلا أنه كانت هنالك بعض المصادفات.

لاشك أنه من الصعب أن نصنف علماء الآثار ضمن فئة واحدة وهذه الحقيقة اكتشفتها مراراً وتكراراً أثناء الأبحاث التي أجريتها تمهيداً لإصدار هذا الكتاب وليست القضية قضية النظريات التي يعتنقونها فحسب بل قضية فروق في الأخلاق والشخصيات فهنالك بعض علماء الآثار الألمان الذين يصرفون النظر عن فكرة اللعنة ويعتبرونها مجرد هراء بينما نجد الآخرين يرفضون حتى أن يطؤوا بأقدامهم قبر الفرعون وعندما سألت أحد علماء الآثار في ميونيخ عما يخشاه في حياته فأجاب وكأنه (موحي دلفي اليوناني) «إنني أخشى الآلهة».

وإذا لم تكن اللعنة فريدة متصلة أو منحصرة باكتشاف قبر توت غنخ أمون فإن كثيرين من علماء الآثار يجب أن يكونوا قد ماتو بشكل غامض قبل أن يكشف النقاب عن مثوى توت غنخ أمون الأخير.

تحتوي المكاتب وأمكنة حفظ السجلات على أوصاف مسهبة للاكتشافات الأثرية والنظريات ولكن ليس فيها إلا قليل من الثمين النادر عن حياة علماء الآثار المرموقين قد سلط النور على حقائق جديدة تدل على أن لعنة الفراعنة بدأت في التأثير قبل قرن ونصف تقريباً وكانت دائماً تصيب الرجال الذين قضوا سنوات طويلة في مصر وكان لهم علاقة بطريق ما بالتنقيب.

هذيان دوميشين:

لنأخذ حالة جوهانس دوميشين المولود عام 1833 وهو ابن قسيس من سيلزيا وأستاذ في جامعة ستراسبورغ لقد تنقل هذا الأستاذ بصورة واسعة بين مصر وبلاد النوبة ولا يمكن تقييم عمله كما يستحق فقد نسخ كثيراً من المخطوطات من الهياكل وكثيراً ما كان يقضي الأسابيع بين الخرائب تحت الأرض ولكن شخصيته أخذت تتغير تدريجياً، ولو كانت هذه الظاهرة الوحيدة لما كنا ناقشنا هذا الأمر، ولكنها كانت واحدة من حالات عدة.

أصبح دوميشين يهذي وظهرت عليه أعراض بداية انفصام شخصية فقد بدأ يتحدث لعدة ساعات حول تجارب في علم لآثار في مواقع غير موجودة. وكان يخبر أي شخص يستمع إليه مثلاً عن حفرياته في قبر في طيبة حيث كانت رائحة الوطاويط النتنة تنتشر حتى إنه لم يستطع إلا أن يربط قطعاً من قشور البرتقال حول فمه أثناء العمل والحقيقة أنَّهُ لم يحفظ أي سجل يشير إلى أن دوميشين قد اشتغل في قبر كالذي وصفه وعندما رجع دوميشين إلى ألمانيا كان قد أصبح بحالة يرثى لها فلم يكن بوسعه أن يتم عبارة واحدة من الكلام وكان يقفز من فكرة إلى فكرة بعصبية والأسوأ من ذلك أن كتابته كانت بهذه الطريقة أيضاً.

انتاب الناشرون اليأس أيضاً فقد طلب منه (بيدكر) أن يكتب (مرشداً لمصر العليا) ولكنه مزق تلك الطبعة لأن الكتاب كان سيئاً جداً ولم يكن ناشر مجلدات تاريخ العالم أكثر حظاً فقد تعاقد مع (دوميشين) لكتابة الجزء المختص بالتاريخ المصري في تلك السلسلة.

بدأ دوميشين يكتب ويكتب ولكن وبعد كتابة حوالي (300) صفحة وجد الناشر المذعور أن الأستاذ لم ينته من كتابة المقدمة بعد.

وهذه الأعراض تشبه الأعراض التي تنتج عن تعاطي المخدرات، فبعض الأشخاص العاديين عندهم انفصام كامن دون أن يقاسوا من المرض وإنَّ تعاطي جرعات كبيرة من المخدرات يمكن أن تسبب نشوء الانفصام أو السلوك الفصامي. وقد علق الدكتور جون جريفيت أن أحد طلابه الذي كان يتعاطى بعض العقاقير، لم يستطع أن يجيب على بعض أسئلته فاستشاط الطالب غضباً وأخذ كتاباً يحتوي على (453) صفحة من الموضوع الذي فشل في الإجابة عنه وحفظ كل كلمة من هذا الكتاب عن ظهر قلب وقد ذكر طبيب أمريكي آخر حادثة عن طالب كان يجيب على أسئلة الامتحان وهو مخدر فكتب الأجوبة كلها على السطر العلوي في قطعة من الورق.

كان المصريون القدماء يعلمون الكثير عن المخدرات. وفوق ذلك فنحن نعرف الآن أن أقل تماس مثل مسح الإنسان فمه بظهر يد ملوثة بالمخدر إنَّ ذلك يسمح للمخدر أن يدخل ويؤثر على الكائن الحي. وإن اكتشاف الصيدلي السويسري الدكتور ألبرت هوفمان لأحد المواد المخدرة السريعة في عام 1938 هو أحد الأمثلة على هذا التأثير.

فقد كان يشتغل في شركة سوندوز للأدوية في مخابر البحث في مدينة بال عندما دخل فمه بطريقة ما بضع أجزاء من المليون جزء من الغرام من تلك المادة المخدرة. وبعد حوالي 45 دقيقة أصبح يرى رؤىً فمن المعروف أنه يكفي أن تلمس مثل تلك المواد بالسبابة وبعد ذلك تمرر السبابة على الشفتين لكي يحصل التأثير المطلوب.

أعمال هنريخ بروش الغريبة:

هنالك طرق أخرى لبلوغ الذورة في التأثير فالحفر والاستكشافات والانتصارات قد سببت الذهول للكثيرين. ويبدو كما لو أن لعنة الفراعنة قد مارست بعض التأثيرات والقوى السحرية على ضحاياها فقد رأينا كثيراً من العلماء البارزين ينتحرون لأجل العلم أو كانوا يرجعون من مصر وهم في حالة جنون نوعاً ما.

وهنالك مثال على هذا الجنون مسجل في سيرة الأستاذ (ادولف ايرمان) وهو مدير متحف برلين ـ القسم المصري، وهذا الحادث يتعلق بهنريخ بروش (1827 ـ 1894) وهو من مشاهير علماء الآثار في برلين وكان يستطيع قراءة الكتابة الهيروغليفية وهو في السادسة عشرة من العمر.

وينحدر بروش من عائلة برلينية نموذجية وقد كان والده رقيباً أول في الجيش ويعيش في الثكنات حيث ولد هنريخ ومع ذلك فإن هنريخ لم يكن راضياً عن أصله الوضيع حتى إنه عندما أصبح عالماً مرموقاً كان يخبر الناس أن والده كان أميراً.

ولقد كان بروش يتبجح مدة أنه قد عثر في حفرياته على رأس ملك في (سايس) مع أن كل معارفِهِ كانوا يعلمون أنه قد اشترى ذلك الرأس من إحدى حوانيت الآثار

القديمة ومرة أخرى كان بروش داليرمان في صالة العملات القديمة في المتحف حيث كان مدير المتحف قد نشر بعض الميداليَّات القيمة القديمة التي ترجع إلى عصر النهضة على إحدى الموائد ويتذكر إيرمان الحديث التالي :

بروش : ماذا لديك هنا يا عزيزي؟ .

إيرمان : ميداليَّات إيطالية ترجع إلى القرن الخامس عشر .

بروش : ماذا يعني كلمة بيزانوس فكتور فيسيت؟ .

إيرمان : ذلك هو توقيع الفنان .

بروش : كان لدي من هؤلاء الكثير عندما كنت أحفر في دلتا النيل مع فيزالي ولقد وجدنا كومة منها .

إيرمان : وماذا فعلت بها؟ .

بروش : لا أعلم ، لقد وزعتها كلها .

إيرمان : لقد خسرت ثروة عظيمة .

بروش : وهو كذلك .

ويعتقد إيرمان أنه من الممكن أن يكون بروش قد وجد طبقاً من النحاس أثناء إحدى حفرياته ولم يجد أي شيء أكثر قيمة من هذا .

هل كان هذا نوع من الاضطراب العصبي أم هل كانت حواس بروش قد تأثرت بتأثير خارجي طارئ؟ . أصبح بروش غريب الأطوار بعد أن قضى سنوات عديدة في مصر .

وقد ادَّعى (غاستون ماسبيرو) (مدير الآثار) أن بروش كان يدعم أعماله العلمية بادعاءات مختلفة كاذبة وأشار إيرمان أيضاً إلى أن بروش اقترح نظريتين متعارضتين بكل ما في هذه الكلمة من معنى وذلك بالنسبة لما يدعى (شعوب البحر) في عملين من أعماله .

ولكن من الغريب أيضاً أنه رغم هذه الميول الفصامية فإن بروش أحد علماء الحضارة المصرية المعترف بهم . فهذا الرجل العملاق الذي كان ينسى كل ما حوله من

العالم عندما يتتبع مشكلة تاريخية والـذي كـان يعتبر المومياءات أمامـه وكأنـها رجـال أحياء؛ هل كان هذا أيضاً ضحية من ضحايا لعنة الفراعنة؟ والحقيقـة أنـه كلما طـالت إقامته في مصر زادت أحواله غرابة وأخيراً ترك القاهرة فجأةً بعـد أن أعلـم السـلطات في برلين أنه سوف يخلف الأستاذ ريتشارد ليبوس في الجامعة مـع أنَّ الأسـتاذ المذكـور كـان لا يـزال يشـغل كرسيه كأستاذ هنـاك. وفـوق ذلـك فقـد هـدد بـروش السـلطات الألمانية أنه إذا لم يسلموه المركز الذي طلبـه فسـوف يستلم مركـزاً مشـابهاً فـي بـاريس وهذا المركز لم يعرض عليه أحد أن يستلمه.

وحدث مرة في برلين أن شكا إلى الصحافة أن العلماء الآخرين كانوا يضطهدونـه ومثْلُ الكثير مـن زملائـه أصبـح بـروش ضحيـة لـهذا الكـابوس وقـد كتـب إيرمـان فـي مذكراته: نحن دائماً نذكر اللوثة الصغيرة التي تلتصق بكل رجل عبقري وإذا كانت هذه اللوثة مؤلمة في حالة بروش فنحن نستطيع أن نكيل اللوم على سوء الطالع فقط.

حياة تشامبليون القصيرة:

إذا تراجعنا القهقرى قليـلاً فـي تـاريخ علـم الآثـار فإنَّنـا نصـل إلـى تـاريخ جـان فرانسوا تشامبليون الذي يشبه الأساطير فقد عاش هذا الرجل بين 1790 ـ 1832 ونجـح في حل رموز اللغة الهيروغليفية القديمة وكان رائد الباحثين في الحضارة المصرية.

إن كلمة الهيروغليفيـة هـي كلمـة يونانيـة يمكـن أن تـترجم إلـى (الصـور المقدسـة) والحقيقة أنه منذ التاريخ اليوناني القديم حتى زمن اكتشاف تشامبليون لمعانيها ظلت هـذه الكلمات تحمل معاني السرية والغموض والقداسة. وحتى نهاية القرن الثامن عشر كـان بعض العلماء يعتقدون ويجديـة بـالمضمون السـحري لـهذه الكلمـات ورفضـوا دراسـتها وكان العالم الدانماركي (جورجـان زوجـا) أحـد أولئـك الأوائـل الذيـن باشـروا بدراسـة الأحرف الهيروغليفية بجدية. ولكنه لم يستطع أن يحل رموزها بل وصل إلـى اسـتنتاج هـام أسـس تشـامبليون فيمـا بعـد عليـه اكتشـافاته القادمـة فـهو قـد أدرك أن الإطـارات البيضوية الشهيرة حول بعض إشارات معينة تدل على أن في داخلها اسم الفرعون.

إن حياة تشامبليون القصيرة المدهشة ظهرت عليها بصمات القضاء والقدر فحتى قبل ميلاده تنبأ أحد العرافين أنَّ ـ جان وهو والد فرانسوا وكان بائع كتب في مدينة صغيرة جنوبي فرنسا ـ سوف ينجب «ضوءاً ينير الطريق للأجيال القادمة» وعندما ولد جان فرانسوا عام 1790 أظهر مواهب مبكِرة ولم يكن قد تجاوز الخامسة عندما طلب من والدته أن تقرأ له بضع فقرات من الكتاب المقدس (التوراة) بصوت عال وعندها أعاد عليها كل ما قرأته كلمة كلمة.

فزع والده من ذكائه الخارق فطلب من الأم أن تتوقف عن القراءة للطفل وهذا شجع ابن الخامسة من العمر أن يسرق التوراة من دكان والده ويدرسها سراً ولم يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه كان يحفظ صفحات وصفحات من التوراة عن ظهر قلب وعرف أين يجد المقاطع في الكتاب وكان يقارن بين نغمة الكلمة وطولها في الكتاب فوجد التوافق بين هاتين النقطتين وقرر بذلك أن لفظ اللغة الفرنسية غالباً ما ينحرف عن الكلمة المكتوبة. ومع ذلك فقد أرسله والده إلى المدارس المحلية في البلدة وصمم أن يكون ابنه ولداً عادياً وليس أعجوبة عبقرية.

حجر رشيد:

كان أخو جان فرانسوا الأكبر وهو جاك جوزيف شخصية مأساوية فقد درس التاريخ وأصبح مهتماً بالفن المصري القديم وعندما شرع نابليون بونابرت في حملته على مصر عام 1798 حاول عبثاً أن يأخذه معه بين العلماء والمؤرخين. وعندما شعر بخيبة الأمل المريرة عدل عن دراسة التاريخ وانتقل إلى مدينة جدينوبل وبدأ يمارس الحياة العمليَّة.

وفي عام 1801 استدعى جاك جوزيف أخاه جان إلى (جدينوبل) ليحصل على دراسة أفضل نظراً لعبقريته. وكان الأخ الأكبر مشتركاً في جريدة فرنسية اسمها (رفيق السياح إلى مصر) وكانت آخر صدى لغرام مكبوت. ولهذه الجريدة يرجع الفضل في تقرير مستقبل تشامبليون الصغير.

وفي أحد الأيام نشرت الجريدة تقريراً جاء فيه أن جنود نابليون وجدوا حجراً في دلتا النيل في عام 1799 قرب قرية (رشيد) وكان الحجر من البازلت وكان عليه فقرات بثلاثة خطوط: الأول بالخط الهيروغليفي. والثاني إما قبطي أو ديموطيقي (وهو مبسط عن الهيروغليفي) والثالث والأخير الخط اليوناني.

وكان من السهل ترجمة الخط اليوناني فهو عبارة عن كلمة شكر وثناء من كهنة ممفيس كُتِبَ عام 196 ق. م إلى الملك بطليموس الخامس الذي كان قد تولى الحكم في تلك السنة وقد أصبح بطليموس يتمتع بشعبية واسعة نظراً لأنه تغاضى عمًّا يأخذه الكهنة من ضرائب وعمل مصادر جديدة لمدخولات المعابد وقرر الحماية الخاصة للمعابد أثناء الحرب فضلاً عن أنه قدم الهدايا السخية لثيران أبيس ومينفيس المقدسة أكثر مما قدم أي ملك آخر في الماضي وكل هذا شجع الكهنة أن ينحتوا حجراً تكريماً للملك عليه هذا الخطاب. «إلى بطليموس الخالد المحبوب من قبل الإله بتاح وإيفانوس، الإله الذي قدم الكثير للمعابد وساكنيها الذين يعيشون تحت حكمه لأنه إله وابن إله وإلهة فهو يشبه حورس بن إيزيس وأوزيريس الذي كان يحمي والده من الأذى».

وكان من المعقول الافتراض أن النصين الأولين كانا مشابهين للنص اليوناني. ونتيجة لذلك فقد نسخ ما كتب على حجر رشيد وصور فوتوغرافياً وصنعت منه قوالب وحاول العلماء في جميع أنحاء العالم حلَّ رموزه.

كان جان فرانسوا تشامبليون في الحادية عشرة عندما قرر حل رموز حجر رشيد وكان نشاط هذا الولد الهائل وصبره يتجليان في الحقيقة السافرة وهي أنه قضى واحداً وعشرين عاماً محاولاً حل هذا اللغز وفي خلال هذه السنين بدأ يقترب ويقترب من إزالة الغموض عن ذلك السر.

وفي السنة التي ترك بها تشامبليون المدرسة في (عام 1807) وهو في سن السابعة عشرة ليدخل أكاديمية العلوم كان يدرس اللغة القبطيَّة وهي شكلٌ متطور من أشكال

الهيراطيقيَّة وهي أبسطُ من اللغـة الهيروغليفيـة والديمقوطيقيـة المتطـورة مـن هـذه وقـد اكتشف أن الخط الهيروغليفي بعكس القبطي فيه ثمانية ضمائر شخصية وهـي تتطـابق مع إشارات صوتية مشابهة وهذا ما جعله يستنبط أن الهيروغليفية تتـألف مـن أصـوات فضلاً عن رموز وقد عد تشامبليون نحـو 486 كلمـة يونانيـة علـى حجـر رشـيد ولكـن العدد كان 1419 بالنسبة للكتابة الهيروغليفية وقـد بـدأ يتقـدم فـي عملـه طبقـاً لما كـان يفعل وهو صبي صغير لا يعرف القراءة والكتابة عندما قارن التوراة المكتوبة مع ما كان يحفظه من النصوص.

وقـد قـرر أن أسـماء الفراعنـة والأعـلام يجـب أن يكـون لـها نفـس الأصـوات باللغات الثلاث وكـان الطبيـب الإنكليزي (تومـاس ـ يونـغ) قـد حـل قبـل ذلـك اسـم بطليمـوس فـي عـدد مـن الأسـماء المكـررة فـي النـص ـ وقـد عمـل تشـامبليون حركـة انعطاف أو التفاف حول الموضوع فقد جلـب صـوراً أخـذت عـن إحـدى المسـلات فـي مصر وكان يعلم أن اسم كليوباترة مستعمل بشـكل متكـرر عليـها . وقـد وجـد ودمـج الإشارات الصوتية بطريقته الخاصة على الأحرف T. P. L التي هي أيضاً جزء من اسم بطليموس وكان الرمز قبل حرف L في كلمة كليوباترة يجب أن يكون إما K أو G .

وعندما استلم تشامبليون نسخاً من عدة مخطوطات متعددة فـي 14 أيلـول 1822 استطاع أن يحل رموز اثنتين منها حـالاً وهـي رعمسـيس وتحوتمـس ولـم يكـن هنـالك شك بأن تشامبليون قد استطاع حل الرموز الهيروغليفية . وعندما صرخ في وجه أخيه بسرور «لقـد نجحـت» وهنـا رفـع ذراعيـه عاليـاً ثـم انـهار تمامـاً كمـا لـو أصابتـه صعقـة كهربائية وبقي فاقد الوعي مدة خمسة أيـام (وقـد عـزز هـذه الأقـوال عـدة مؤلفـين بمـا فيهم أدولف إيرمان نفسـه) وبعـد أن اسـتعاد تشـامبليون وعيه تكلـم عـن رؤى غريبـة وصار يتعلثم ذاكراً أسماء عدة فراعنة من الذين استطاع حل رموز أسمائهم .

أعلن تشامبليون اكتشافه في 27 أيلـول عـام 1822 أمـام الأكاديميـة العلميـة فـي باريس وبذلك سمي أسـتاذاً للحضـارة العلمية المصرية وفي عام 1827 أرسـل إلى مصـر (في خدمة العلم كرئيس لبعثة ومعه روزيليني من جامعة بيزا وهذه البعثة كانت تمولـها

الحكومة في توسكانيا والملك شارل العاشر في فرنسا وبهذا تحقق حلم طفولته ولكن تحقيق هذا الحلم كان هو الحكم بالموت على تشامبليون فقد مات في عام 1832 بعد رجوعه من مصر بقليل بسبب تشويشات شلل ولم تعرف أسباب موته تماماً وكان في الثامنة والأربعين من العمر.

بلزوني المتعدد المواهب:

إن موت جيوفاني بلزوني (1778 ـ 1823) ـ وهو من أشهر علماء الحفريات الأوائل وأكثرهم نشاطاً ـ لا يقل غرابة عن هذا وكان جيوفاني ابن أحد الحلاقين في (بادوا) في إيطاليا وقد شغل عدة مناصب وجرب العمل في عدة مهن وكان أبواه المتدينان يرغبان في أن يصبح ابنهما كاهناً ولكنه أصبح عاملاً في السيرك ورجلاً قوياً، ثم ممثلاً ثم مغني أوبرا ثم مهندساً ومستكشفاً وإنه لمن الأسهل أن نعدد الأشياء التي لم يكن بإمكانه عملها.

وقد قضى بلزوني وقتاً طويلاً في إيطاليا وهي مسقط رأسه وبدلاً من ذلك فقد عاش في إنكلترا والبرتغال وإفريقيَّة وذهب إلى إنكلترا ومعه مجموعة من الممثِّلين ولما كان يتكلم الإنكليزية بشكل مكسر فقد أصبح يمثل في مسرحيات هزلية صامتة كمهرج وذلك لكسب رزقه بعرق جبينه وبعد ذلك ارتقى إلى مغنٍّ في الأوبرا وأثناء إقامته في لشبونة تزوج من المغنية الأولى في الأوبرا واسمها (أنجيلا فالابريك).

وكان بلزوني مغرماً بالرحلات ولم يستطع أن يفسر حتى لنفسه مقدار تعطشه للسفر وكان هنالك حافز يدفعه للتنقل من مكان إلى مكان فبعد أن جرب العمل في عدة مهن أمر بطبع بطاقات باسمه تصفه باسم (الرحالة المشهور).

وكان بلزوني يعبد إفريقيَّة وجاب قسماً كبيراً من غرب إفريقيَّة وحاول أن يحل اللغز الذي كان قائماً حينذاك وهو هل نهر النيل ونهر النيجر هما نهر واحد؟ فقد زار مصر أولاً عام 1815 ليس كمغنٍ أو عالم آثار بل كمخترع. فقد أنشأ ناعورة تشتغل بقوة تزيد أربع مرات على النواعير الموجودة وطلب تسجيل اختراعه وإعطاءه براءة

اختراع لدى محمد علي باشا وعندما رفض طلبه تحول الرحالة المشهور إلى علمٍ آخر وهو علم الآثار.

وكان الوقت حينئذ مواتياً ومساعداً فمنذ حملة نابليون على مصر أصبح كل شيء مصري مطلوباً في جميع أنحاء العالم، من رسوم ولوحات زيتية وأصبحت الإنتاجات الاصطناعية الآتية من أرض العجائب (مصر) تباع بأسعار خيالية. وهنا دخل الرجل القوي إلى ميدان العمل ولمدة خمسة أعوام كان يبحث عن الكنوز المخفية وحيث كان يفشل عقله الذكيُّ في إتمام عمل ما كان يستعمل عضلاته أو الديناميت إذا احتاج الأمر.

ولقد تعرف على القنصل البريطاني العام في مصر وهذا استأجر بلزوني لنقل قاعدة تمثال أمون التي وجدت في الأقصر وقد نقل بلزوني هذه القاعدة إلى حيث أرسلت إلى لندن. وكانت هذه بدايته وكثرت الآثار التي نقلها فقد انزلقت إحدى المسلات التي كان يحاول نقلها إلى إحدى العربات واستقرت في قعر النيل ولكنه استطاع إخراجها وهكذا زادت رغبته في الحصول على آثار جديدة وأخيراً أصاب قسطاً من النجاح.

كتب بلزوني يصف الحالة في مدينة الأموات في طيبة في أوائل عام 1800 يقول: «صدف أن وصلت إلى دهليز طوله حوالي 25 قدماً ولم يزد عرضه على مسافة يستطاع المرور فيها وكانت ممتلئة بالمومياء ولم أستطع أن أمر دون أن ألمس بوجهي بعض العظام النخرة ولكن حالما اتجه الدهليز إلى الأسفل ساعدني وزني على الاستمرار في السير وما لبث أن وجدْتُ نفسي مغطًىّ بالعظام من الأرجل والأذرع والجماجم تتدحرج من عل وهكذا كنت أتنقل من كهف إلى كهف وكلها مملوءة بالمومياء بمختلف الأوضاع، فبعضها كان واقفاً وبعضها مستلقياً وبعضها واقفة على رؤوسها».

وبالإضافة إلى ما لا يعد ولا يحصى من المومياء المدفونة دون ما أبهة أو إسراف كالتي تمتاز بها قبور الأغنياء أو أولئك التي سرقت قبورهم على يد لصوص القبور فإن

بلزوني بعد أن عانى من الفشل الذريع، اكتشف بعض الأشياء ذات الأهمية التاريخية وحتى إذا رجعنا القهقرى إلى عام 1817 لم يكن هذا سهلاً فكثير من القبور المنحوتة في الصخور كانت مأوى للفلاحين وزوجاتهم وأطفالهم وحيواناتهم ومع ذلك فقد وجد الرحالة المحترف قبر أحد الفراعنة في تلك السنة ولشدة فرحته وبهجته وجد أن هذا هو قبر الفرعون سيتي الأول ابن رعمسيس الأول وقد احتل هذا القبر اهتمام بلزوني وشعورَهُ مدة سنة كاملة فقد بدأ اهتمامه يتحول إلى اهتمام العلماء فضلاً عن اهتمام العمل فقام ينسخ كثيراً من الكتابات المنحوتة النافرة ورسم كل ما وجده ثم كتب في مفكرته: أن هذه الاكتشافات قد عوضت عن كل مالاقاه من متاعب أثناء استشكافاته.

أصبح بلزوني ثملاً بالنصر وهذا قاده إلى حتفه فقد كان مهتماً بصورة خاصة بهرم خفرع الذي ضاع مدخل مقصورة قبره فبدأ عالم الآثار الهاوي بفحص كل حجر في ذلك البناء الشامخ على علو 136 متراً ومع ذلك لم يجد أي إشارة لأي مدخل ولكن (بلزوني) بقي واثقاً من نفسه فإذا كان باب المقصورة غير موجود في داخل الهرم (كما كان الحال في هرم خوفو المكتشف حديثاً) إذن فيجب أن يكون المدخل تحت الأرض في مكان آخر.

كانت الكثبان الرملية متراكمة في شمال الهرم فأسرع بلزوني في استجار كتائب من العمال لإزالتها وأخيراً وجد ممراً كان قد بناه لصوص القبور ولكن بعد بنائه سقط عليهم لوح من الحجر في منتصف الدهليز العريض وكان طول اللوح 2.8م بعرض 1.85م وقد سبب ذلك اللوح حجز أحد العمال المصريين ولكن الرمل الذي كان ارتفاعه يصل إلى الركبة أنقذ حياة العامل. وقد وجد بعد فحص الصخور الأخرى أن من الخطر الاستمرار فإن كل كتلة حجرية يمكن أن تنهار عندها وجد بلزوني نفسه في وضعية حرجة وقد قضى أيَّاماً أمام هرم خوفو الأكبر حجماً وهو يدرس الثقب الكبير في جانبه ثم رسم مخططات أرضية وصوراً للزوايا المستعملة وقارن بين الجهات الأربع على البوصلة واتجاه الريح وأخيراً استنتج أن مدخل هرم خفرع يجب أن يكون مكانه في الشرق.

ولقد ثبت ظن بلزوني إذ وجد ثلاث قطع من الغرانيت المغطى بالرمل ثم وجد دهليزاً وراءها وهذا الدهليز انحدر بشدة إلى الأسفل وانتهى بعد ثلاثين متراً أمام حائطٍ صخري وقد استغرق بلزوني ثلاثين يوماً في كسر حجر واحد واستخراجه من الجدار وعندها فقط استطاع أن يحشر نفسه خلال الفرجة الضيفة المكتشفة ثم حمل بلزوني مشعلاً به شموع مجدولة وسار عبر الدهليز الذي يتجه أفقياً وكان التوجيه ليس صعباً فقد كان نظام الدهاليز يشبه نظام خوفو ثم كتب يقول:

«حينما كنت أمشي باتجاه الغرب دهشت عندما وجدت قبراً في الأرض ولكني وجدت بعض الأحجار وبضعة عظام» ولقد بدأ اليأس وخيبة الأمل يتسربان إلى نفسه عندما وجدت كتابة بأحرف سوداء مكتوبة على أحد الجدران. «لقد فتح بناء هذه المقصورة محمد أحمد وكان المعلم عثمان حاضراً وكذا كان الملك علي محمد حاضراً من البداية إلى النهاية. وهكذا وجد بلزوني أنه قد أتى متأخراً بضعة قرون».

ولكن مع أن هذه المغامرة لم تتكلل بالنجاح كلياً إلا أن بلزوني حصل على كمية لابأس بها من المال من القبور التي كشفها قبلاً عندما باع الناووس الذي حصل عليه من قبر الفرعون سيتي وفي عام 1820 عندما عاد بلزوني إلى إنكلترا عرض الكنوز التي حصل عليها للبيع مما أكسبه ما يكفي من المال لتمويل بعثة أخرى إلى إفريقية.

ولكنه لم يصل إلى مصر مرة ثانية أبداً، أو لم تلحقه لعنة الفراعنة أيضاً يا ترى؟!

في ربيع عام 1823 غادر بلزوني لندن تصحبه زوجته متوجهين إلى طنجة على ظهر قارب قديم فيه قمرة تتسع لستَّةِ أشخاص وغرفة للغسيل وكان هنالك فتحاتٌ في جوانب السفينة مما جعل المياه تتسرب إلى الداخل أثناء هبوب الأمواج العالية وتأخر وصولهم حتى أواخر نيسان.

وكان بلزوني ينوي أن يعبر الصحراء الكبرى متجهاً إلى السودان وقد اصطحبتْهُ زوجته حتى مدينة (فاس) وبعدئذ رجعت إلى انكلترا حسب الاتفاق بينهما

ولكن سرعان ما اضطر بلزوني للرجوع وذلك لأن قبائل الطوارق منعوه من التوغل في الداخل وهكذا قرر أن يستمر في رحلته بحراً باتجاه سيراليون.

وهنالك بدأ ذلك المرض الغامض الذي أصاب معظم علماء الآثار ينهش جسمه ومعه تلك الحمى اللاهبة والهذيان الصاخب. عالجه أحد المتطبيين بالراتنج والزيت والأفيون «إنني أشعر وكأن يد الموت تدنو مني شيئاً فشيئاً» قال هذا وهو يصرخ متألماً.

أرجع بلزوني إلى سفينته أملاً بأن تتحسن حالته من استنشاقه رائحة البحر المشبعة بالملح ولكن بدأت حالته تزداد سوءاً فقد أصبح نطقه مشوشاً ومتقطعاً وبعد ذلك قال:

«لم يبقَ لدي سوى بضعِ ساعات لأعيش، إنني أعرف ذلك ثم سحب حجراً كريماً أرجوانياً من أصبعه وقال لخادمه الأسود (أعطوا هذا الخاتم لزوجتي)».

توفي بلزوني في مساء ذلك اليوم في 3 كانون الأول عام 1823. وهو في الخامسة والأربعين من العمر.

ما الذي قتل الأستاذ بلهارز:

لا يقل غرابة عن موت بلزوني المبكر، تلك الظروف التي أحاطت بموت الطبيب والعالم (تيودور بلهارز) في مصر وهو في السابعة والثلاثين من العمر. كان هذا الطبيب ابن أحد الوجهاء في بلاط أحد الإمارات الألمانية. وقد بدأ تيودور الصغير بجمع الأحجار والنباتات والخنافس وهو لا يزال في المدرسة ووضع فهرساً مصوراً لهذه المجموعة واحتفظ بملفات مرتبة. وكان مثالياً.

وفي الثامنة عشرة سُجِّلَ في جامعة فرايبرغ لدراسة الطب وعلم الحيوان وتاريخ الأدب وعلم الآثار والفنون الكلاسيكية. وبعد سنتين ترك فرايبرغ وسافر إلى توبنجن حيث قرر أن يتم ثقافته الطبية ويشاء القدر في تلك الحقبة أن عميد كلية الطب هناك نظم مسابقة علمية اشترك فيها بلهارز وموضوعها (معرفتنا الحاضرة حول دم

اللافقريات) وفاز بالجائزة الأولى وبعد أن اجتاز الفحوص الشفوية قبلت مقالته كأطروحة مطلوبة (من كل طالب طب) وبذلك منح شهادة على أساسها.

وكانَ أول أعماله تعاونه مع الطبيب ولهم جريزنجر عندما استدعيَ هذا الأخير إلى مصر في أوائل عام 1850 ليصبح طبيب الخديوي الشخصي الخاص ورئيس الأطباء في مصر. وقد أخذ معه بلهارز الشاب كمساعد له ولم يكن بلهارز ليتخيل أنه سوف يخلف جريزنجر بسرعة فائقة فقد كان الطبيب المسن يتصور أن واجباته في العمل كانت تختلف عما وجدها ولذلك فقد ترك العمل وبذلك أفسح المجال لبلهارز.

عندها استطاع العالم الشاب أن يكرس نفسه لاهتماماته السابقة أثناء وجوده في الجامعة، فاشترك في الحفريات حيث كانت مساعدته أمراً مرغوباً به وذلك لمعرفته علم الآثار معرفة عميقة فضلاً عن تمكنه من اللغات، الأمر الذي ساعده على القيام بأعمال الترجمة بين فرقاء عرب وإنكليز وطليان.

وبعد أن سمي بلهارز أستاذاً للتشريح الوصفي في جامعة فريبرغ في عام 1856 أخذ اهتمامه يتزايد بتشريح المومياء ذلك الاهتمام الذي بدأ ينبثق من جرَّاء عمله في علم الإنسان وعلم التشريح المرضي. وهكذا وبصفته مختصاً بعلم الإنسان أرسل للجامعة قفصاً يحتوي على جماجم مصرية وذلك بمناسبة العيد الأربعمائة لتأسيس الجامعة أما بصفته عالماً للتشريح المرضي فقد كانت هديته ليس للجامعة فحسب بل للإنسانية قاطبة فقد اكتشف سبب ذلك المرض الاستوائي الغامض الذي كان يكتسح مصر لآلاف السنين وهو مرض (البلهارسيا) وهو ينتقل بوساطة ديدان طفيلية صغيرة موجودة في طين النيل فقد اكتشف بلهارز بيوض هذا المرض المتكلسة في كليتي مومياء يرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين.

وفي هذا الوقت تابع بلهارز بحوثه في مصر فقد كان الشعب المصري يعيش تحت كابوس مستمر من الخوف من المرض فالطاعون والتيفوس والكوليرا كانت لا تزال تتقاضى الضريبة التي كانت تتقاضاها قبل قرون ولكن اكتشافات روبرت كوخ

ولويس باستور في علم البكتريا والجراثيم جعلت الشفاء من هذه الأمراض قضية مألوفة لأول مرة.

وفي صيف عام 1858 مات أربع سواح أوروبيّين بشكل متتال خلال بضعة أيام بعد أن زاروا هرم الجيزة وقبور الملوك ولم يذكر أحد حينها لعنة الفراعنة ولكنهم كانوا يتكلمون عن الطاعون والتيفوئيد ولتهدئة مخاوف الشعب وتسكينها أجريت عمليات تشريحية لجثث الضحايا الأربع وكانت النتائج المعطاة أن سبب الموت يتراوح بين طاعون شرقي أو نزلات صدرية معها أعراض الطاعون والحمى التحسسية والتيفوئيد ولكن الجراح النمسوي (اسكندر رير) ومواطنه عالم التشريح جورج لوتنر (وكلاهما التحقا بالخدمات الطبية في مصر بعد حدوث هذه الوفيات) قرر هذان فيما بعد أن نتائج التشريحات قد ألغيت وعلى أي حال لم يستطع هذان الطبيبان إعطاء تفسيرات لوفاة السواح الأربعة.

لقد حدت هذه التقارير بالسلطات الصحية في الإسكندريَّة لوضع ميناء الإسكندريَّة تحت الحجر الصحي وهذا أضر بالاقتصاد السياحي في مصر. ولم يرفع الحجر الصحي إلا بعد أن وصل لوتنر وريد ونصحا بإلغاء هذه الإجراءات السريعة وعلى كل حال فإن هذا الحادث يوضح الأهمية التي اكتسبتها أسباب الوفيات كما ذكرت في شهادات الوفيات.

وفي عام 1858 سمي بلهارز نائب رئيس الجمعية المصرية ووجد نفسه يواجه التزامات اجتماعية متزايدة. وكلغوي ومؤرخ فني زادت الحاجة إليه لإظهار أهمية الكنوز الأثرية للزوار وعندَها أتى الدوق إيرنست الثاني حاكم (جوبرج جوثا) إلى مصر في صيف عام 1862 (وكان الدوق يهتم بالصيد أما زوجته فكانت تريد أن ترى قبور وادي الملوك) عندما اختير بلهارز كمرشد للدوقة في زيارتها للأقصر وفي رحلة العودة إلى القاهرة بدأ بلهارز يعاني من تشنجات حمى عنيفة وعندما علم الأستاذ لوتنر بحالته أمر بجلب بلهارز إلى بيته حيث قضى أسبوعين في حالة سبات وبعد ذلك

توفي دون أن يستعيد وعيه ولم يستطع لوتنر أن يقرر أي تشخيص لسبب الوفاة وتشير السجلات الرسمية أن بلهارز مات بسبب حمى التيفوئيد. ولكن لوتنر عارض قائلاً: إنَّ صديقه وزميله قد وقع ضحية لحمى غامضة ولكن من أين أتت هذه الحمى وما الذي سبَّبها يا ترى؟.

أسباب الوفيات الأساسية:

إن قائمة وفيات علماء الآثار الذين ماتوا بشكل غامض في القرن الماضي تبدو وكأنها لا نهاية لها، ولكن بعد الفحص الدقيق تبين أن هناك ثلاثة أسباب محتملة للموت:

الحمى مع الأوهام وتوقع الموت ثم الاضطرابات التي صحبها انهيار في الجهاز الدوراني للدم. أو سرطانات مفاجئة قاضية على الحياة بسرعة.

لقد عمَّر عالم الآثار الألماني رتشارد لبسيوس (1810 ـ 1884) أكثر من أي من زملائه وهو الذي نقل مقابر بأكملها من وادي الملوك وبينها عمود من قبر سيتي الأول ولكنه أخيراً أصيب بضربة تركته نصف مشلول وكان تشخيص الأطباء أن السرطان كان السبب الرئيس في موته.

إن عالم الحضارة المصرية جورج مولر (1877 ـ 1921) الذي وجه أعمال الحفريات في قبور ما قبل التاريخ في أبو صير ومدينة الموتى في طيبة (قرب دير المدينة) كان خبيراً بطقوس دفن الموتى في مصر القديمة وقد قضى وقتاً طويلاً داخل المقابر ولقد كان والده من رجال الأعمال وقد ولد جورج في كراكاس ولكن والديه رجعا إلى ألمانيا وهو في السادسة من العمر ليؤمنا له التعليم المبكر ومثل بقية علماء الحضارة المصرية أصبح مفتوناً بمهنته المستقبلة وهو لا يزال ولداً واستطاع حل بعض الرموز الهيروغليفية وهو في المدرسة وعين وهو في الثامنة والعشرين ملحقاً علمياً في القنصلية الألمانية في القاهرة ولكنه مات وهو في الرابعة والأربعين من العمر بينما كان في رحلة إلى (أبسالا) وكان سبب الموت القشعريرة والحمى.

أما جيمس هنري براستد الأستاذ في جامعة شيكاغو فكانت أبحاثه ناجحة حتى إن روكفلر دعمه وساعده وكان شخصاً متمرساً اشترك في كثير من البعثات المصرية وقد وصل إلى مصر لأول مرة وهو شاب في عام 1894 وكان قد منح شهادة الدكتوراه من جامعة برلين منذ وقت قريب ثم بدأ يعاني من الحمى وقد ذكر ابنه تشارلز أنه حتى قبل وصول والده إلى الأقصر بدأ يشعر بالحمى ولكن هذه الحالة أصبحت تتحول من سيئ إلى أسوأ. قال الابن:

في كل يوم مساء كانت الحمى تعود لتبتليه مع هجمة مؤلمة بحنجرته وقشعريرة متناوبة وفترات بدا وكأن دمه يشتعل في أوردته ويخفق في رأسه وكان يظن أن نوبات من الملاريا انتابته ولكن الفحوص المخبرية التي أجراها طبيب انكليزي فشلت في تشخيص المرض فضلاً عن أن مادة الكينا فشلت في تسكين حدة المرض وقد أمره الطبيب أن يلزم فراشه حيث بقي أكثر من ستة أسابيع استمر المرض يعاوده بانتظام كل يوم ظهراً وينحسر في ساعات الصباح الأولى. وقد سمح له أن ينهض فقط عندما يطلبه كارتر لاستشارته حول أمور مستعجلة حول المقبرة، وفي هذه المناسبات كان يقوم بتلك الرحلة التي تبلغ عشرة أميال إلى الوادي وهو في عربة مفتوحة كانت تنقل عبر النهر وهو متشح بقناع من الكتان ليحمي نفسه من الغبار وكان يعود وهو منهوك القوى كلياً يرتجف من الحمى.

وكان براستد قد خطط للقيام بحملة إلى شبه جزيرة سيناء ورغم مرضه أخذ يشتغل بجد في أوراق البابيروس المختصة بالتشريح والحقيقة أنه كان واثقاً بمقدرته على القيام بتلك الرحلة فقد قال: إنّهُ سوف يقوم بها حتى ولو محمولاً. ولكن عندها تدخل القضاء والقدر بشخص أستاذ من كندا للأدب يدعى (لافلوير) وقد كتب براستد الابن يقول:

لقد كانت غرفة هذا الرجل بجانب غرفة والدي مباشرة وعندما قابلناه أعجبنا وكان يحمل رسائل إلى هوارد كارتر وقد سلمتها بالنيابة عنه. ولكن سرعان من

انتابه مرض الأنفلونزا وبدأ يشفى منه لولا أنـه استلم دعوة من (كارتر) ليأتي حالاً ليرى المقبرة وقد كان لا يزال في الفراش تنتابه الحمى. ولكنه كان حريصاً على ألا تفوته مثل هذه الفرصة النادرة ولذلك نهض وزار القبر.

وفي تلك الليلة اشتد المرض على لافلوير وفي الليلة التالية وحوالي الساعة الثالثة صباحاً خرج الطبيب الإنكليزي من غرفة لافلوير وكان تشارلز لا يزال مستيقظاً فاقترب منه، ولكن الطبيب أومأ برأسه بصمت. لقد توفي لافلوير. ويتم تشارلز حديثه: حالما كنت أنتظر بهدوء فكرت بأنه لأمر جدٌ مؤلم أن يموت المرء وحيداً في الليل في تلك البلاد الغريبَة، قرب ذلك النهر الخالد في فندق مزدحم بالكثير من بني البشر الذين لا يعرفون شيئاً عما جرى.

رجع الطبيب ومعه خادمان وطنيان يحملان محفة مصنوعة من القصب المجدول حيث وضعت جثة لافلوير وحملناها نحن الأربعة وبعد ذلك جمعنا أشياءه وعندما انتهينا قال الطبيب فجأة: يجب علينا أن نمنع والدك من القيام بتلك الرحلة إذ ربما بدأ بها ولكنه لن يعود. فقلت له: «أعلم ما تريد أن تقول».

كانت الشمس تغمر غرفة والدي في الصباح الباكر وكان قد انتهى من تناول فطوره وهو في الفراش عندما دخلت مع الطبيب لنتوسل إليه مرة ثانية. «إني أعرف ما تريدان قوله» ابتسم لنا كلينا، ثم قال: «وأظن أنني أستحسِنُ اهتمامكما أكثر قليلاً بعد أن رأيت ما حدث في الليلة الماضية لقد سمعت بموت صديقنا ولذلك سوف أعدل عن مغامرة سيناء ولكن مؤقتاً»، ولكن الرحلة لم تتم أبداً. ومع أن براستد كان قد حطمته الحمى إلا أنه استمر في العمل مع كارتر في ناووس توت عنخ أمون الذي لم يكن قد فتح بعد. وقد ساهم أيضاً في الدفاع عن حقوق كارتر في المقبرة وقد قضى مدة في داخل مقبرة توت عنخ أمون لم يقضها أحد سوى كارتر نفسه. بعد أن أبل براستد من مرضه في الأقصر، ذكر أن كارتر قد بدا مريضاً ولكن كارتر الذي كانت المقبرة هي بيته الثاني، عاش أكثر من أي عالم من علماء الآثار فإن حياته الطويلة (مات وهو في

السادسة والستين) تعتبر نقطة ضد فكرة لعنة الفراعنة ولكن أعتقد أن هذه هي إحدى الشواذ ولكل قاعدة شواذ.

توفيت زوجة براستد التي كانت تصحبه عادة في حملاته في تموز عام 1934 وقد كتب تشارلز حول وفاة والدته وقال بأنها كانت تشعر بالتعب شيئاً فشيئاً حتى انتابها نعاس ثم نوم ـ نوم لم تستفق منه أبداً.

بقي براستد حياً مدة سنة ونصف سنة فقط بعد زوجته فقد تزوج ثانية من أخت زوجته الصغرى التي أخذها بدورها معه إلى مصر. كتب براستد في 21 تشرين الثاني عام 1935 وهو في ميناء جنوى وهو في طريقه إلى الوطن:

«إنني مشتاق كطالب مدرسة إلى الجلوس على طاولة الدراسة مرة ثانية لأراجعَ (تاريخ مصر). وقد كتب ابنه شارلز بعد ذلك:

في منتصف المحيط الأطلسي أصاب والدي ذلك الالتهاب الحاد في حنجرته وكان والدي يحسبه عودة للملاريا وهذا الالتهاب صحبته حرارة وقد فسَّرَهُ طبيب السفينة بالشكل الذي فسَّرَهُ به والدي. وعندما وصلت السفينة إلى نيويورك تبين أن المرض هو فقر دم انحلالي خبيث وهذا المرض كان حتى ذلك الزمن وقبل استخدام عقاقير (السولفا في أميركا) يعتبر مرضاً مميتاً. ومع أنهم عجبوا من رفضه المطلق للاستسلام إلا أن الذين أشرفوا على علاجه مع مؤسسة روكفلر للبحث الطبي والتي كان السيد روكفلر قد وضعها تحت تصرف الأطباء كل هؤلاء شعروا بالعجز وأخيراً توفي براستد في 2 كانون الأول عام 1935، فالفراعنة الذين كان قد كرس معظم حياته لأجلهم قد نادَوْه أخيراً فعليه أن يلبي النداء.

القبور واللصوص

في الساعة 14 . 8 من مساء 8 شباط عام 1973 نشرت وكالة الأنباء الألمانية (د ب آ) قصة من مصر وكان عنوانها (نهب خمسة آلاف قبر قديم) وقد نشرت الخبر بصفة صحفية فقط إذ إنَّهُ كان يبدو صعب التصديق ومع ذلك فإن وكالة الأنباء الألمانية نشرت 18 سطراً عن هذا الخبر وهو أكبر فضيحة سرقة ونهب للقبور المصرية في مدى عشرين عاماً.

هنالك إطلاق نار في جبل «أبو صير يا سيدي» بهذه الكلمات تقدم عامل في صناعة القطن بعنف إلى مركز الشرطة في بلدة (بني سويف) وهي على بعد 120 كيلو متراً جنوب غربي القاهرة على الضفة الغربية لنهر النيل وهي مركز من مراكز الريف المصري مشهورة فقط بأنه ليس بها محطة سكة حديد ويقع جبل أبو صير على طرف الصحراء ولا يعيش في تلك المنطقة إلا أناس قلائل.

كان الوقت قد أصبح ظلاماً عندما توجهت دورية من الشرطة إلى تلك المنطقة، رؤيت أنوار بعيدة بين الصخور وسمعت أصوات طلقات نارية. ولكن حالما اقتربت عربة الشرطة توقف إطلاق النار وانطفأت الأنوار وقد أظهرت الأنوار الكاشفة موقع بناء فخم هناك على طرفي الصحراء. لم يسمع أي جواب عندما صرخ الشرطي في الظلام ولكن برز سلم من ثقب في الأرض وعندما وجه شرطي نور كشافه نحو الحفرة رأى ثلاثة رجال في أسفل حفرة عمقها حوالي 20 متراً. «ماذا هناك» سأل الشرطي؟.

«لا تطلق النار» كان الجواب من الأسفل. وعندها تسلق ثلاثة رجال إلى أعلى السلم وهم يرتجفون فزعاً. وفي أول الأمر أكدوا للشرطة أن لا علاقة لهم بإطلاق النار ولكن عندما أخذوا إلى مركز الشرطة بدؤوا يتكلمون الصدق:

قبل حوالي سبعة أشهر اكتشف أحدهم قبراً مصرياً على جبل (أبو صير) وبعد أيام قليلة اكتشفَ قبراً ثانياً وسرعان ما كشف صفاً كاملاً من القبور وقد أخبر بعض أصدقائه في معمل القطن عما وجَدَه فاتفقوا على استغلال هذا الاكتشاف باشتراك بعضهم مع بعض.

وكان العمال كلما تعمقوا في الحفر كلما وجدوا قبوراً أكثر، تركوا أعمالهم ولم يعملوا شيئاً سوى الحفر، الذي كان يجري أولاً سراً بعد وضع حراس للحماية وبعد ذلك أصبح العمل يجري ليلاً ونهاراً دون أي حراس وكلما رأوا شخصاً يعثر عليهم صدفة كانوا يدعونه للاشتراك معهم في العمل لأن الأرض كانت تخفي أعداداً لا نهاية لها من القبور والكنوز وليسقط الفقر!..

تحسنت الأمور لمدة سبعة أشهر. ولم يعلق أحد على الحقيقة الراهنة وهي أن كثيراً من عمال المصانع السابقين الذين ما يزالون يعيشون في أكواخ ترابية قد اشتروا السيارات فجأة، وإنْ تكن سيارات مستعملة.

ولم يعلق أحد أيضاً على أن جميع من فعلوا ذلك كانوا شركاء في العمل. وبعد ذلك وفي أوائل شهر شباط فتح حفاران أحد القبور، وكانت محتويات هذا القبر تربو على محتويات خمسة آلاف القبْرِ التي اكتشفت حتى ذلك التاريخ «لقد اكتشفنا قبر فرعون» انتشر هذا النبأ كالنار في الهشيم ولهذا فإن مجتمع لصوص القبور بدؤوا يطالبون بنصيبهم من الصفقات ولكن المكتشفَيْن الأولَيْن رفضَا ذلك ولهذا طردا من غير إبطاء من النقابة وعندما رجع الاثنان إلى القبر الذي اكتشفاه ليحضرا الغنائم بدأ إطلاق النار وبذلك أخفقوا وانهارَ المشروع ويبدو هذا كرواية مغامرات ولكن هذا كله حدث فعلاً عام 1973.

إن مدى العمليات التي ذكرت أعلاه هو غير عادي فإن خمسة آلاف قبر لا تنهب في كل سنة ولكن نهب القبور هو من الحوادث اليومية في مصر. فإن أي إنسان

يزور باب الملوك غرب الأقصر ويظهر أي إشارة بأن لديه اهتماماً بعلم الآثار عندها يرى عدداً كبيراً من الأولاد الذين يرتدون الأثمال يحيطون به ويأخذونه إلى أكواخ رمادية جافة على سفح الجبل ثم يتقدم منه رجل مصري يظهر تودداً غير عادي ويبرز من تحت قفطانه رزمة ملفوفة بورق الصحف القديمة ويقول وكله تقى وورع :

«مومياء يا سيدي»

يشعر السائح المندهش بالاضطراب والغثيان حالما تفتح تلك الرزمة : أيادٍ بشرية ، أصابع ، أقدام بشرية ، ورؤوس عليها جلود وشعر وأظافر وكل هذه ملتصقة وسوداء وجافة وإنَّ سعر كل يد سوداء غالباً خمسون ماركاً أو 17 دولاراً وأما الرأس فيكلف أكثر .

لا تزال المومياء تستخرج في هذه الأيام من قرب الأقصر على الضفة الغربية للنيل وهي لا تخص الملوك بل عامة الشعب الذين دفنوا دون احتفالات أو مواكب وغالباً ما تكون في قبور مشتركة وهذه الاكتشافات ليس لها أي أهمية في تاريخ الفن ولكن بما أن الحكومة قد قررَّت بأن مثل هذه اللقيات يجب أن تسلم للسلطات لذلك ازدهرت السوق السوداء وغالباً ما تحدث تلك الصفقات غير المشروعة تحت سمع الشرطة المصرية وبصَرِها الودودين الذي يلبسون البزات البيضاء .

والبائع سريع في استدرار عطف السائح فهو يقول : «إن هذا من تاريخنا» يقولها بلهجة إنكليزية مكسرة .

معمل الدكتور بنعام لصناعة المومياء:

بالإضافة للمبيعات غير المشروعة للمومياء أصبح تزوير المومياءات وتقليدُها عملاً مربحاً . ففي أوائل الخمسينات كشفت شرطة القاهرة أعظم فضيحة لتزوير المومياءات وتقليدها حدثت حتى ذلك الزمن . فقد وجد الدكتور المعروف علي شكري بنعام (وهو طبيب صحة) على رأس عصابة لها ارتباطات وملحقات في كل هيئة مصرية رئيسية عامة تقريباً .

وقد وجدت الشرطة في المراسلات التي ضبطت حول المغامرات للحصول على المومياء أسماء عدة أشخاص مرموقين من هواة جمع المومياء أيضاً .

كشف سر الدكتور بنعام الذي كان على اتصال وثيق بحفاري القبور في المدينة إذ بعد دفع أجر ثابت كبقشيش كانوا يجلبون له الجثث ثم يقضي مساعدوه أسابيع في إعداد الجثث لتكون شبيهة بالمومياء القديمة بعد معالجتها كيميائياً وذلك بالاستفادة من الكتب التي تصدرها مؤسسة التشريح في جامعة القاهرة (وهذه المؤسسة كانت تعمل في المومياء الملكية) وكان الدكتور بنعام يرسل بالبريد وبالجملة كل الطلبات كلما تم إعداد دفعة جديدة من المومياءات.

لقد انتهى عمل تلك الشركة في 2حزيران عام 1952 وذلك عندما اكتشف موظفو الجمارك في ميناء بور سعيد أربعة صناديق طويلة مشحونة إلى الخارج على ظهر سفينة شحن وعندما سألوا عن محتويات هذه الصناديق قدمت لهم رشوة كبيرة لكي يغضوا النظر ويهتموا ببقية حمولةِ سفينة الشحن بدلاً من ذلك.

ولكن يظهر أن موظفي الجمارك استيقظت ضمائرهم وتذكروا واجبهم إذ طلبوا فتح الصناديق وعندها أبرزت لهم وثائق وبيانات رسمية تسمح بتصدير أربع مومياءات مصرية قديمة ولقد سبب ظهور هذه البيانات الرسمية المفاجئ ازدياد ريبة موظفي الجمارك وشكّهم فأنزلوا الصناديق من السفينة وفتحوها فظهر أنه ليست البيانات الرسمية مزورة فحسب، بل المومياءات أيضاً.

وكانت الشرطة قد أخفت هذه الشكوك مدة طويلة فقد كان مدير الآثار المصرية مهتماً بهذا الموضوع مدة طويلة لأن عدداً كبيراً من المومياء المعروفة الأصل كانت تباع في الأسواق العالمية.

ادعى المصدر أن رجلاً يدعى (محمد نزلة منوط) قد أعطاه التصريح بشحن المواد المزورة ولكن ظهر أن هذا الاسم مزور أيضاً وعندئذ تدخل الحظ في إرشاد الشرطة فقد حدث أن إحدى سيارات الشحن أوقفت اضطرارياً في خان الخليلي في القاهرة وانزلقت عدة صناديق على الطريق العام واندفع أحد رجال الشرطة لمنْع تعثُّر حركة السيْر في الطريق وحالما اقترب من السيارة رأى رأساً محنطاً لجثة أسفل غطاء الصندوق المحطم وقد أقسم سائق السيارة بالله أنه ليس له أية علاقة بكل هذه القضية وأخبر السلطات عن

اسم الرجل الذي أعطاه إذن الشحن وهو الدكتور (علي شكري بنعام) وكان آخر فصل في هذه الرواية مذهلاً ومثيراً فقد طوقت الشرطة جميع الأمكنة حول بيت الدكتور بنعام وبعد ذلك اقتحموا البناية فوجدوا عدة من أعوان الدكتور يحنطون الجثث ويحزمونها في نواويس حقيقية وكانت هناك جثث أخرى مهيّأةً في القبو.

وقد ارتأى ناطق باسم متحف القاهرة المصري بعد أن عاين مخبر المزور بأن سبعين في المئة من المومياءات التي شحنت من مصر خلال عشر السنوات الأخيرة مزورة.

مدينة الأموات في طيبة:

لقد لعب المال دوراً هاماً في عملية الحفريات في وادي الملوك، فضلاً عن الطموح والمنافسة. فالعلماء المثاليون الجادون لم يكونوا الوحيدين الذين حفروا هناك فقد قام بالحفر كثير من الباحثين عن الكنوز والأموال وكذلك المغامرون السذج البسطاء ولا عجب أن نرى أن تاريخ مدينة الأموات في طيبة هو قصة طويلة من المغامرات تبدأ بأقدم نصب على منحدرات الكوشة الشرقية وهو قبر الأميرة (ايهي) (من المملكة المتوسطة) وتنتهي باكتشاف قبر توت عنخ أمون.

تمتد مدينة الأموات غرب الأقصر ثلاثة كيلو مترات من الشمال إلى الجنوب. وحتى في هذه الأيام لا نعرف الاسم الحقيقي للعاصمة الفخمة التي دعاها اليونانيون (ثيباي) (طيبة) على الضفة الشرقية للنيل وعلى بعد 500 كيلو متر جنوب القاهرة ولكن هنالك شواهد ناطقة عن عظمتها الغابرة.

ابتدأ ارتفاع نجم طيبة في أثناء حكم السلالة الحادية عشرة. فقد قام بعض الأمراء الأقوياء من عائلة أمنحوتب ببناء معبد في الكرنك لا عين رأت ولا إذن سمعت بمثله من قبل وكان مكرساً للإله أمون وهو أحد الآلهة الأصيلين الثمانية في هرموبوليس وهي إحدى المدن في مصر الوسطى ومن الغريب أن مقبرة المدينة على الضفة الغربية لنهر النيل تحتوي على كثير من القبور ولم يكن ما عثر عليه فيها مما يستحق الذكر. والحقيقة أنه منذ الأسرة الثالثة عشرة حتى السادسة عشرة (1778 ـ

1610 ق.م) وخلال حكم الرعاة الساميين (الهكسوس) هبطت طيبة في مهاوي الانحطاط ولكن خلال منتصف القرن الرابع عشر ق.م تألقت نهضة جديدة على يد ملوك المملكة الحديثة. وهذه النهضة جعلت من طيبة أجمل مدينة في العالم كسفت مجد مدينة (ممفيس) القديمة بما فيها من أهرامات عظيمة امتدت من (أبوروش) شمالاً حتى ميدوم جنوباً.

وقد ظهرت بصمات تحوتمس الثالث وحتشبسوت وأمنحوتب الثالث على تلك المدينة وعلى وادي الملوك على الجانب الآخر من النهر. ولكن عندما اعتلى أمنحوتب الرابع العرش هددت عظمة طيبة ذات مائة الباب حسب قول هوميروس، وذلك عندما نقل مركز الحكم إلى (تل العمارنة) وهو في منتصف المسافة بين الأقصر والقاهرة، ولكن حكم أمنحوتب الرابع كان هامشياً وبقيت مدينة الأموات في طيبة مرآة صادقة للقرون التي ساهمت في تكوين طيبة نفسها.

إن أقدم آثار الموتى في طيبة وجدت في قرية (القرنة) على حدود الصحراء الليبية فقد حفرت القبور في الأرض الصخرية لمسافة طولها 1200 متراً وعرضها نحو 200 متراً. ويعتقد أن قبور الملوك الثلاثة الأوائل للأسرة الحادية عشرة وهم (أنتيف الأول) و(أنتيف الثاني) و(منتوحيت الأول) يجب أن تكون هنا وإنَّ (أوغست ماريت) العالم الأثري الفرنسي الذي قام بحفرياته في حوالي عام 1860 قد اكتشف بقايا هرم فوق القبور ولكن القبور كانت متواضعة في حجمها بعكس الأقبية الصخرية في وادي الملوك، القريب فقد كان الموظفون الكبار في البلاط يدفنون قرب ملوكهم.

وبعد أن ازدادت أهمية ملوك طيبة كفراعنة يحكمون كل مصر صاروا يهتمون بجعل قبورهم تحاط بالأبهة لتكون ذات تأثير وقد اقتبسوا أساليب البناء بالحجر الكلسي التي استعملت في مباني دير البحري الفخمة. وقد بنى (أمنحوتب الثاني) قبره الذي يعلوه هرم في منتصف الوادي. وأما الرجال الذين يلوذون به فقد دفنوا في أربعين قبراً ملتصقة به ومن بين هؤلاء وزيره، ومستشاره ورئيس الشؤون الداخلية لأسرته. وحامل قوسه وهنالك مظهر يستلفت النظر في هذه القبور هو وجود ثلاثة

قبور جماعية فيها ستون مومياء مدفونة دون توابيت أو تحنيط وهؤلاء كانوا من الجنود الذين لاقوا حتفهم في المعركة وترى آثار السهام في أجسامهم المتقلصة ولكي نتعرف على النواحي المتشابكة التاريخية الهامة يتوجب علينا الآن أن نقوم بقفزة إلى أربع سلالات زمنياً ولكن هذه القفزة تؤلف حوالي ألف ياردة طولاً ففي بدء الأسرة الثانية عشرة نرى أن قرية (أبو النجا) تبدأ في أن تصبح ذات شهرة وأهمية خاصة جديدة وذلك لأن الأمراء الطيبيين الذين طردوا الهكسوس قد دفنوا هناك (ويظن بعض المؤرخين أن حادثة طرد الهكسوس هي أساس سفر الخروج في التوراة) وأنَّ إحدى نتائج هذه الأهمية الجديدة في قرية (أبو النجا) أنْ أصبحت هذه القبور أكثر تعرضا للنهب والسلب من غيرها في الوادي وقد ذكرت أوراق البردي القديمة أنَّ ستَّة أقبية للفراعنة قد نهبت. ومن جهة أخرى نرى قبْرَ أحدٍ من الفراعنة المغمورين وهو (نوبشربر) لم تمسه أي يد حتى عام 1827 عندما نهبه أحد الفلاحين المصريين.

أحرز ماريت نجاحه الكبير في (أبو النجا) ولكنه كان موضع شك وريبة ولما كان ماريت لا يزال غير معروف تماماً إذْ كان قد سجل اكتشاف بعض الكنوز المدفونة، فقد أمره الخديوي سعيد باشا أن يعيد دفن بعض اللقيات الأثرية في مكان بارز وذلك لأن سعيد قد سمع من بعض أصدقائه وهو في باريس أن لويس بونابرت وهو ابن عم نابليون الثالث سوف يزور مصر وكعلامة خاصة لاحترامه وتبجيله فقد عمد سعيد إلى جعل شرف حفر كنوز الألف الماضي واكتشافِها أمام الزائر الكريم ثم إهداء تلك الكنوز له.

ولكن ولشدة أسف ماريت أخطر باستعادة الأشياء المدفونة تحت الأرض بمهارة دون حضور الزائر الكريم وذلك لأن الأمير قد بدل خططه ولم يحضر ومع ذلك فقد أرسل ماريت ما وجده إلى سمو الأمير لويس بونابرت في باريس ولكن هذا العمل لم يضر بماريت وذلك لأن نفوذ آل بونابرت في مصر كان عظيماً جداً حتى إنَّ ماريت عين نتيجة لهذا العمل (مدير خدمات الآثار في مصر) بعد رجوع البريد.

خدم مسكن الحقيقة والصدق:

حتى لو تجاهلنا القبور الخاصة التي لا تعد ولا تحصى في هذه المنطقة حيث يوجد عدد من الناس تحت الأرض أكثر مما يوجد فوقها، إلا أننا من الواجب أن نلقي نظرة سريعة على قبور (دير المدينة) فهذه القبور كانت محفوظة لمجموعة خاصة من الناس، ليسوا من الملوك أو موظفي البلاط أو الأثرياء بل من النحاتين والبنائين والرسامين ورؤساء العمال الذين أبدعوا الأبنية تحت الأرض في وادي قبور الملكات (باب الحريم) ووادي قبور الملوك (باب الملوك) وقد منح هؤلاء الرجال لقب شرف وتكريم وهو لقب (خدم مسكن الحقيقة والصدق).

ومنذ ذلك العهد تمتع الفنانون بتدوين أفكارهم ولم تترك لنا أي مهنة من المهن سجلات متعددة أكثر مما تركه لنا بنّاؤو قبور وادي الملوك فأوراق البابيروس التي تبحث عن الفنانين هي نادرة جداً أما السجلات فهي جيش لجب وحتى الحوادث التافهة وغير الهامة نجدها مسجلة على بعض الأحجار الكلسية أو الحجر الرملي أو الآجر وهذه يمكن وضعها في الجيب ثم رميها فيما بعد.

وكان خدم مسكن الحقيقة يعيشون في مستعمرة للفنانين (قرية موراي) وكانت المستوطنة الوحيدة على الضفة الغربية لنهر النيل. وقد وصلت لنا قوائم القرى وهي لا تذكر السكان ومهنهم فحسب بل عدد الأشخاص الذين كانوا يعيشون في كل بيت باعتبار أنه كان هنالك 155 بيتاً.

وكان هؤلاء الفنانون والحرفيون المهرة يعملون وكلهم إيمان بألوهية الفراعنة القدماء ونحن نعلم من أوراق البابيروس مثلاً أن هؤلاء لم يكونوا يعتبرون أنفسهم جديرين بعبادة الآلهة الرسمية بل كانوا يعبدون آلهتهم الخاصة وهي آلهة الشعب الضعيف الواهن.

إن الكنوز التي وجدت في باب الملوك ليس لها مثيل في التاريخ فلا مثيل لتلك الأعمال الفنية التي نزعها العبيد والمساجين من الصخور تحت ظروف قاسية من الحرمان لا تصدق ولا لتلك الثروات الباهرة المتألقة لرجال البلاط البيروقراطيين

ولأقارب الملك التي كانت مخزونـة هنـاك ولا عجب أنه قبـل بداية العصر المسيحي بألف سنة وبعد خمسمائة سنة من بداية بناء القبور الصخرية بدأ نهب القبور وسـلبها. إذ نرى أن قبر الفرعون أمنحوتب الثاني لا يزال يحتوي على موميـاء الملـك ولكـن لـم تبق فيه أي كنوز وكما رأينا فإن اللصوص حاولوا الدخـول إلى قـبر تـوت عنـخ أمـون مرتين وكنتيجة لهذا النهب فقد قرر ملوك المملكة الحديثة أن يتوقفـوا عـن إقامـة الأبنيـة فوق مقصورة القبر إذ إنَّ الأهرامات والمعابد في نهاية الصحراء الليبية كانت عاملاً من عوامل جذب اللصوص فقط.

وكان أمنحوتب الأول وتحوتمس الأول أول من جعل القبور تحفر فـي الصخـور عميقاً تحت الأرض بحيث كانت القبور لا ترى من الخارج وقد قال المهندس المعمـاري الذي بنى تلك القبور في مخطوطةٍ وجـدت فـي قـبره : «لقـد أشـرفت علـى حفـر قبر صاحب الجلالة الصخري جميعـه بنفسـي دون أن يـرى هـذا القـبر أو يسـمع بـه أحـد» وهذا ما حدا بعالم الآثار (جورج شيتندوف) أن يستنتج ذلك الاسـتنتاج المثير للجـدل والمختلف عليه وهو أن أسرى الحرب الذين كانوا يشتغلون في القبر كانوا يقتلـون بعـد أن ينتهي عملهم.

الفراعنة في قبور مختلفة:

ولكن حتى ولو لم تنهب قبور الفترة السابقة للعصـر المسـيحي فـإن قليـلاً مـن هذه القبور كان يبقى على حاله الأصلي وذلـك لأن المنافسـة بـين الملـوك لـم تتوقـف عند القبور الحجرية لأسـلافهم فتحوتمس الأول لـم يسْمَحْ لـه أن يبقـى إلا سـنوات قليلة راقداً في ناووسه المصنوع من الحجر الكلسي الأحمر وذلـك لأن ابنتـه ووريثتـه حتشبسوت وهي امرأة كانت تعمل كل ما في وسعها لتظهر بمظهر الرجـال، أخرجـت جثة أبيها ووضعته في قبر كانت قد أشادته لنفسها فقد اضطروا لزيادة طول التـابوت الحجري قليـلاً ليناسـب السـاكن الجديـد. لـم يكـن مـن السـهل سـحب الفراعنـة وجذْبُهم إلـى البـلاط الملكـي ولكـن لصـوص المقـابر استطاعوا ذلـك وفعلــوه وإنَّ

سجلات المحاكمات لهؤلاء اللصوص تصف كيف أن قبور أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورعمسيس الثاني قد نهبت، فأولاً قد وضع رعمسيس في قبر سيتي وبعد ذلك نقل كلا المومياءين ووضعتا في قبر الملكة (إنهابي) وبعد ذلك نجد أن رعمسيس الأول وجد مثواه الأخير في هذا القبر أيضاً. وإنَّ تقرير العالم الأثري الفرنسي (فيكتور لوريت) يضع النقاط على الحروف: فهو قد وجد مومياء أمنحوتب الثالث في قبر أمنحوتب الثاني وهذه المومياء راقدة في ناووس رعمسيس الثالث الذي كان بدوره مغطى بغطاء من ناووس سيتي الثاني.

إن مثل هذه الحالات لم تكن نادرة وهنا نورد سجلاً من سجلات الأسرة العشرين وزمنه حوالي 250 عاماً بعد موت توت عنخ أمون. ويبدو أن رجلاً اسمه (بيزر) وهو موظف في مدينة على الضفة الشرقية للنيل يكيل سلسلة من الاتهامات ضد (بيويرو) الذي كان مسؤولاً عن مدينة الأموات على الضفة الغربية وقد اتهم زملاءه بإساءة الإدارة والإهمال ولذلك فقد دعا الوزير (حاكم المنطقة) لجنة مؤلفة من كاهنين وكاتبين وضابطين من ضباط الشرطة للبحث والاستقصاء في القضية ونتيجة لذلك فإن اللجنة قدمت التقرير التالي:

1 - إن شهادة الليزر المصحوبة بالقسم الموجهة إلى الوزير والمسؤول عن إدارة المدينة، خازن الدولة الملكي وإلى كاتب الفرعون وإلى مدير أملاك الكاهنة العظمى للإله أمون - رع وإلى الناطق بلسان الفرعون وإلى الفرعون العظيم، أن بيرس يدعي أن قبر أمنحوتب الأول الواقع شمال معبد أمنحوتب قد فتح ونهب ولكن وجد أن القبر لا يزال كما هو ولم يمس.

2 - إن هرم (أنتيف) الكبير ابن رع قد وجد سالماً لم يتضرر وهو يقع في ساحة معبد أمنحوتب الذي كان هرمه قد أتلف ولكن لا يزال هنالك عمودٌ تذكاري عليه صورة للملك وكلبته (بيكا) بين ساقيه خارج المكان.

3 - إن هرم الملك (تويشربر - رع) ابن (رع - أنتيف) أتلفَهُ اللصوص أيضاً فهنالك ثقب عند أسفل الهرم عرضه ذراعان واكتشفنا ثقباً آخر في غرفة الانتظار في قبر

(جوري) وهو مدير القرابين في معبد أمون ولكن لصوص المقابر لم يستطيعوا الصعود مباشرة إلى القبور.

4 ـ وجدنا أهرام الملك (سيشيميرا) ابن أنتيف الأكبر قد اخترق بنفس الطريقة ولكنه لم يحطم.

5 ـ لقد حطم هرم سيشيميرا بن رع سيكمساف ودخلوا إليه من القاعة الخارجية لقبر (نيبامون) وهو مدير المؤن في قصر تحوتمس الثالث وقد اختفت مومياء الملك وزوجته تشاسنوب.

ولكن بعد البحث والتحريات وجد اللصوص وأمسك بهم وكانوا ثمانية بنائين وخدم معبد أمون وبعد أن ضربوا ضرباً مبرحاً انهاروا واعترفوا بالاعتراف الآتي:

«لقد اقتحمنا هرم الملك سيمكساف وزوجته الملكة (تشاسنوب) وحطمنا نواويسهما وفتحنا الأكفان التي كانوا ملفوفين بها وكان رأس المومياء المبجلة ورقبتها للملك مطوقة بصف طويل من التمائم الذهبية والمجوهرات وكانت الجثة محاطة بالذهب وكانت التوابيت تحتوي على الذهب والفضة والماس الثمين وقد نزعنا جميع الذهب من مومياء الملك وأخذنا التمائم التي كانت على رقبته وأكتافه وقد عوملت الملكة بنفس الطريقة وقد أخذنا كل شيء وجدناه وخرقنا مواد التحنيط وقد استولينا على كل الذهب والفضة والأدوات المنزلية البرونزية التي وجدناها ثم قسمنا الذهب والتمائم والمجوهرات وأكفان المومياء إلى ثمانية أقسام».

وفي ذلك الوقت كان الوزير هو قاضي القضاة أيضاً وكان يشرف على ست محاكم وقضاتها، وكان الفرعون يعين القضاة جميعهم كما فعل الوزير تشامويز بنفسه وكانت كل الشهادات التي تقدم للمحاكمة تقدم إلى الفرعون ليعطي رأيه النهائي فيها وفي أثناء ذلك كان اللصوص موقوفين في سجن ملحق بمعبد أمون وليس هناك أي سجلات موجودة حول تصرف الفرعون إزاء مثل تلك الحالة ولكن على العموم كانت عقوبة الإعدام تطبق على لصوص المقابر وإنَّ ثمانية أحكام بالإعدام في طيبة (ومن المسلم به أن اللصوص قد قتلوا) يجب أن يكون

لها نتائج رادعة، ولكن الإغراء كان عظيماً جداً فإن عمل ليلة واحدة تسبب الثروة والغنى لشخص بسيط مدى الحياة، وفي خلال الألف الأول الميلادي كانت قبور الفراعنة تكتشف تباعاً فقد كتب ديودوروس المؤرخ أن هنالك سجلات في طيبة تذكر سبعة وأربعين قبراً هناك ولكنه خلال رحلته إلى مصر في عام 57ق.م. استطاع أن يجد سبعة عشر منها وبعْدَ ثلاثين سنة قال سترابو: إنَّهُ وجد أربعين منها تستحق الرواية.

وهذا يثير سؤالاً ممتعاً: هل لا يزال هنالك قبور فراعنة لم تكتشف حتى الآن يا ترى؟.

لقد ألقيت هذا السؤال على علماء آثار إنكليز وفرنسيين فلم ينفوا إمكانية العثور على مثل هذه القبور نفياً قاطعاً ولكنهم أكدوا أن اكتشاف قبر مصري قديم لم يمس هو أمر مستبعد جداً. ولدى (جورج ستاندوف) (وولتروولف) وهما عالما آثار مشهوران أسماء عدة قبور مسجلة على قائمة القبور المفقودة وهي قبور تحوتمس الثاني وسمينكار مثلاً ولا ننسى قبر أمنحوتب بين كثير من القبور الأخرى وقد قال لي مرة علي الخولي وهو مساعد العالم (ولتر إيمري) وكنَّا واقفين في مقبرة صقارة الرحيبة: انظر، هنالك في مكان ما من هنا يرقد أمنحوتب العظيم «وامتد ذراعه عبر الأفق وهو يقول: ولكني لا أعرف بالضبط أين يكون هذا القبر».

الحفارون الأوائل:

إنها غلطة نابليون فقط (إن لم تكنْ من عمله) فإن مصر بما فيها وادي الملوك كانت ستبقى قرناً آخر من الزمان تنعم بجمالها الراقد الذي لم يكن يزعجه إلا بعض مغامرين قلائل مثل رتشارد بوكوك الذي اكتشف أربعة عشر قبراً ووصفَها من وادي الملوك في عام 1745. ولكن نابليون اكتشف أرض النيل ليس لمصلحة فرنسا فقط (مع أن الفرنسيين فقط هم الذين فهموا كيف يجنون أعظم فائدة من هذا الاكتشاف) فقد قال نابليون في خطابه الدرامي: (أيها الجنود إن أكثر من ثلاثة آلاف عام من التاريخ

تطل عليكم). لقد سمع هذا الخطاب في جميع أنحاء أوروبا، سمعه المغامرون والعلماء وعلماء الآثار.

وقلما كان هؤلاء الأخيرون علماء بالمعنى الدقيق العلمي للكلمة وهكذا فقد كتب (جيوفاني بلزوني) الذي قد تعرفنا عليه، عن إحدى هذه الرحلات إلى وادي الملوك: إنَّ الهواء المحتبس في كثير من القبور جعل كثيراً من الناس يغمى عليهم فقد انتشرت سحابة من الغبار اخترقت الحناجر والأنوف وجعلت الرئات عاجزة عن التنفس ومقاومة الرائحة النتنة للمومياء. ثم كتب:

(إن مدخل الدهليز المؤدي إلى الأجسام محفور في الصخور وكان سقوط الرمل من الأجزاء العلوية لسقوف الدهاليز سبباً في امتلائها وسدِّها ولم يعد هنالك موطئ قدم، وكنت محاطاً بأكوام الأجسام والمومياء من كل جانب الأمر الذي سبب لي الفزع خصوصاً لأول مرة وقبل أن أعتاد على ذلك المنظر وكانت الجدران السوداء والأضواء الضعيفة الصادرة عن الشموع أو المشاعل التي خفت ضوءها بسبب قلة الهواء والأشياء المختلفة التي كانت تحيط بي والتي تبدو وكأنها تتحدث مع بعضها والعمال العرب والشموع والمشاعل في أيديهم وهم عراة يغطي أجسامهم الغبار وهم أشبه بالمومياء الحية، كل هؤلاء شكلوا منظراً من المستحيل وصفه أو التعبير عنه).

إن الجدران السوداء تشير إلى الحقيقة المرة وهي أن المستكشفين الأوائل ومشاعلهم التي تنفث الدخان الأسود سببت ضرراً في القبور أكثر بكثير مما سببه لصوص المقابر الذين لم يكونوا يستولون إلا على الذهب والأواني بينما أضر سخام المشاعل باللوحات الزيتية المدهونة على الجدران وفي بعض الحالات أتلفتها.

لم يستعمل المصريون القدماء المشاعل للرؤية عند بناء زخرفة القبور وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن السخام يسبب ضرراً فضلاً عن أن المشاعل تستهلك كثيراً من الأوكسجين في الممرات الصخرية على بعد مئات الأمتار تحت الأرض مما يسبب اختناق العمال، وبدلاً من ذلك كان المصريون يستعملون شيئاً وطنياً لا يزال المرشدون يستعملونه حتى اليوم وهو المرايا التي يمكن أن تنقل أشعة الشمس لمئات

الأمتار بسهولة داخل الصخور فكانت المرايا الإضافية توضع في زوايا صحيحة مناسبة لتنقل الضوء حول الزوايا من الأعلى إلى الأسفل. وهذا الإجراء يؤمن وجود أشعة الشمس بحيث يستفيد الفنانون بشكل يسمح لهم أن يميزوا المقدار النسبي للضوء بدقة عظيمة وقد تعلمت إدارة الآثار المصرية من القدماء وبدأت باستعمال أضواء النيون في القبور التي يزورها الجمهور ولم ينتقد هذا الإجراء إلا الجماعات المتخلفة الذين يعتبرون هذا ضلالاً وبدعة سيئة.

وقد علق بلزوني على نشاطه في العمل تحت الأرض بلهجة لا تخلو من الفخر:

«عندما دفعت بجسمي على جثة أحد المصريين سحقته كعلبة قبعات ومن الطبيعي أن استعنت بيدي لأسند ثقلي ولكن لم تجد يداي أي سند وهكذا غطست بين المومياء المكسرة والعظام تتحطّم تحتي ومعها الخرق البالية والصناديق الفارغة وهذا أثارَ سحباً من الغبار جعلتني أفقد حركتي لمدة ربع ساعة تقريباً وانتظرت حتى هدأت الحالة مرة ثانية».

مستودع المومياءات:

هنالك أسباب خاصة جعلت اثنتين وخمسين مومياء ملكية تبقى سالمة ويمكن أن يرى بعضها حتى اليوم في الغرفة (52) في المتحف المصري في القاهرة، هذه المومياءات بقيت مدفونة في الصخور في باب الملوك رغم المحاولات المنظمة المسلحة لسرقتها.

لقد هوجم الحراس الذين يحمون الكنوز في القبور لأول مرة زمن حكم رعمسيس الثالث 1197 ـ 1165ق. م وحالما ازدادت هذه الهجمات عمل الكهنة في زمن الأسرة العشرين على وضع خطة محكمة ونفذوها. فقد نفذوا إلى كل قبر عرفوه وأخرجوا كل مومياء ملكية وكان عددها تسعاً وأربعين. وقد نقلت ثلاث عشرة منها إلى قبر أمنحوتب الثاني السري وأما الستُّ والثلاثون الباقية فقد حملت في موكب سري إلى واد حيث حفروا خندقاً عمقه تسعة أمتار في الرمل وقد عملوا دهليزاً

من نهاية تلك الحفرة إلى مقصورة طولها سبعة أمتار وعرضها خمسة أمتار وقد وضعت الجثث المحنطة للحكام الأوائل في الغرفة وأقفلت.

وبقي هذا المخبأ مخفياً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً حتى أتى يوم من أيام شهر شباط عام 1971 كان عبد الرسول فلاحاً يعيش في قرية (القرنة) يعتمد في معيشته على بيع الأشياء المصنوعة التي يجدها نتيجة لحفريات غير مشروعة. وفي ذلك اليوم قرر أن يزيد من جرأته فأتى بأخيه محمد وربطه وأنزله بواسطة حبل إلى دهليز عميق غامض وكان أحمد قد عرف شيئاً عن هذا المكان وقد قام ببعض العمليات الاستكشافية الصوتية وذلك برمي الصخور في الحفرة والآن وقد أصبح في الداخل كان مجبراً أن يقتحم حائطاً حجرياً وعندما قام بذلك وجد نفسه أمام المومياءات التي كان الكهنة قد جلبوها إلى ذلك المكان قبل ألف سنة من ميلاد المسيح.

«ادفعني إلى الأعلى» صاح بأخيه الذي سحبه إلى الأعلى إلى وضح النهار «لقد رأيت أشباحاً» تلعثم أحمد وهذا ما زاد في شعوره بأنه مشترك في جريمة تسبب له الذعر والهلع.

لكنه تردد كثيراً قبل أن ينزل للمرَّة الثانية إلى ذلك المكان وعند ذلك شعر أن المومياء كانت لا تزال تلبس المجوهرات بما فيه رمز (الصل) المصري (الأفعى) وهو علامة السلطة عند الفراعنة توضع على جباههم، ولكونه من لصوص القبور المتمرسين علم أحمد أنه اكتشف أحد قبور الفراعنة.

كان عقاب الحفريات غير المشروعة صارماً جداً وحتى في أواخر القرن التاسع عشر، ولهذا فلم يكن بوسعه أن يبوح بالسر ولم يكن يعرف هذا السر سوى أحمد وعائلته وقد قرر ألا يبيع المومياء كاملة بل كان يخرج الأشياء الثمينة ويصرفها واحداً بعد واحد.

لكن أحمد عبد الرسول باح بالسر إلى شخص واحد فقط وهو القنصل الفخري (مصطفى آغا آيات) الذي كان يمثل بريطانيا وبلجيكا وروسيا في الأقصر وكان يتمتع بسمعة حسنة من النزاهة والكرامة وكان أحمد يشتغل معه أولاً كساقٍ

وكان هذا القنصل يشتري ولمدة عشر سنوات كل ما كان يجلبه له أحمد عبد الرسول وكانت لقطات ثمينة جعلت الخبراء يندهشون من نوعيتها الجيدة العالية.

وكان السيد (غاستون ماسبيرو) مدير الآثار في الحكومة المصرية هو أول من انتبه لهذه القضية وأصبح مرتاباً. فقد كان قد اكتشف عدة مجوهرات في السوق السوداء وقد قرر أن هذه اللقطات ترجع إلى الأسرة الحادية والعشرين إذ يجب أن يكون أحدهم قد اكتشف قبراً يعود إلى تلك الأسرة في مكان ما. وقد اشترى كثيراً من تلك الكنوز وبدأ يتحرى عن أصلها فقادته كل التحريات إما إلى القنصل (آغا آيات) أو إلى عبد الرسول إخوان.

ولما كان آغا آيات يتمتع بالحصانة الدبلوماسية كقنصل فلم يكن بالمستطاع إلقاء القبض عليه وأما أحمد عبد الرسول فقد أنكر كل شيء حتى بعد أن تعرض للضرب لم يكشف عن أسراره ولذلك سجن مدة شهرين ثم أطلق سراحه. ولكن حدثت مشاجرة بينه وبين أخيه محمد وهذا كشف للسلطات عن مكان مستودع المومياء الذي وجده أخوه.

وبعد سنوات زار عالم الآثار الأميركي جيمس هنري برستد ذلك المخبأ وفيما يلي تقريره:

«رجاني حبيب ومعه أحد المرشدين بألاّ أنزل إلى أسفل الحفرة ولكني تجاهلت كل مخاوفهم السخيفة وخففت جسمي من جميع الملابس الزائدة ولما لم أكن أثق بهم بأن ينزلوني بأمان إلى أسفل الحفرة، لذلك فقد جعلتهم يتمركزون خلف بعض الصخور البارزة في أعلى الحفرة ثم استلقوا على الأرض وشبكوا أرجلهم بعضهم ببعض كما هي الحال في لعبة (شد الحبل) وأمسكوا بالحبل بشدة ثم بدأت بالهبوط من أعلى الحفرة وكان معي شمعة وبعض عيدان الثقاب في جيبي وهكذا صرت أتأرجح في داخل الحفرة وأهبط رويداً رويداً إلى القاع.

عندما وصلت القاع أشعلت شمعتي وبدأت أزحف على طول دهليزٍ طويل أصبح ضيقاً بفضل بعض قطع الأحجار التي سقطت من الأعلى من السقف وبعد أن درت دورتين بزاويتين قائمتين قادني الدهليز إلى مسافة 195 قدماً في داخل الجبل

وكان الهواء الذي أصبح ساخناً بفعل تعرضه لحرارة الشمس لعدة ألوف من السنين يبدو خانقاً وبدأ العرق يتصبب من جسمي وكنت مغموراً بالظلام الدامس والسكون الرهيب حتى إنّ صوت احتراق الشمعة أصبح مسموعاً بشكل واضح.

وفجأة سمعت صوتاً غريباً وحركة سببت انطفاء الشمعة وشعرت بشيء يلطمني على وجهي ولكن لم يكن سوى وطواط، أشعلت عود ثقاب ولكن لم أفلح في الإشعال ومع أنه لم يكن هنالك من سبب حقيقي للخوف خيل لي أنني وصلت إلى الأبدية خلال ذلك الظلام الدامس وبقيت على هذا الحال حتى توهج ضوء الشمعة مرة ثانية.

انتهى الممر في مقصورة مربعة مساحتها حوالي عشرين قدماً وفي هذه المقصورة أخفى كهنة الأسرة الحادية والعشرين جثث الملوك العظام للأسرة الثامنة والتاسعة عشرة لأنه كان من المستحيل حماية تلك الجثث حتى في ذلك الوقت من لصوص المقابر ولكن في هذه المقصورة السرية المحفورة في الصخور استطاعوا أن يؤمنوا تلك الجثث دون أي إزعاج طيلة ثلاثة آلاف عام حتى استطاع اللصوص الجدد وهم أبناء أولئك اللصوص أن يكتشفوها في عام 1881م.

لقد سقطت قطع كبيرة من الصخور من السقف حتى أصبح من الصعب التحرك داخل المقصورة (ولقد سقطت علي قطعة صغيرة وأنا موجود هناك) ولو مرت بضع سنين أخرى قبل أن تكتشف لظلت مخبوءة إلى الأبد ولو لم أكن آخر زائر لقام غيري بهذه الزيارة بعدي، وضعت الشمعة على صخرة ساقطة وجلست بضع دقائق بينما بدأ عقلي يتخيل ذلك المنظر الفريد الغريب الذي حدث قبل ما ينوف على ثلاثة آلاف عام أولاً عندما بدأ العمال بحفر هذه الحفرة ووضْع تلك المقصورة داخل الجبل ذي الصخر الكلسي وبعد ذلك عندما بدأ أكثر الرجال الموثوقين من الكهنة يجلبون المومياء سراً إلى هذا المخبأ (وكانت هذه المومياء تبدو بالنسبة لهم قديمة جداً) ولو استطاعت هذه الجدران أن ترجع صدى الأصوات التي كانت تتردد داخلها وإذا استطعنا ولو بمعجزة أن نحصل على معرفة تامة من فم أحد هذه الزمرة التي اشتغلت هناك فياله من فصل رائع من فصول تاريخ التطور البشري.

لقد بدأ قلبي يخفق عندما وصلت إلى هذا التفكير! دفعت شمعتي ثانية ثم زحفت على طول الدهليز إلى أول حفرة ثم جذبت نفسي صاعداً إلى تلك الأضواء الحبيبة والبرودة النسبية في العالم الخارجي فوق الحفرة).

في أوائل عام 1800 فصاعداً كان علم الآثار لا يزال يتخذ صفة المغامرة والرومانسيَّة خصوصاً في مصر حيث كان كل شخص يرغب في الحفر يستطيع ذلك دون أي مانع أو عائق ولم يكن أحد يهتم بالثقافة أو المؤهلات المهنية ونتيجة لذلك فقد بدأ التجار ولاعبو السيرك وأساتذة الأدب وطالبوا اللهو والملذات يدلون بدلوهم بين الدلاء ويبدؤون بالحفر في رمال الصحراء الليبية أو خارج أبواب بلاد النوبة وهنا لنسمع تشارلز براستد يعطينا وصفاً شيقاً وممتعاً كيف كان يحصل ذلك.

«كان تعيين المواقع وإعطاء الأذونات بالحفر من اختصاص لجنة الآثار الحكومية التي كانت تجتمع كل سنة مرة واحدة فقط وكان الشرط الأساسي الذي يطلبونه من المنقب عن الآثار أن يعطي نصف ما يجده إلى الدولة ولكن إذا ظهر أن موقع التنقيب الذي اختير كان غير ذي أهمية فإن المنقب لم يكن لديه أي خيار إلا أن ينتظر سنة أخرى لاجتماع اللجنة لتسمح له بالتنقيب في مكان آخر.

وفي ذلك الزمن كان الأوروبيون يمنحون أقل المواقع أهمية بينما كانت المواقع الهامة تمنح لمنقبين عن الآثار وطنيين والذين كان يسمح لهم بالقيام بأعمال حفر عشوائية لأغراض تجارية بحتة.

وهذا الإجراء بالإضافة إلى الجو الحار الخانق بين شهري آذار وأيلول من الأسباب التي ساهمت في تأخير أعمال الحفر عدة سنوات.

لصوص القبور في القرن العشرين:

إن اكتشاف المومياءات الثلاث عشرة الباقية التي أخفاها الكهنة القلقون كان بفضل فيكتور لوريت الذي اكتشف قبر أمنحوتب الثاني 1898 وكانت المومياء الملكية في حالة ممتازة وكان واضحاً أن موقع ذلك القبر ظل منسياً لقرون مضت وقد نقل لوريت

الثلاث عشرة مومياء التي ظلت راقدة بسلام مدة ثلاثة آلاف عام إلى القاهرة ولكنه ترك الفرعون في ناووسه ووضع حرساً مسلحاً خارج القبر الذي كان يفتح للزوار ولكن هؤلاء الحراس أظهروا أنهم غير جديرين بالثقة التي أعطيت لهم ففي 24 تشرين ثاني عام 1901 بدأ اللصوص بإطلاق النار وهرب الحراس فقام اللصوص بالأعمال التي كان يقوم بها أسلافهم قبل ألوف السنين إذ أنهم مزقوا المومياء إرباً إرباً وسرقوا المجوهرات والغنائم وأخذوا قارباً كان من جملة كنوز القبر وهذه السرقة كانت سبب صعود رجل إلى المقدمة وهذا الرجل لم يكن قد عرف بعد وهو (هوارد كارتر) الذي صادفناه في الفصل الأول من هذا الكتاب ويصف تشارلز براستد ما حدث:

كان كارتر قد أتى إلى مصر قبل أكثر من عشر سنوات كرسام للآثار وقد ابتدأ يهتم بالحفريات تحت رعاية السلطات البريطانية والفرنسية وفي عام 1899 عين مفتشاً عاماً لأنصاب مصر العليا وبلاد النوبة ومقبرة طيبة. وكان نتيجة لاقتراحه وتحت إشرافه التام أن قام السيد دافس في عام 1902 باستكشافات كاملة منتظمة مبرمجة لجميع أرجاء وادي الملوك وقبوره.

ومع أن الحارس الرئيسي كان غائباً فقد حمله كارتر المسؤولية وطرده في الحال ثم قام بتحريات عن جميع المشتبه بهم وهكذا أرجع كل المسروقات ثم أحال الرجال إلى القضاء في الأقصر.

ولما كانت المحاكمة تجرى أمام محكمة وطنية مصرية فقد ظلت القضية تتأجل وتتلكأ بشكل متطاول يدعو إلى السأم وبالرغم من العوائق الفاضحة للعدالة والتهديدات المتكررة لحياة كارتر فقد ثبت أن الجماعات المتهمة كانت مذنبة دون أدنى شك ولكن القاضي أعلن براءتهم ورد التهم.

بهذه الأعمال فقد كارتر شعبيته في مصر وهكذا نقل إلى وظيفة تفتيش مصر السفلى والعليا ومركزه في (سقاره وقد خسر تلك الوظيفة أيضاً بعد شجار حدث بينه وبين مجموعة من السواح الفرنسيين السكارى وقضى ردحاً من الزمن وهو فقير

ومفلس وظل على هذه الحال حتى استخدمه (ديفس) (وقد رأينا أن كارتر ترك ديفس عندما وجد حامياً متجانساً معه نفسياً وروحياً في شخص اللورد كارنرفون).

لقد قام تيودور ديفس بأعمال الحفر لمدة اثنتي عشرة سنة متتالية باستمرار وقد كانت حفرياته في مكان فشل فيه ثلاثة منقبين قبله لأنهم كانوا مقتنعين أنه لم يبق شيء للاستكشاف في تلك الأمكنة. ونتيجة لهذا الحفر فقد اكتشف (ديفس) سبعة قبور أخرى وهي قبر تحوتمس الثالث والملكة حتشبسوت وجوجو وتوجو وقبر والد زوجة أمنحوتب الثالث وقبر حورمحب وسبتاح وستباح قبراً مجهولاً كان يخفي جواهر زوجة سبتاح وقبراً مجهولاً آخر كان يحتوي على مجوهرات وأموال أمنحوتب الرابع المنقولة وأموال زوجته تيجي.

عندما تنازل (ديفس) عن رخصة الحفر عام 1914 كان مقتنعاً كما كان كل من سبقه أن اكتشافاته في وادي الملوك هي آخر الاكتشافات. وكان يهز رأسه بعجب ودهشة عندما علم بمجيء اللورد كارنرفون وصديقه الإنكليزي الطموح (هوارد كارتر) ولو كان ديفس يعلم ما سوف يتم على يدي كارتر وكارنرفون من اكتشافات لما تنازل لهما عن رخصة الحفر أبداً.

تشريح جثة فرعون

كانت الجثة الموضوعة أمام الأستاذ (دوجلاس ديري) يوم 11 تشرين الثاني عام 1925 قد مضى عليها حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة. زاد التوتر في معهد التشريح في جامعة القاهرة حالما اقترب عقربا الساعة من التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً عند توجه ديري وهوارد كارتر إلى الجثة المغطاة بالبياض والموضوعة على طاولة التشريح فقد كان تحت الملاءات البيضاء جثة (توت عنخ أمون) كتب كارتر يقول:

(بدأ فحص المومياء الملكية في الساعة التاسعة وخمسٍ وأربعين يوم 11 تشرين الثاني وقد حضر العملية صاحب المعالي صالح عنان باشا وكيل وزارة الأشغال العامة وصاحب المعالي فؤاد بك الخولي حاكم إقليم قنا والمسيو بيير لاكو المدير العام لدائرة الآثار والدكتور ديري أستاذ التشريح في كلية الطب في الجامعة المصرية والدكتور صالح بك حمدي مدير الصحة العامة في الإسكندرية والسيد أ. لوكاس الكيماوي في دائرة الآثار والسيد هاري بورتون المندوب عن متحف العاصمة للفنون في نيوريوك وتوفيق أفندي بولس المفتش العام لدائرة الآثار العامة في مصر العليا ومحمد شعبان أفندي مساعد الأمين العام لمتحف القاهرة.

ولقد سبَّب هذا التشريح ضجة عظيمة وشديدة لأنه لم يحدث أبداً أن شرحت جثة قديمة جداً خصوصاً لفرعون حتى ذلك الوقت وقد كانت تنتاب دوجلاس ديري

الشكوك حول إنجاز التشريح إذ ربما كان خائفاً وقد كتب في مذكراته وتبدو في كلامه نغمة الاعتذار الرقيق :

«يمكنني أن أقول كلمة هنا حول الدفاع عن عملية كشف جسم توت عنخ أمون وفحْصِها فهنالك كثير من الأشخاص يعتبرون أن مثل هذا الفحص لا يخلو من طبيعة تدنيس للمقدسات وأنه كان من الواجب أن يترك الفرعون في مثواه الأخير دون أي إزعاج . ولكن إذا اعتبرنا السرقات المتكررة للقبور فيجب أن لا يغيب عن بالنا أنه عندما تحدث مثل هذه الاكتشافات فإنه إذا تركت أي أشياء ذات شأن في القبر فإنها تكون دعوة صريحة للصوص وإنَّ معرفة الناس أن هنالك أشياء ذات قيمة مخبوءة تحت الأرض لمسافة بضعة أقدام ، سوف تكون حافزاً لمحاولات كثيرة للحصول على هذه الأشياء ، بينما نجد أن استخدام الحراسة القوية يمكن أن يكفي ولكن لمدة من الزمن لمنع هذه المحاولات إلا أنه عند حدوث أي إهمال في اليقظة فذلك يؤدي إلى استغلاله في الحال» .

نقلت مومياء توت عنخ أمون بشكل طارئ إلى القاهرة لغاية التشريح كما نقلت جميع مومياءات الفراعنة ولكنه دفن ثانية في ناووسه في وادي الملوك وهو راقد قرب الأقصر حتى اليوم .

ويكمل كارتر روايته بقوله :

عندما أزيلت الزينات الخارجية والأغطية المزركشة بالذهب ظهرت مومياء الملك عارية وعليها الأغطية الخارجية البسيطة والقناع الذهبي .

وكانت الأغطية الأخرى تتألف من غطاء كتاني كبير مثبت في موضعه بواسطة ثلاث شرائط مصنوعة من نفس المادة (أي الكتان) بشكل طولاني واحدة في الوسط واثنتان في كل جانب وأربع شرائط عرضانية من نفس المادة وهي تتراوح في عرضها بين 2.5 و3.5 إنشات موضوعة فوق بعضها بشكل مضاعف وكان الشريط الأوسط يبدأ من منتصف البطن (وإذا توخينا الدقة نقول من أسفل الزور) وكان يمر تحت الشرائط العرضانية ويمتد فوق القدمين ثم تحت الأخمص وينعطف راجعاً تحت الطبقة

السفلي للشرائط العرضانية وكانت المومياء تضطجع على زاوية طفيفة وهذا يوحي بأنها تعرضت لصدمة ما، عندما أنزلت إلى الناووس وهنالك دلائل على أن بعض المراهم قد صبت فوق المومياء والتابوت قبل إنزالها إلى الناووس وكان السائل يستقر في مستويات مختلفة على الجانبين مما يوحي بميلان التابوت.

ونتيجة للحالة الرثة المتضخمة للأغلفة الكتانية المحيطة بالجسم فقد طلي جميع السطح الظاهر بشمع البارافين الذائب في درجة حرارة كافية لعمل غلاف رقيق على السطح وعندما تجمد البارافين مع اختراق طفيف للأغلفة الباليه تحته وأصبح بارداً حز الدكتور ديري شقاً طولانياً في أسفل وسط الربائط الخارجية إلى العمق الذي اخترقه زيت البارافين وهكذا استطاع أن يزيل الطبقة القاسية بكتل كبيرة ومع ذلك فلم تنته متاعبنا هنا إذ كانت الربائط واللفائف الكبيرة الملتفة قد أصبحت في حالة سيئة من التفحم والتلف وقد كنا نأمل عندما أزلنا طبقة رقيقة خارجية من أربطة المومياء بأن نحررها من النقاط التي تلتصق بها بالتابوت حتى يصبح من الممكن إزالتها بالتدريج ولكن خاب أملنا أيضاً في هذه المرة فقد اتضح أن الكتّانَ تحت الجثة والجسم نفسه كان مشبعاً بالمراهم التي كونت كتلة تشبه الزفت في اسفل التابوت بحيث التصقت تلك الكتلة بالتابوت وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه وأصبح من المستحيل دفعها إلا بالمخاطرة بإحداث ضرر جسيم وحتى بعد أن أزيل القسم الأعظم من الربائط بحرص كان من الضروري نزع المواد القاسية بواسطة الإزميل من بين أعضاء الجسم والجذع قبل أن يصبح بالإمكان رفع بقايا الملك.

وكانت المجوهرات وعددها (143) قطعة بمجموعها قد وضعت كل واحدة في وسادة كتانية صغيرة حتى لا تشوه الشكل الخارجي للمومياء وقد ظهرت المجوهرات بين طيات الربائط حالما حلت هذه، وكلما اقتربت الربائط الكتانية من الجسم كلما ظهر فسادها وانحلالها وكان باستطاعة أي إنسان أن يرى بوضوح أن جذع المومياء كان ملفوفاً بشكل تصالبي عرضاني فقد كان الذراعان والرجلان وعضو التناسل

ملفوفة كل منها لوحدها أولاً وبعد ذلك تشد وتلتحق ببقية الأربطة العامة الرئيسية في الجسم. وكانت اليد اليمنى موضوعة على الورك الأيسر واليد اليسرى على أضلاع الصدر اليمنى بشكل تتصالب به اليدان وأما أصابع الرجلين فكانت ملفوفة بالقماش وعلى كل منها غلاف من الذهب مشدود عليها. ويحيط بالرأس قطع مستطيلة ومستقيمة من الكتان وتحتها وجدت وسائد تاج يشبه تاج أوزريس أو تاج (أنتيف) ومن المعتقد أن الوسائد صممت لحماية وجه عنخ أمون من القناع الذهبي الموضوع فوقه وهنالك على وسادته تميمة بشكل نصف دائرة ولها عنق يظن بأنها تمثل دعامة أو سناداً للرقبة وهذه التميمة تستحق اهتماماً خاصاً لسببين: أولاً لأنها مصنوعة من الحديد وهو مادة لم توجد في أي مكان آخر في القبر. وثانياً: هنالك معنى رمزي من وجود الحديد وهذا ما يفسره الفصل (166) من كتاب الأموات:

«استيقظ من سباتك الذي أنت فيه، إنك سوف تنتصر على كل شيء يعمل ضدك، إن الإله سوف يتغلب على أعدائك فهم قد قضي عليهم ولم يعودوا موجودين قطعياً.».

ولقد سببت هذه التعويذة الحيرة لعلماء الأشعة وإنَّ النظرية التي تقول بأن الإشعاع له علاقة بلعنة الفراعنة القاتلة هذه النظرية سوف نناقشها في الفصل الحادي عشر القادم.

ولكن من المذهل أن نلاحظ هنا أن ما يمكن أن يفسر بحكم الإعدام المذكور في كتاب الموتى هذا الحكم قد تحقق بالنسبة لاثنين من العلماء حضرا عملية تشريح جثة الفرعون.

وجدت إحدى وعشرون تميمة «تعويذة» أخرى حول رقبة توت عنخ أمون ولكن من السهل أن نتكهَّن عن معنى هذه التعاويذ ودلالتها فإن عملها يتعلق بشكل أساسي بعملية الدفن وكانت عبارة عن وسائل تقنية لا تقل عن عمليات الزينة وحالما أزيلت قطع الكتان المستطيلة ظهر رمز (إيزيس) ورمزان ذهبيان من رموز (أوزيريس) وصولجان من الفلسبار الأخضر وبعدها ظهرت ثلاثة أقراط ذهبية

بشكل ورقة النخيل أو ثعبان ثم ظهر تمثال لإله الحكمة والسحر من الفلسبار الأخضر ثم رأس حيَّة من العقيق الأحمر ثم قرط يمثل الإله (حورس) من اللازورد الأزرق ثم تمثال لا نوبيس من الفلسبار وصولجان من نفس المادة. أما التمائم (التعاويذ) على الملاءة السفلية فكانت تشمل ثعباناً مجنّحاً له رؤوس بشرية وثعباناً ملكيّاً مزدوجاً وخمسة عقبان.

وهذه التمائم حول رقبة الفرعون الميت كان لها غرض واحد فقط وذلك بأن تحميه في رحلته إلى عالَمِ الأموات وكان للشعب ثقة عظيمة بهذه التمائم والتعاويذ وكان الإشكال الوحيد هو فيما إذا كان الكهنة (وهم الذين يمثلون الطبقة العليا المثقفة في مصر) يؤمنون بالقوى السحرية الخارقة لهذه التمائم يا ترى؟ أو إذا كانوا يعرفون عجز هذه التمائم في مثل هذه القضايا فهل كانوا يستعملون اكتشافات علمية لدعم قوة هذه التمائم؟.

وفي سبيل هذا الغرض وهو القوة الخارقة فليس من الضروري أن يوفر الإنسان نظرية علمية كنظرية الإشعاع أو الفيروسات فالمهم هو التأثير فقط وهنالك مثل غريب على هذا. وهو أنه كانت هنالك أكياس صغيرة من الرمل تباع في وادي (جوشيم) في بوهيميا كعلاج ضد الصداع والروماتزم، وذلك قبل وقت طويل من اكتشاف العلاج بالإشعاع وقد كان الأطباء يهزؤون من ذلك الهراء السحري المكتنف بالأسرار والغموض ولكن المرضى كانوا يدعون بأن تلك الأكياس الصغيرة كانت تساعدهم كثيراً فمن كان على صواب يا ترى؟ إن الجواب مثير ومذهل حقاً، فقد كان الصواب بالتأكيد ليس بجانب الأطباء فالرمل هذا كان يحتوي تراباً فيه عنصر الراديوم وفيه خليط من اليورانيوم والقار وهكذا كانت تلك الأكياس تطلق إشعاعاً بسيطاً والرادويوم يحل حمض البولة ويحوله إلى حمض الهايدركلوريك والأمونياك وهكذا فقد كان ذلك الكيس الرملي البسيط يعمل على إحداث تفاعلات فيسولوجية مع أنه كان يبدو أن ذلك مستحيل علمياً نظراً لأن المنهجية العلمية لم تكن قد اكتشفتْ بعد.

ولا نقصد بهذا القول أن نستسيغ الخرافات أو السحر بل على العكس نقصد أن نرتاد أساليب نستطيع من خلالها تفسير القضايا الغامضة التي يستعصي على العقل تفسيرها وفهمها.

والحقيقة أن اليونانيين جمعوا بين الأساليب الغامضة في التداوي وبين الإيمان المصري بالخوارق في علومهم. فبالرغم عن بعض الملاحظات النقدية للظواهر الطبيعية والبحث التحليلي لبعض الرجال مثل هيبو كراتيس إلا أن فكرة الشياطين المرضية التي أتت من مصر لعبت دوراً لا بأس به في آفاق الفكر اليوناني وهذا دليل على عظمة تأثير الثقافة المصرية في الشعوب الأخرى حتى بعد انحطاط الثقافة المصرية وكذلك نجد أن الطقوس الغامضة التي استعملتها الكهانة المصرية لم تمنع الكهنة من استعمال الاكتشافات العظيمة في العلوم الطبيعية تلك الاكتشافات التي سرعان ما نسيت تواً بعد معرفتها ولم تظهر إلا بعد أن استخرجت من بين أنقاض الزمن وبعد أن طغى عليها النسيان تلك الاكتشافات التي ربما كانت مدفونة في زوايا النسيان عبر القرون والعصور.

ما هو حرف /ت/؟

ظهرت إحدى وعشرون تعويذة (تميمة) وكان الدكتور (ديري) لا يزال يفك الربائط على الذارعين والساقين قبل أن يبدأ العمل في البقية وهنا ننقل ما قاله (كارتر) في دراسته لاكتشاف القبر والتي ظهرت في ثلاثة مجلدات؟

«وجدنا كلا الساعدين مكسوين بكثافة من المرفق حتى المعصم بالأساور الذهبية الرائعة سبعة على الساعد الأيمن وستة على الساعد الأيسر وهي تتألف من العقيق الأحمر وظهر من حجم هذه الأساور أنها كانت تطوق ذراعاً صغيرة جداً، ولم يدل أي واحد منها على أنه خصص للدفن مع الميت بل كانت تبدو جميعاً وكأنها أدوات شخصية تُلبَس خلال الحياة وكان كل إصبع وكل إبهام ملفوفاً بقطع من الكتان الناعم ومغلّفاً بغلاف ذهبي وعلى كل من الإصبع الثاني والثالث لليد اليسرى خاتم

ذهبي وهنا نصل إلى الأحشاء حيث وزعت عشرة أشياء وكأنها بشكل طبقات ففي الجانب الأيسر للربائط الخارجية القليلة كان هنالك تميمة بشكل Y مؤلفة من صفيحة ذهبية ثمينة ومعها صفيحة بيضوية ذهبية أيضاً وهما موضوعتان فوق بعضهما رأساً وإنَّ دلالة هذه التميمة بشكل Y ليس واضحاً فهنالك جسم مشابه مصور على توابيت المملكة المتوسطة يحمل كلمة تبدو أنَّها تعطي معنى (العصا) ولكن ربما أن الرمز يشكل قسماً من الكلمة الهيروغليفية بمعنى (الكتان) أو (الملابس) ولهذا فمن المحتمل أن تشير هذه الكلمة إلى الأربطة أو ربائط المومياء ولا تختلف عن هذه الكلمة المعاني التي ترمز إليها الصحيفة المعدنية البيضوية التي وجدت معها فقد كان المقصود منها تغطية الفجوة في جانب المومياء اليسرى التي كان المحنطون قد نزعوا منها الأحشاء الداخلية لحفظها وحدَها والشيء التالي الذي يلي هذه هو رمز بشكل (T) وهو مصنوع من صحيفة ذهبية تشبه رقعة الرسام كانت موضوعة على الرباط فوق الجانب الأيسر من البطن وامتدت حتى الجزء العلوي من الفخذ الأيسر وحسب معرفة المؤلف ليس لها مثيل ولا يعرف معناها تماماً.

وبالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أشياء نموذجيَّة للزينة مثلاً ثماني حلقات ذهبية حول البطن والفخذ والعضد. ثم وجدت طبقات من الربائط البالية تماماً وأيضاً ظهر حزام ذهبي مرصع بالجواهر وتحت الحزام ثبت بشكل مائل أظرف خنجر وأجمله رأته عين بشرية فقد كان مقبض ذلك الخنجر مزخرفاً بالذهب الأصفر الحبيبي وكانت شفرته من الذهب المقسى وبعد ذلك رفع الأستاذ (ديري) آخر الربائط وقد كان كل من حوله يراقب ما يفعله باهتمام وبأعصاب متوترة. يقول ديري: «كان جلد الرجلين شأن بقية الجسم ذا لونٍ أبيض رمادي وكان هشاً وتظهر عليه تشققات متعددة وبعد فحص قطعة منه وجد أنها لا تحتوي على الجلد فحسب بل على جميع الأجزاء اللينة حتى العظم الذي كان يظهر عاريا بعد نزع تلك القطعة عنه ولم يزد سمك الجلد والأنسجة تحته في هذه الحالة على ميليمترين أو ثلاثة ميليمترات».

ثم يتابع ديري وصف الأطراف.

«ظهرت الأطراف منكمشة وهزيلة ولكن حتى لو سمحنا بإسقاط مناسب لانكماش الأنسجة وظهور النحول والهزال الذي أنتجه هذا الانكماش فلا يزال من الواضح أن توت عنخ أمون كان ذا بنية ضئيلة وربما لم يكن قد تم نمو جسمه عند موته. وعند القياس وجد أن طوله كان خمسة أقدام و $4\frac{1}{2}$ إنش ولكن طبقاً لتقديرات الأستاذ (كارل برسون) وجد أن قامته كانت 1.676 متر أي 5 أقدام و 6 إنشات وهذا رقم قريب جداً من الحقيقة.

لقد تعرف ديري على الحقيقة وهي أن توت عنخ أمون مات وهو صغير السن وذلك عندما كشف القسم السفلي من عظم الفخذ فوجد أن العظم التام الضخم كان منفصلاً عن الساق ويتحرك بحرية (والعظم التام الضخم هذا هو جزء من العظام التي تتحجر وتتحول إلى عظم بشكل منفصل أي قبل العظام الأخرى وقبل أن يلتحم بالقسم الرئيسي) وفي عظام الأطراف يؤلف العظم التام الضخم الجزء الرئيسي في الأطراف العلوية والسفلية وفي سن الطفولة تكون هذه العظام متصلة بالعظام الأخرى بواسطة غضاريف تتحول إلى عظام صلبة أخيراً ويتوقف النمو.

وبكلمة أخرى يمكننا أن نعتبر حالة الغضاريف والتحامها مقياساً للسن. فعظم الفخذ السفلي يلتحم بالساق عادة في حوالي سن العشرين أما في النهاية العليا لعظم الفخذ فإن البروز المعروف بالرضفة الكبرى (هي نتوء في الجزء العلوي من عظم الفخذ) كان ملتحماً بالعظمة الرئيسية ولكن في الجانب الداخلي كان من السهل رؤية فجوة صغيرة تظهر سطوح الغضاريف الناعمة حيث لا يزال الالتحام غير تام وهذا العظم الكبير يلتحم في حوالي سن الثامنة عشرة وهكذا وطبقاً لما ظهر من عظام الأرجل فان توت عنخ أمون كان سنُّه فوق الثامنة عشرة ولكن أقل من العشرين عند وفاته وأما تشريح الذراع فقد تم بعناية لا تقل عن العناية التي بذلت في تشريح الرجل وأظهرت نفس النتائج التشريحية، فالجلد يميل إلى اللون الرمادي، والتحامات غضروفية. فقد كتب ديري في تقريره عن تشريح الجثة:

كانت رؤوس العضد التي تلتحم في حوالي سن العشرين لا تزال غير ملتحمَة ولكن النهايات السفلية كانت ملتحمة. وإن نهايات عظمي الكعبرة والزند في المصريين الأحياء تظهر التحاماً قليلاً أو حتى عدم التحام في معظم الأحوال حتى سن الثامنة عشرة وبعد هذا السن تبدأ بالالتحام بسرعة تقريباً. ويبدأ الالتحام الداخلي بعظم الزند ويتقدم بشكل عرضاني (جانبي) وبالتدريج يغلف الكعبرة وفي حالة توت عنخ أمون ظهر أن الالتحام بدا في عظم الزند ولكن الطرف الأقصى للكعبرة ظهر أنه غير ملتحم وكان يتحرك بحرية فمن وضع العظام الكبيرة هنا ظهر أن الملك كان في الثامنة عشرة عندما توفي فلم تكن أي عظمة كبيرة من التي يجب أن تلتحم في العشرين من العمر تظهر أي دلالة على الالتحام وهنالك دلائل تشير بأنه في مصر تميل العظام الكبيرة إلى الالتحام في زمن أبكر مما هو الحال في أوروبا.

إن علم تشريح الجثث وهو علم العظام يستطيع أن يمدنا بتفسيرات منفصلة حول السن والأمراض التي كان يصاب بها الرجال منذ قرون مضت ولكن هنالك حسابات احتياطية للأخطاء الحسية.

إن الجراح الفرنسي الشهير بول (بروكا) (1824 ـ 1880) الذي اكتشف مركز الكلام في المخ والذي سمي باسمه (بروكا) أدهش علماء التشريح المرضي في جميع أنحاء العالم عندما ادعى أن مرض (السفلس) كان موجوداً في أوروبا قبل اكتشاف أميركا. وحتى ذلك الوقت كان الاعتقاد السائد أن كرستوفر كولومبوس وبحارته هم الذين جلبوا هذا المرض إلى أوروبا عبر المحيط.

برهن بروكا على أن هذا القول لم يكن صحيحاً فقد فحص هياكل عظمية بشرية استخرجت من خرائب تأوي مرضى مصابين بالجذام كانت جماجمهم تظهر أعراض مرض (السفلس) بوضوح بهذا أظهر أن علم التشريح المرضي كان مقصراً في تخيله للموضوع.

لم يكن من أحد ليتجاسر بأن يشك بصحة ما وجده الجراح (بروكا) العظيم لو لم يظهر المؤرخ الطبي (ولهلم كرستنسين) الذي وصل إلى استنتاج مختلف كلياً عما

وصل إليه (بروكا) وكان هذا مدير متحف تاريخ الطب في كوبنهاجن منـذ عـام 1964 وقد فحص هياكل عظمية وجدت في جميع أنحاء أوروبا وأثبت بحثه التشريحي هـذا رأيه العلمي الأصلي.

فقد ظـهر السفلس لأول مـرة فـي أوروبـا حوالـي عـام 1500 فـهل كـان بروكـا مخطئاً؟ لـذا قـرر (مولـر كرستنسين) أن يراجـع أعمالـه ولـم يكـن هنالـك خطـأ فـي الاستنتاجات التي كـان الجراح الفرنسي قـد وقـع عليـها فقـد أظـهر فحـص الجمـاجم أعـراض مـرض السـفلس ولكـن العـالم أخطـأ فـي الاسـتنتاجات التــي كــان الجـراح الفرنسي قد وقع عليـها فقـد أظـهر فحـص الجمـاجم أعـراض مـرض السـفلس ولكـن العالم الدانماركي خطا خطوة إلـى الأمـام وعمـل شـيئاً فشـل فـي عملـه (بروكـا) فقـام بمراجعة الأعمار وتدقيقها. وهذا ما سبب عمل فضيحة في علم التشريح المرضي.

إذ إنَّه عندما استخرجتْ الجماجم السفلسيَّة من خرائب بناية يرجع عـهدها إلـى القرن الثالث عشر ظهر أن الهياكل العظمية يرجع تاريخها إلى الحقبة مـن عـام 1792 ـ 1818 وكان مـن الواضـح أنـها نقلـت إلـى الموقـع القديـم بعـد أن نبشـت القبـور بفعـل الحراثة ولاجتناب عمل ضجة واستياء بين أفراد الشعب نقلت إلى المقبرة القديمة. لقـد قضى عالم التشريح (ايليوت سمث) سـنوات فـي البحـث عـن الأمـراض التـي كـانت سائدة في مصر القديمة وقد كان منسجماً مع أبحاثه لدرجة أنـه نسـي أن مرضـاه كـانوا مجرد مومياءات ففي أحد الأيام وجد راكباً سيارة أجـرة وهـو يحمـل موميـاء تحوتمـس الثالث (1502 ـ 1448ق. م) وكان قد أخذهـا مـن المتحـف المصـري إلـى عيـادة طبيـب حيث قرر أن يفحص الجثة تحت الأشعة السينية).

وبعد أن فحص خمسمائة جمجمة وجدت عنـد الكشـف عـن آثـار الجيزة قـرر (سمث) أن المصريين كانوا يقاسون من أمراض اللثة كما هـو الحـال عندنـا وقـد بحـث (سمـث) عن أي تشويه عظمي سفلسي في عدد لا يقل عـن (25) ألـف جمجمـة دون أن يجد أية حالة سفلسية.

اكتشف العالم البكترولوجي الفرنسي (أرماند روفر) بعض البكتريا في بعض المومياءات التي كانت تستجيب للاختبارات الكيماوية. وكان هذا العالم يعلّم في جامعة القاهرة ويعمل كرئيس لهيئة الهلال الأحمر المصري وقد وجد أيضاً عدداً كبيراً بشكل غير عادي من البكتريا في الرئة والكبد وهذا يغاير ما وجده كيماوي في الدولة (الفرد لوكاس) وقد وجد (روفر) بيوض دودة البلهارسيا في كليتي مومياءين من الأسرة العشرين واستطاع أن يشخص حالة مرض رئة سوداء في أحد عمال المناجم من المصريين القدماء.

إن مثل هذا التشخيص الذي استخلص من أعضاء داخلية لأجسام محنطة نادرة جداً لأن الأعضاء الداخلية كانت ما تزال توضع في قوارير مقدسة وغالباً ما كانت تفقد أولا تحفظ حفظاً جيداً. وأما الأمراض الدورانية أي التي لها علاقة بدوران الدم فمن السهل تشخيصها ومعرفتها فقد مات الفرعون رعمسيس الثاني (1301 ـ 1234 ق. م) مثلاً بسبب تصلب الشرايين وهو سبب شائع لموت الكثيرين في ذلك الوقت وحتى الآن.

ومن الواضح أن الفحوص الأثرية تتطلب غالباً تعاون عدة علوم فإذا لم يجر أحد التحاليل على ما يرام فإن فرص الخطأ تزداد نسبياً وقد ثبت أن هذا القول صحيح بالنسبة لفحص مومياء توت عنخ أمون فقد كان جلد بطن توت عنخ أمون أقل تماسكاً من جلد رجليه وذراعيه فها هو الأستاذ (ديري) يقرر بعد تشريح الجثة ما يلي:

«لقد كان الجدار البطني منتفخاً من الجهة اليمنى وقد وجد أن سبب ذلك يعود إلى إدخال مواد لحفظ الجثة عبر تجويف البطن من الجانب الأيسر حيث يوجد شق التحنيط وهذه الفتحة التي لها مظهر مهلهل تبلغ في طولها 86 ميلمتر تقريباً وقد سحبت أحشاء الفرعون من خلال ذلك الشق ولم تحنط هذه الأحشاء مع الجثة ولكنها حفظت منفصلة في القبر. اعتقد المصريون القدماء أن الإله أوزيريس يزن قلب كل إنسان في يوم الدينونة ولهذا فيجب أن يحفظ القلب في قارورة خاصة. وبدلاً من

القلب كان الكهنة يضعون أحياناً جعلاناً وهذا يمثل خنفساء الروث وهي الحشـرة التي اعتقد المصريون بقداسـتها والتي كـانت أهميتـها الرمزيـة لا تقـل عـن أهميـة الصليـب بالنسبة للمسيحيين وإنَّ الأسباب التي دعتهم لإخراج الأعضاء سـوف يصيبـها الفسـاد والتلف بسرعة وهنالك سبب آخر وهو أنهم ينظرون بعين الاعتبار للرمزية التي تمثلـها هـذه الأعضـاء فـهي المنبه والمثير للجوع والعطـش ولـم يكـن يسـمح للأمـوات أن يصطحبوا هذه المثيرات في رحلتهم إلى العالم السفلي وهذا هو السبب في وضع تلك الأعضاء في أربع قوارير منفصلة وكانت أغطية هـذه القواريـر منحوتـة بشـكل رؤوس أبنـاء الإلـه (حـورس) الأربعـة وهـم امسـت (Amset) هـابي (Habi) ودوموتيـف (Daumutef) وكيبخسـينوف (Kebchsenuf) وصممـت بحيـث تـردُّ غائلـةَ الجـوع والعطش. وفي المملكة القديمة والمملكة المتوسطة كانت الأطعمة والشراب توضع فـي القبر مثل أباريق الخمر المصنوعة من الخشب والمرمـر بشكل الإوزّ المشـوي فضـلاً عـن صور مصغرة عن أدوات المطابخ والمخابز.

ثم أصبح شعب المملكة الوسطى والحديثة يعتقد أن إزالة الأعضاء الداخلية مـن البطن تحسِّن درجة حفظ الجسم وتحنيطه وما أتى زمن توت عنـخ أمـون إلا وأصبحـت أجسام الموتى تفتح وتزال منها أعضاؤها الداخلية قبل عملية التحنيـط ولكـن لـم يكـن الأمر دائماً بهذا الشكل فإن أفضل المومياءات التي وجدت في معبد أمنحوتـب في (دير البحري) لم يظهر بها أي شق أو فتح في البطن وكانت ترجع في تاريخها إلـى الأسـرة الحادية عشرة (2050 ـ 1991ق. م) ومع ذلك نجد أن شق الجثة وإزالة محتويات البطـن صار مألوفاً ابتداءً من الأسرة الثانية عشرة فصاعداً.

ظهر أنه من الصعوبة بمكان تعرية رأس توت عنخ أمون فقد كـان علـى (ديـري) أن يتقدم بالعمل بحذر لكي يتأكد من عدم تشويه الوجه الذي كان الجميع يأملون بـأن يكون محفوظاً فـي حالـة حسـنة وكلمـا قطعـت ربـائط أكثـر مـن رأس الفرعـون كلمـا وضح شكل الرأس وهو رأس طالما لوحظ في الرسوم والتماثيل في القبـر وكـان تـوت

عنخ يملك قذالاً (ما بين الأذنين من مؤخر الرأس) تام النمو وهذا ما لاحظه علماء الآثار بالنسبة لقذال عمه أخناتون.

كتب كارتر يقول:

بعد إزالة بضع لفائف من الأربطة كشف إكليل من قماش مرصع بالجواهر يحيط برأس الفرعون تماماً وهو غاية في الجمال عصابة بسيطة حول الرأس، أما تصميمه فهو عبارة عن شريط ذهبي مزين بحلقات متماسة متصلة بعضها ببعض وهي من العقيق الأحمر وبها أزرار رقيقة من الذهب مثبتة في وسطها وفي مؤخرته قرصٌ بشكل قوس من الأزهار تدلى منه ناتئان بشكل شريطين ذهبيين مزيّنين بنفس الطريقة وعلى جانبي العصابة توجد زوائد من نوع أعرض ولكن عليها أقراص ضخمة ملتصقة من الجوانب الأمامية ثم وجدت شارة السلطة على مصر العليا ومصر السفلى منفصلة على الفخذين الأيمن والأيسر بالتوالي ولما كان جسم الملك مسجى في الناووس من الشرق إلى الغرب بحيث إنًّ رأسه كان متجهاً إلى الغرب وهكذا فقد كان ثعبان بوتو المقدس على يساره ونسر نخيبين على يمينه. وهاتان الشارتان كانتا في وضع يمثل الشكل الجغرافي تماماً (مصر العليا ومصر السفلى) وهنالك كثير من الأقوال حول ما يرمز إليه هذا الإكليل من معانٍ فهو لم يكن بالتحديد تاج الملك الذي كان جميع الفراعنة يلبسونه ولكن كان من النوعِ الذي يصنع لكل فرعون على حدة فهنالك حقيقة واضحة وهي أن الإكليل كان يرمز إلى أكثر من كونه زينة فوق رأس الملك فأوراق البابيروس التي ترجع إلى عهد سحيق ولكن معلوماتها موثوقة تحتوي على تراتيل تمجد الإكليل الذي - كما تقول التراتيل - «يلمع بشكل رائع فوق جبهة إله الشمس جبهة الإله الأرضي ويجلب الخراب لأعدائه».

إن أوراق البابيروس هي أقدم وثائق مكتوبة خلفها الجنس البشري فقد استعمل المصريون هذه اللفائف منذ الألف الثالث قبل الميلاد وأقدم رسالة محفوظة حتى زمننا هذا ترجع في تاريخها إلى حوالي 2400 ق.م وفيها يتذمر جندي مصري من ملابسه العسكريَّة المهلهلة.

ولعمل لفائف البريد كانت سويقات البابيروس تقطع قطعاً مستطيلة وتثنى وتوضع بعضها فوق بعض وبعد ذلك تضغط وكانت المادة اللزجة في النبات تستعمل في إلصاق العروق والألياف وكانت الأصداف وعظام الأسماك تستعمل في صقل أوراق البردي وبعد ذلك تصبح جاهزة ليكتب عليها بأقلام القصب.

وكان المصريون يشحنون أوراق البردي إلى بلاد اليونان وآسيا الصغرى وإيطاليا وإسبانيا. وكان القوط الغربيون واللومبارديون والفندال يكتبون على أوراق البردي وعرفت أوراق البردي التي وجدت مع الرزم الضخمة والبالات في القبور في فترة عصر (الباروكة) وتستعمل اللبان أو البخور.

ولم يحدث إلا في عام 1788 حين أمر الكادرينال الإيطالي (ستيفانو بورجيا) بعمل فحص عملي لأوراق البردي التي جلبها له أحد الرحالة من مصر.

حدث هذا كله قبل حملة نابليون على مصر وقبل أن يصبح بحث الآثار المصرية علماً قائماً بذاته وقبل أن يحل شامبليون رموز الكتابة الهيروغليفية ولكن لحسن الحظ فإن العالم الدانماركي (نيكولاس سكو) الذي فحص أوراق البردي حسب أمر الكادرينال لم يكن هذا العالم بحاجة لفهم الكتابة الهيروغليفية وذلك لأن المخطوطة التي كانت بين يديه كانت مدونة باللغة اليونانية ويرجع تاريخها إلى عام 192ق.م وهي عبارة عن قائمة بأسماء سكان قرية الفيّوم الذين اشتركوا في بناء السدود والقنالات المقامة هناك وهذا هو أحد الأسباب التي جعل الاهتمام بالنصوص المصرية يقل تدريجياً ثم يتلاشى بسرعة.

لقد قدم جامع الآثار الروسي فلاديمير جولينشف الإكليل المصنوع من البردي إلى أودلف إيرمان ليفحصه فحصاً أولياً وكان قد اشتراه من أحد الأشخاص في روسيا وهذا بدوره قد اشتراه من مصر وكانت تلك القطعة الأثرية في حالة ممتازة ومن المحتمل أنها قد دارت في رحلة طويلة من تلك الرحلات التي كانت مصير كثير من الكنوز المصرية القديمة وقدرَها بعد أن استولى عليها لصوص القبور البارعون الماكرون وأخرجوها من الأعماق.

لا نعلم اسم أول مخترع للبردي ولا تاريخ هذا الاختراع ويدَّعي علماء الآثار أن ورقة البردي التي كان طولها 175 سنتيمتراً والمصنوعة من (15) قطعة منفصلة والمكتوبة على وجه واحد فقط يرجع تاريخها إلى القرن السابع عشر ق. م حين كتبها أحد كهنة (سبق) الذين كانوا يعبدون الإله التمساح في الفيّوم.

وقد استنتج إيرمان أن اسماً رمزيّاً يعود إلى الفرعون ويستشهد على رأيه بدليلٍ أنه لم يذكر اسم (الإله) في كامل تلك الورقة الطويلة ذات ستّةِ الأمتار مرَّة واحدة.

كان المصريون القدماء يدينون بالتبجيل والاحترام للأكاليل وهذا يجعلنا نستنتج أن للأكاليل قوى سحرية خارقة فالثعبان الذي كان يوضع على الإكليل من المفروض أن له قوة سحق الأعداء وعلى الأقل نجد هذا التكرار متواترا في عدة مصادر والسؤال المطروح هو: ما نوع هذه القوة؟ هل كان الإكليل مصدراً للنشاط الإشعاعي فإذا صح هذا فإن هذا سيكون تفسيراً للظاهرة الغريبة وهي أن كثيراً من الناس الذين تورطوا في كشف قبر توت عنخ أمون قد ماتوا في ظروف غامضة فهو الفرعون الوحيد الذي كان يرتدي الإكليل عند اكتشاف القبر.

خلال عملية تشريح الجثة عثر الدكتور (ديري) على قبعة كتانية دقيقة الصنع وعليها غرز من الذهب واللؤلؤ وكانت مناسبة ليرتديها رأس حليق الشعر وهنا يكتب هوارد كارتر:

«إن إزالة الربائط النهائية التي كانت تحمي وجه الفرعون احتاجت لأقصى درجات العناية والانتباه وذلك لأن حالة الرأس المتفحمة كانت تهدد بإحداث أعظم الأضرار بتقاطيع الوجه وقد كنا ندرك مدى الأهمية والمسؤولية الملقاة على عواتقنا وبعد لمسة فرشاة ناعمة سقطت آخر قطع بالية هشة من القماش فإذا بوجه هادئ صافٍ عليه سمات الشباب.

ويبدو أن المراهم التي صبت فوق المومياء قد أحدثت تفاعلات كيماوية وهذه بدورها أنتجت حرارة ولهذا فإن جلد الفرعون قد أصبح محترقاً وعليه بقع سوداء».

وهنا نعود إلى تقرير الدكتور ديري عن تشريح الجثة:

«كانت السداداتان اللتان تسدان فتحتي المنخرين مصنوعتين من قماش منسوج ومنقوع (بالراتنج) وكانت العينان مفتوحتين جزئياً ولم تُمسا أبداً على أي حال وكانت رموش العين طويلة جداً وقد أصبح الجزء الغضروفي من الأنف منبسطاً جزئياً بفعل ضغط الربائط وكانت الشفة العليا مرتفعة قليلاً إلى الأعلى وظهرت القواطع الوسطى وكانت الأذنان صغيرتين وحسنتي التكوين وشحمتا الأذنين مثقوبتين بثقوب قطرها حوالي 7.5 ميلمتر وجلد الوجه لونه رمادي وهو مشقق وهش وفجوة الجمجمة فارغة ما عد بعض الراتنج الذي أدخل إلى الجمجمة من خلال الأنف على طريقة التحنيط في تلك الأيام بعد أن أُخرِجَ الدماغ من نفس الطريق.

ولقد ظهرت موجة من الانفعال في تلك الأيام بسبب الاعتراف بوجود إصابة في وجنة الفرعون اليسرى والغريب أن كارتر لم يذكر شيئاً عن هذه الإصابة إلا أن الدكتور ديري كتب يقول باقتضاب:

«هنالك على الوجنة اليسرى، تماماً أخدود مستدير يشبه أخاديد الحرب وحول محيط هذا الأخدود المنتفخ من طرفيه يبدو الجلد فاقداً لونه وليس من المستطاع معرفة طبيعة هذا الشق؟».

كيف مات توت عنخ أمون؟

إن اللغز حول جرح رأس توت عنخ أمون لم يحلّ إلا بعد أربعين سنة عندما فحص الجثة أحد أساتذة التشريح في ليفربول وهو الدكتور رونالد هارسون وقد قام بالفحص بواسطة آلة للأشعة السينية يمكن نقلها من مكان لآخر ولم تكن هذه أول مرة تفحص بها جثة الفرعون ولكنها كانت المرة الأولى التي تفحص بها الجثة بشكل كامل صحيح وبعد تصوير خمسين صورة تحت الأشعة السينية أثبت التشخيص التالي:

«لقد مات توت عنخ أمون ميتة عنيفة فقد كان الجرح في الجانب الأيسر من جمجمته نتيجة لسقوط أو ضربة وكان سبب الموت الحقيقي هو جلطة دموية حدثت تحت السحايا أي (الأغشية الدماغية) وهذا هو الخبر اليقين بالنسبة لموت الفرعون المبكر والذي اختلف العلماء حوله فمنهم من اقترح أورام الدماغ أو مرض السل، والتهاب الشرايين كأسباب لهذه الوفاة».

وقد استطاع مساعد الأستاذ هاريسون وهو الدكتور (كونوللي) أن يحدد الزمرة الدموية لتوت عنخ أمون وذلك بمساعدة نسيج خلوي بقدر الدبوس وقد وجد أن زمرته الدموية A_2 ومن الزمرة الثانوية M.N وهذا يظهر أن دم توت عنخ أمون كان من الزمرة النادرة ولهذا فمن المحتمل جداً أنه قد انحدر من عائلة قديمة عريقة في الأرستقراطية.

إن زمرة الدم النادرة A2 تثير فرضية أخرى أيضاً فقد ادعى كارتر أن أكثر ما يلفت النظر بالنسبة لوجه توت عنخ أمون هو شدة شبهه بوجه عمه أي والد زوجته (أخناتون) كما ظهر من تماثيلهما وقد افترض كارتر الذي لم يكن يعلم ن توت عنخ أمون وأخناتون يحملان نفس زمرة الدم أنَّ الأول وهو توت عنخ أمون الذي لم يكن يعرف أي شيء عن أصله وقراباته كان ابناً غير شرعي لأخناتون. وذلك لأن زوجة أخناتون الشرعية لم تَلِدْ إلا بنات وتزوج فرعون المستقبل إحداهن وقد كان في الثانية عشرة عندما تزوج أخته من أبيه. مع العلم أن عمه أي أبا زوجته كان أباه أيضاً. وهكذا نجد أن هاريسون وكونوللي استطاعا أن يبرهنا في عام 1959 ما كان مجرد حدس وتخمين في عام 1925.

اشترك ألفرد الوكاس وهو الكيميائي الموظف في دائرة الآثار في الحكومة المصرية في فحص الجثة مع الدكتور ديري ولكن النتائج التي توصل إليها لا يمكن الاستفادة منها في إيجاد تفسير لقضية لعنة الفراعنة فلقد كتب مثلاً حول الفطور التي وجدت في القبر وعن تأثير هذه الفطور على الجزئيات العضوية للغشاء وعلى عظام المومياء ولكنه ادَّعى أيضاً أن القبر خالٍ من الجراثيم.

إن وجود الفطور الكثيفة على جدار القبر والعدد الكبير من الحشرات التي وجدت ميتة على الأرض لابد أن لها دلالتها لتأييد نظرية السموم والتسمم التي اقترحت في الفصل العاشر من هذا الكتاب وقد عين عالم الحشرات في الجمعية الزراعية الملكية في القاهرة وهو (أ. الفيري) نوع بعض هذه الحالات وأنها مسببة عن خنافس صغيرة تعيش على بعض المواد العضوية المتعفنة وقد وجد هذا النوع من الخنافس في مصر منذ ثلاثة آلاف عام وحتى الآن. وفوق ذلك فقد وجدت ثقوب في التابوت الخشبي تشبه الثقوب الناتجة عن سوس الخشب وأخيراً وجدت العناكب التي تركت خلفها شبكات وأنسجة كبيرة.

وجدت الأزهار في قبر توت عنخ أمون كما هو الحال في قبور الفراعنة الآخرين وكانت عبارة عن نباتات غريبة فمثلاً كان هنالك الكرفس البري بأوراقه الملفوفة بشكل أكاليل وقد وجدت مثل هذه الأكاليل في قبور أمنحوتب الثالث والمهندس المعماري (تشا) فضلاً عن قبر لشخص مجهول في طيبة من عهد الأسرة الثانية والعشرين (950 ق. م) وربما كانت أروع باقة من الأزهار هي التي وجدت في قبر توت عنخ أمون في داخل الناووس فقد كانت عبارة عن مجموعة من الأزهار قطفتها أرملته البالغة الخامسة عشرة من العمر من ضفاف النيل وأرسلتها كتحية أخيرة لحبيبها الراحل. وكانت الجثة نفسها مزينة بنباتات مختلفة فعلى رأس التابوت الثاني وجدت أكاليل من زهر الزيتون وأوراقه وقد وصف الأستاذ (نيوبري) هذه الأكاليل بأنها عبارة عن رمز للتبرئة والغفران الإلهي من الإثم يعتبر المرء بفضلها صالحاً وجديراً بأن ينعم بالخلاص.. وقد أفرد لهذه الأكاليل فصل خاص من كتاب الموتى ومنذ بداية الإمبراطورية الجديدة كانت الأكاليل توضع على التابوت بينما كان الكهنة يرتلون تراتيل دينية خاصة بالتجسيد (وهو اتحاد الألوهية بالناسوتية).

وعلى الكفن الثاني وجد إكليل منظم من الزهر ووجدت باقة من الزهر في الكفن الثالث أيضاً وقد اختلفت درجة قدرة الأزهار على البقاء فبعضها كان يستحيل إلى غبار عند أقل لمسة وبعضها احتفظ بلونه بحيث أمكن تميزها ومعرفة نوعها بسهولة.

وجدت أزهار الذرة بكثرة في قبور الفراعنة وذلك لأن الأزهار كانت منتشـرة على الضفاف في الشريط الضيق الواقع بين نهر النيل والصحراء وقد استطاعت أيضاً أزهار اللوتس وأزهار نباتات البابيروس ـ وهما رمزا الإمبراطورية ـ، تزيين القبر والتابوت.

تفاحة الشيطان الغامضة:

هنالك نبتة واحدة لا تنمو في مصر بل وجدت في قبر توت عنخ أمون وفي قبور الفراعنة الآخرين ولهذا فإن أصلها بقي غامضاً وهذه النبتة هي نبتة أليبروح أو اللفاح وهي من الفصيلة الباذنجانية وتظهر في الرسومات على الجدران في قبور العائلة الثامنة عشرة سلال من هذه الفاكهة اللامعة الصفراء اللون الصغيرة الحجم وهنالك اختلاف بالنسبة لما يعنيه وجود هذه الفاكهة في السلال وذلك لأن هذه الفاكهة كانت معروفة بأنها مثيرة للشهوة الجنسية وأن أقرب بلد تنمو فيها هذه الفاكهة هي فلسطين وقد لاحظ العالم هنري (تراسترام) في كتابه التاريخ الطبيعي للكتاب المقدس أن العرب في فلسطين يدعون هذه الفاكهة (تفاح الجن) فإذا أخذت هذه الفاكهة بشكل طبيعي فهي مقوية ولكن إذا أخذت بكثرة وبكميات وافرة تسبب نوعاً من الخبل أو الجنون المؤقت ينتج ردود فعل تشبه ما تنتجه المخدرات المسببة للهلوسة والهذيان.

وقد اعتقد الأستاذ نيوبري أن تفاح الجن الذي وجد في القبور وشوهد في الرسومات مماثل لفاكهة تدعى فاكهة (ديدي) وهي غالباً ما تذكر في كتابات المملكة الحديثة وكانت تستعمل في جزيرة النيل قرب أسوان وهي جزيرة (الفيله ـ الفنتن) كمادة مخدرة مثل الأفيون أو الحشيشة.

وفي الحقيقة، إنَّه لا الفحوص الكيماوية ولا الفحوص التشـريحية لمومياء أخناتون قد ألقت أي ضوء أو ساهمت في زيادة معلوماتنا بعلم الآثار لهذا الموضوع ومن الأفضل من وجهة النظر العلمية البحتة وخدمة لتقدم العلم المختص لو أن قبر توت عنخ أمون قد اكتشف في الخمسينات أو الستينات من هذا القرن فأبحاث الأستاذ هاريسون تظهر الحقيقة بوضوح فمع أنه كان عليه أن يعمل من خلال مومياءات تالفة

جزئياً إلا أن مكتشفاته لها دلالات علمية أعظم مما توصل إليه جميع العلماء الذين اشتغلوا قبله قاطبة.

وعلى كل حال فقد كان لتشريح جثة توت عنخ أمون في معهد التشريح التابع لجامعة القاهرة في 11 تشرين الثاني عام 1925 نتائج مأساوية فقد مات ألفرد لوكاس بعد ذلك التاريخ بقليل بسبب هبوط قلبي مفاجئ وبعد ذلك بقليل مات الأستاذ (ديري) بسبب قصور في دوران الدم.

لقد كانت وفاة عالمين عالجا مومياء الفرعون بشكل سريع سبباً في إثارة الاهتمام وحتى الذعر بين العلماء في جميع أنحاء الكرة الأرضية وكانت وفاتهم الفجائية سبباً في جعل أولئك المتشككين الذين اعتبروا لعنة الفراعنة ضرباً من ضروب الصدف يستيقظون وينتبهون.

ملوك وسحرة

أي نوع من الرجال كان توت عنخ أمون ولماذا حصن قـبره بشكل جعلـت لعنة الفراعنة فيه أشد تأثيراً منها في قبر أي فرعون آخر؟ .

قال هوارد كـارتر عـن الفرعـون الـذي مـات صغيراً : إن الشـيء الوحيـد الـذي يستحق الذكر في تاريخ حياة هذا الفرعون هو أنه مات ودفن وهذا الحكـم بـالطبع هـو من جانب واحد فقط إذ إنّ توت عنخ أمون لم يكن دولاباً ضخماً فـي عمليـة التـاريخ المصري ولكن الدواليب الصغيرة لا تقل عن الكبيرة في أهميتها .

لقد انتهت الأسرة الثامنة عشرة للمملكة الحديثة بتـوت عنـخ أمـون وإنَّ تقسيم التـاريخ المصـري إلـى السـلالات الثلاثـين وترتيـب الـ 360 فرعونـاً مصريـاً والملـوك الأجانب في أشكال سلالية ، يرجـع الفضـل بـه إلـى الكـاهن المصـري (مـانيثو) الـذي كتب باللغة اليونانية عام 305 ق . م وقد عدد مانيثو ثلاثين سلالة بين (مينا) 3200 ق . م والإسكندر الكبير عام 332ق . م وهذا يشـمل المملكـة الوسـطى والمملكـة الحديثـة (أو الإمبراطوريَّة) وأخيراً الفـترة المتـأخرة التـي تبـدأ بسـاميتك حوالـي (715ق . م) لقـد استمرت المملكة القديمة من عام 2850ق . م حتى نهاية عصر العمالقة عـام 2025ق . م وقَدْ شهدت هذه المملكة فراعنة عظاماً استلموا سلطة مثـل (زوسـير) وخوفـو وخفـرع ومنقرع وأوناسي وتيتي وبيبي أما المملكة الوسطى فقد بـدأت بحكـم منتوحوتـب عـام 2025ق . م وانتهت بالأسرة السادسة عشرة وإنهاء حكم الهكسوس ويضع المؤرخـون

بداية الإمبراطورية حوالي عام 1610ق. م وانتهت بالعائلة الرابعة والعشرين في عام 715ق. م وإنَّ معظم الشهادات التاريخية التي نعرفها تأتي من خلال تسعمائة السَّنةِ هذه وفي هذه الفترة نرى فراعنة يحملون أسماء أمنحوتب تحوتمس ورعمسيس يطبعون بصماتهم على ذلك العصر.

إن هذه التقسيمات السلالية ليست دقيقة تماماً ولا تزال موضع تعديلات من قبل المدارس العلمية الحديثة وفي العصور القديمة كان المصريون القدماء يعدون الزمن طبقاً لسنوات حكم الإمبراطور عليهم وكانت السلالة الجديدة تبدأ عندما تندثر عائلة ملكية قديمة وتحل محلها عائلة جديدة.

تعدد الزوجات عند المصريين:

وكما ذكر (أدولف إيرمان) و(هيومان رانكي) كان تعدد الزوجات عملاً مقبولاً في مصر القديمة مع أنه لم يكن في حكم القانون فنحن نعلم أن (تميني) وهو أحد وجهاء مصر العليا العشرة كان متزوجاً من امرأة تدعى (نيبيت) وقد أنجب ولدين وخمس بنات ثم تزوج امرأة أخرى تدعى (هينوت) وأنجب منها ولداً واحداً وثلاث بنات ولم تكن الزوجتان تتخاصمان أبداً فقد سميت (نيبيت) إحدى بناتها باسم (هينوت) بينما سميت هينوت إحدى بناتها بدورها (نيبيت) وكان باستطاعة المصري القديم أن يتزوج عدة نساء وذلك لأنه لم يكن هنالك قانون للزواج في مصر بل كان يعقد عقد الزواج فقط وكان الرجل عادة يتزوج وهو في الخامسة عشر أما البنت فكانت في الثانية عشر أو الثالثة عشرة. وكان العقد يشمل (سنة للأكل) وهي سنة تجربة يمكن فرط الزواج دون أي رسميات في نهايتها وكانت المحظيات والخليلات وأطفالهن يعشْنَ في الحريم ولم يكن لهن أي حقوق من أي نوع كان. ومن المفروض أن يكن جميلات ويحسنَّ الرقص والغناء أيضاً.

وكان لبعض الفراعنة عدة زوجات شرعيات. فإن (تافتيرا وميرغموت) الزوجة الأولى لرعمسيس الثاني مثلاً لم تكن أم ولي العهد بل كانت زوجته الشرعية الثانية

(ايسي نوفري) هي التي أنجبت ولي العهد وقد تزوج رعمسيس الثاني كلا الزوجتين في نفس الوقت وأخيراً رحبت الزوجتان بزوجة ثالثة وهي ابنة ملك الحثيين التي تزوجها الملك المصري لأسباب سياسية بعد أن ساد السلم بينه وبين والدها. وقد كانت مثل هذه الارتباطات الزواجية السياسية عادية وهكذا تزوج الأمير (نحريري) الفتاة (شيتي) وهي وريثة الإقليم السادس عشر وخلال جيلين ازدادت أملاك (نحريري) ثلاثة أضعاف ونحن نعلم أن زواج شمنهوتب لم يكن ارتباطاً حميماً إذ كان قلبه متعلقاً (بزانا) وهي خازنة بيت مال فرعون.

وكان يهم المصريون القدماء أن يبقوا العلاقات السلالية الدموية نقية وصافية وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت زواج الأخوات شائعاً خصوصاً بين الفراعنة وحتى الآلهة لم يشذوا عن هذه القاعدة (فاوزيريس) قد تزوج أخته (ايزيس) و«ست» قد تزوج أخته (أخت أصبحت أخيراً مرادفة لكلمة خليلة أو (حبيبة) وهذا ما جعل حل غموض العلاقات المعقدة العائلية أكثر صعوبة.

ولم يتمتع الفراعنة بأية حقوق شرعية خاصة فعدا عن القضايا الدينية كان الشخص العادي يستطيع أن يتصرف كالفرعون تماماً وهذا ينطبق على الزواج أيضاً.

وكان هنالك في القصر امرأة واحدة تدعى الزوجة الشرعية أو (سيدة القصر) وكما كان يحق للفرعون اقتناء محظيات أو خليلات من الحريم فإن المواطن العادي يحق له هذا بشرط أن يكون قادراً على ذلك ورغم ذلك فإن الوضع الاجتماعي للمرأة في مصر القديمة لم يكن أقل من مثيلاتها في الحضارات الأخرى فمثلاً حتى في أقدم الصور المصرية نرى الرجل والمرأة في نفس الحجم إلا أن الأطفال والخدم كانوا يصورون بحجم أصغر.

هنالك ورقة بردي محفوظة في (ليدن) في هولندة وهي تعطي وصفاً حقيقياً للحياة العائلية في مصر القديمة فهي عبارة عن رسالة من أحد قواد الجيش من ممفيس توفيت زوجته وهو بعيد عنها وقد أصبح مريضاً جداً بعد وفاة زوجته ورغم أن (كا)

وهي الروح المسؤولة عن زوجته وعن حماية جميع الموتى المصريين في رحلتهم إلى العالم السفلي هي التي أرسلت له هذا المرض. ولذا وضع هذه الرسالة لزوجته في قبر شخص آخر وهو يقول في تلك الرسالة:

«ما هو الشر الذي فعلته لي حتى أجد نفسي في هذه الحالة التعيسة.

ماذا فعلت حتى تغيظينني من حيث لم أسبب لك أي ضرر وأنا زوجك؟ وحتى هذا اليوم أخفي ماذا؟ مع أنني سوف أحاسب على كلماتي التي تفوهت بها أمام الآلهة التسعة التي تجلس في الغرب وبعد ذلك سوف تقضي بيني وبينك. ماذا فعلت لك؟.

لقد أصبحت زوجتي وأنا شاب صغير وبعد ذلك تقلدت مناصب ولم أسبب لك أي حزن ولكنك لم تتركيني أنعم بأية سعادة، إنّي أدعوك إلى الحساب وعندها يبين الحق من الباطل.

تذكري عندما بدأت أدرب ضباط الفرعون وسائقي عرباته فقد جعلتهم يلقون بأنفسهم أمامك وقد جلبوا الهدايا وألقوها تحت قدميك إني لم أخف عنك أي سر من أسراري طيلة حياتي ولم أتصرف تصرف المراهقين أو أذهب إلى بيت أية امرأة أخرى في حياتي ولم أستمع لوشاية أي شخص ضدك. وعندما نقلت إلى مركزي الحالي كان من المستحيل علي أن آتي لعندك كما كنت أفعل سابقاً وهكذا أرسلت لك زينتي وخبزي وثيابي وقد كان كل هذا لك. إنك لا تعرفين كم من الخير أديته لك وكنت أسأل دائماً عن حالتك وعندما مرضتِ جعلت رئيس الأطباء يأتي ليراك وقد حضر لك أحد الأدوية وعمل كل شيء طلبته منه، وعندما سافرت جنوباً مع الفرعون كانت أفكاري كلها دائماً معك وقضيت ثمانية أشهر دون أن أتناول أي طعام أو أي شراب كإنسان حقيقي.

وعندما رجعنا إلى ممفيس طلبت من الفرعون أن يسمح لي بالقدوم لرؤيتك وقد حزنت كثيراً أنا ورجالي عندما علمت بنبأ وفاتك وقد قدمت ملابسَ الكتان لكي تلفي بها وخطت لك أفضل الثياب ولم أترك شيئاً جيداً لم أقم بعمله من أجلك.

والآن وما زلت وحيداً زهاء ثلاث سنوات ولم أر أي بيت آخر مع أن هذا ليس لائقاً بالنسبة لرجل مثلي ولكنك لا تستطيعين التفريق بين الخير والشر، إنّ أحداً ما سوف يقضي بيني وبينك وأما بالنسبة لأخواتك فإني لم أذهب إلى أي واحدة منهن».

العلاقات في الأسرة الثامنة عشره:

كانت علاقات الزواج والارتباطات العائلية معقدة في زمن الأسرة السابعة عشرة والثامنة عشرة فقد بدأت الأسرة السادسة عشرة بالفرعون سكنجن ـ رع الذي اتخذ أهوتب زوجة له وقد تزوج ابنه أحموس (طارد الهكسوس من مصر) من أخته (أحمس نفرتيتي) وأنجبا بنتاً اسمها (أحمس) تزوجت من أخيها تحتمس وتكرر بذلك الزواج من الأخت وكان لأخناتون (وهو أمنحوتب الرابع) ثلاث بنات أكبرهن ميرياتون تزوجت من (ساكيري) خلال حياة أخناتون (وقد اشترك ساكيري في الحكم مع أخناتون مدة قصيرة ولكنه مات قبل عمه)، وأما الابنة الثانية لأخناتون وهي ماكيناتون فقد ماتت أيضاً وهي صغيرة وهكذا بقيت صغرى البنات واسمها أنخنسن باتن التي تزوجت توت عنخ أمون وكان يدعى أولاً توت عنخ أتون وقد كان هذا الزواج في سبيل دعم حقها في الميراث لأنها ولدت في العام الثامن من حكم والدها ولقد تم زواجها هذا وهي في التاسعة من عمرها. وهذا سن مبكر للزواج حتى في مصر. ودفعت تلك الزوجة الطفلة ثمناً غالباً لهذا الزواج المبكر فقد قاست من إجهاضين متتالين وهكذا لم يتكون ولي العهد المنتظر بكل حسرة ولهفة.

وكانت الشخصية الرمادية في بلاط أخناتون في تل العمارنة هي الكاهن الأعظم ومستشار البلاط المدعو (آي) وكانت زوجته (تي جي) ممرضة للملكة «نفرتيتي» وقد احتفظ (آي) بكل خيوط السلطة في يده وكانت مصلحته أن لا يدع أي شخصية قوية تخلف أخناتون لذلك كان الشاب الصغير توت عنخ أمون هو الشخص المناسب.

وكان أول وأهم عمل قام به توت عنخ أمون هو الارتداد عن عبادة الإله الواحد الذي اختاره أختاتون والد زوجته ليكون الإله الرسمي للدولة وكنتيجة لهذا

القرار فقد عزم على ترك ترك تل العمارنة والعودة إلى طيبة وكإشارة لخضوعه لإلـه طيبة وهو (أمون) بدل الفرعون اسمه من توت عنخ أتون إلى توت عنـخ أمـون ولـم تعد زوجته الشابة تسـمي نفسـها أنخنسـن باتن بـل انهوسـن أمـون. هنـالك لوحـة تذكارية من معبد الكرنك محفوظة في متحف القاهرة تعالج هـذه الفـترة وهـي فـترة إعادة سلطة أمون وتقـول هـذه المخطوطـة: «لقـد وجـدت المعبـد خراباً، والأمـاكن المقدسـة مـهجورة والباحـات تنمـو فيـها الأعشـاب ولـهذا أعـدت المقامات والمعـابد ووضعـت بـها الجواهـر ووضعـت التمـاثيل وصـور الآلهـة مـن الذهـب والكـهرمان وزينتها بأحجار اللازورد وغيرها من الأحجار الكريمة».

توفي توت عنـخ أمـون كمـا رأينـا نتيجـة لجلطـة دمويـة فـي الدمـاغ وهـي نتيجـة لإصابة في الرأس وهذا الحادث ترك انهوسن أمون أرملة في الخامسة عشـر ربيعـاً دون أي وريث للعرش وهكذا سنحت الفرصة المواتية (لآي) للاستيلاء علـى السـلطة فبـدأ يتآمر بذكاء وكانت الملكة ذات الخمسة عشر ربيعـاً العوبة بيديـه وكملكـة لمصر كـانت تعرف تماما ما هي الأخطار المحيطة بـها فقـد كـانت عمليـة التحنيـط سـوف تسـتمر مـدة سبعين يوماً وبعدها فان الفرعـون الجديـد يجـب أن يتقـدم ويقـود الاحتفـالات الدينيـة لفتح فم الفرعون قبل عملية الدفن وخلال السبعين يوما وهو الزمن الـذي يمضـي بـين موت الفرعون وبين مراسيم جنازته عليها أن تجد زوجاً آخـر يسـتطيع أن يخلـف تـوت عنخ أمون الراحل؟ فمن هو هذا الرجل يا ترى؟

لـم تستطع انهوسـن أمـون أن تجـد أي رجـل فـي كـل مصـر وفـي سـاعة يأسـها وقنوطها فكرت أخيراً بملك الحثيين (شوبي لوليما) فكتبت له تقول:

«إن زوجي قد مات وليس لي منه ولد وقَدْ علمت أن لك عدة أبناء كبـار، أرسـل لي أحد أبنائك وسأتخذ منه زوجاً لي لأني لا أريد أن أتزوج أي رجل من رعاياي».

لم يكن لدى الملكة ذات الخمسة عشر ربيعـاً سـوى سـبعين يومـاً لإتمـام خططـها وكان الوقت اللازم للرسول لتسليم رسالتها من مصر إلى آسيا الصغـرى حيـث عـاش

الحثيون حوالي أربعة عشر يوماً وهذا يعني أنها تستطيع أن تنتظر جواباً خلال شهر على أقرب تقدير ولو كان لدى ملك الحيثين أي تساؤلات فان الاتفاقية سوف تستغرق ستين يوماً على أن يجيب بالسرعة الكلية.

لم يعرف ملك الحثيين ماذا يفعل إزاء الرسالة؟ هل كانت حيلة للإيقاع به وبأبنائه؟ هل كان في النية أخذه أو أخذ أحد أبنائه كرهينة؟ ولكنه أرسل أحد مستشاريه وهو هاتوزيتشن إلى مصر ومعه الجواب. استمعت الملكة لرسالة الرسول بحذر وهو يقرؤها لها:

«كيف تبرهنين لي أنه ليس لديك أمير تتزوجينه ربما كنت ترغبين في خداعي ربما إنَّك لا ترغبين أن يكون أحد أولادي وصيا على العرش؟».

ومع ذلك فقد تدبرت الملكة الأمر وأقنعت الرسول أنها كانت تتكلم الصدق وكانت آخر رسالة لها للملكِ الحثيين تدل على مدى حرصها على بصيص من أمل بَقِيَ لها لتحصل على زوج قبل أن تنتهي مدة السبعين يوماً المحددة فلنسمعها تقول وكلها رجاء وتوسل «لماذا أخدعك؟ ليس لي ابن وإنَّ زوجي قد توفي فهل تظن أنه لو كان لي أي ولد كنتُ اقتربت منك بتلك الحالة المزرية؟ وإنَّني لم أكتب أي كتاب لأي حاكم آخر في أي بلد آخر سواك. أعطني أحد أولادك وسوف يصبح ملكاً على مصر».

بعد أن استلم ملك الحثيين هذه الرسالة آمن بإخلاص الملكة وأرسل ابنه (زانانزا) إلى طيبة ولكن الطريق كانت طويلة وكان هناك رجلان في مصر يطمعان بالعرش أحدهما (آي) وكان متأكداً تقريباً أن الأمير الحثي لا يمكن أن يصل إلى طيبة ضمن مدة السبعين يوماً المحددة. وأما الآخر فكان قائداً شاباً هو (حورمحب) وقد كان هذا أيضاً مطلعاً على خطط الملكة ولكنه كان أقل ثقة بنفسه من (آي) ولهذا لم يحاول أن يعبث وقرر أن يرسل حرسا وحامية من عنده لتحية الأمير القادم ولكن حدث أن قتل زانانزا وهكذا تأكدت مخاوف والده الأولى بأن رسالة الملكة عبارة عن فخ ومنذ ذلك الوقت أصبح ملك الحثيين يعتبر المصريين ألد أعدائه.

وهنالك في طيبة نجد أن (آي) قد احكم التخطيط بعكس (حورمحب) ففي المساء وقبل موعد جنازة توت عنخ أمون أعلن نفسه وريثا للعرش وفي الصباح أنجز عملية فتح فم الفرعون الراحل ليسمح (للبا) وهي روح الفرعون بأن تترك الجثة وهكذا أصبح (آي) هو الفرعون الجديد.

تبوأ (آي) العرش في مصر ومعه (انهوسن أمون) وقد مر عهدها دون أي حادث ذي بال فقد مات (آي) بعد أربع سنوات واندثرت أخبار الملكة الشابة في زوايا التاريخ المظلم ومن المؤكد أن (حورمحب) قد قتلها ودبر أمر إخفاء الجريمة.

شعر (حورمحب) أن نجمه قد صعد بعد موت (آي) فقد فاز بتأييد كهنة (أمون) وخلال أحد الأعياد الكبيرة توج فرعونا على مصر. ولكي يتمم الوهم والخيال بأن حكمه استمرار للأسرة الثامنة عشرة فقد تزوج من (موتنيد جيمت) وهي أخت (نفرتيتي) ولكن هذا الزواج فقط هو الشيء الوحيد الذي ظل يذكر أي إنسان بالأسرة الثامنة عشرة.

لقد كان هذا الفرعون دكتاتوراً منتقماً جباراً فقد حاول أن يتلف جميع تماثيل من سبقوه وصورهم فحيث كان يظهر اسم توت عنخ أمون كان (حورمحب) ينقره بالإزميل أو يشطبه وقدْ أوقعت التماثيل أرضاً أو أتلفت كل الآثار التي ترجع إلى فترة عبادة الإله (أتون) هذا وقد استعمل الحجارة التي بنيت بها معابد تل العمارنة كأساسات لبناء ثلاثة أهرامات عظيمة بناها أمام معبد أمون في طيبة وعمل كل ما في وسعه لطبع بصماته على التاريخ ولمحو كل ما عمله سابقوه وحتى القبور لمْ يراع حرمتها فقد أتلف قبور رجال بلاط توت عنخ أمون و(آي) وكل مظهر من مظاهر حكمهما محاها نهائياً من الوجود. كتبت إحدى الخبيرات في التاريخ المصري وهي فرنسية تدعى كريستيانا: إنّ كل ما فعله حورمحب بدا نتيجة تفكير وتخطيط فقد عمل بتعصب تشوبه الجريمة لكسب تأييد أولئك الذين قاموا بالثورة المضادة لفكرة التوحيد التي قام بها (أخناتون) ولكن رغم المنطقية الواضحة لأعماله فقد ارتكب

غلطة واحدة فمع أنه عمل ما في وسعه ليضرب اسم توت عنخ أمون إلا أنه لم ينهب قبره أبداً.

وقد أدهش هذا التصرف جميع علماء الآثار المصرية لمدة طويلة فهم يقولون: إنَّهُ ليس هنالك سبب واضح لماذا أحجم حورمحب عن نهب قبر توت عنخ أمون ولم يمسه رغما عن أنه قام بإتلاف وطمس كل آثاره وأعماله ومما يزيد في الدهشة أن كل إنسان في ذلك الوقت كان يعلم عن الثروة العظيمة التي دفنت مع الفرعون، هذا مع شدة حرص (حورمحب) على عدم تفويت أي فرصة سانحة لاغناء بيت ماله فضلاً عن أن الكهنة كانوا يدعمونه ولم يكونوا ليقاوموه أو يمنعوه من هذا العمل. كلا إنَّ هنالك سبباً واحداً فقط لإحجام حورمحب عن نهب القبر فقبل ختم القبر كان الكهنة قد ضمنوا سلامته بالقوى السرية الغامضة التي لا يمكن إبطال مفعولها وإلا لكانت اللعنة أصابت الفرعون حورمحب نفسه.

قوى الكهنة السوداء:

إن مركز الكاهن واعتباره في مصر القديمة كان محاطاً بهالة من الأسرار والغموض وكان الكهنة هم الطبقة المتنورة من الشعب وكانت لديهم المعرفة التي تعوز عامة الشعب والمعرفة هي (قوة) حتى قبل خمسة آلاف عام.

ويعكس الوظائف الأخرى كانت الكهانة لا تورث فقد كانت مراتبها تكتسب بالعمل والجِدّ من قبل أولئك الذين يشغلونها وكانت هنالك مراتب بين الكهنة أنفسهم ففي المملكة الحديثة كانت هنالك خمس مراتب وإنَّ حياة الكاهن بكنيشونز الذي بقي ما سجله في القرن الثاني عشر ق.م سالما وهو يظهر الطريق الذي يقطعه الكاهن لينتقل من مرتبة (وهيب) وهي أدنى مرتبة كهنوتية إلى مرتبة رئيس الكهنة وقد تدرب بكنيشونز كفارس في جيش الفرعون وقد استطاع أن يلفت النظر لمواهبه وذكائه الممتاز وعندما بلغ السابعة عشرة قبل (ككاهن قارئ) في معبد أمون في طيبة وبعد أربع سنوات رُقي إلى المرتبة التالية من مراتب كهنة أمون وكان عليه أن يظل في تلك المرتبة

اثنَيْ عشر عاماً وفي الوقت الذي ارتفع به إلى المرتبة الثالثة كان قد قضى من الخدمة ثلاثة وثلاثين عاماً وقد أمضى الخمسة عشر عاماً التالية بصفة كاهن ثالث ثم رقي إلى منصب كاهن ثانٍ وبقي فيها مدة اثنَيْ عشر عاماً وعندما أصبح في الستين سماه رعمسيس الثاني (رئيس كهنة أمون) وقد عاش حتى السابعة والثمانين. مثل هذا الرجل كان يمثل مصدرا من مصادر القوة والسلطة الحقيقية للكهنة ورجال البلاط والعلماء أما بالنسبة لعامة الشعب فاعتبره ساحراً يستطيع أن يعمل كل شيء ولم يكن السن والوظيفة هي التي ترفع رئيس الكهنة عالياً فوق عامة الشعب بل كانت قدرته العقلية ومهارته تلعب دوراً في هذا المضمار فقد كان بكنيشونز بصفته رئيس الكهنة يترأس نوعاً مما يمكن أن نسميه (جامعة) فقد كان معبد أمون مأوىً ومدرسة للفنون ومدرسة للموسيقى وكلية للهندسة وكانت منطقة المعبد أكبر وأغنى من قصر الفرعون وحتى لو كان الفرعون يمارس كل السلطات المرئية إلا أن الكهنة كان بأيديهم الخيوط غير المرئية التي تحرك تلك السلطة.

الطبيب والكاهن والساحر كانوا شخصاً واحداً هو، الكاهن فحسب ولم يكن (بنتو) وهو طبيب اخناتون الخاص مستشار الفرعون الخاص فحسب بل كان الخادم الأول لمعبد الإله أتون فالسحرة رجال أقوياء يتودد الفرعون إليهم لأنهم يملكون قوى خارقة علمية لم يكن من أحد قادراً على الحصول عليها فقد ألَّفوا فرقة دينية أو طبقة خاصة لا تقبل أن تفضي بما لديها من علم لأي شخص آخر وقد كانت اكتشافاتهم السحرية والتنجيمية والعلمية والطبية تكتب على أوراق البردي بشكل ملفات ولفائف يرجع إليها عند اللزوم وقد وصلت إلينا مثل هذه النصوص ابتداءً من السلالة الخامسة (2500 ـ 2350ق. م) عندما سقط الوزير (ويش بتاح) ميتا أمام سيده الفرعون نفيري كار نتيجة لضربة (كما يظن) وعندها استنجد الملك بالكهنة والأطباء وجلب له صندوقاً خشبياً يحتوي لفائف من أوراق البردي فيها تشخيص للأمراض ووصف علاجات سرية وفي كتاب بردي (إيبرس) وهو كتاب سحري طبي تتواتر الإشارة فيه

إلى (أسرار الأطباء) خصوصاً عند مناقشة بعض العلاجات حيث يندمج الطب مع الأسرار اندماجاً كلياً وعندما يكون الفرعون راضياً عن أعمال الكهنة ومنجزاتهم كانت تلك الفئة تستفيد وتظل بخير وبعد معركة مظفرة قدم الفرعون رعمسيس الثالث (1197 ـ 1165 ق. م) لكهنة معبده 8646 عبداً و32 طناً من الذهب. وفي القرن الحادي عشر ق. م كان كهنة الإله أمون يملكون 2400 حقلاً و83 سفينة و46 حوضاً للسفن و000. 420 رأس ماشية وكان العبيد تحت رحمة الكهنة الكلية وللكهنة الحق بالحكم بإعدام أي عبد وهذا الحق لم يكن يملكه المواطنون العاديون وكان الأطباء يجرون عمليات جراحة تجريبية على العبيد أولاً باعتبار أن هذه العمليات معادلة لحكم الموت وكانت تلك العمليات تبدأ بحشو الأضراس وتنتهي بعمليات فتح الدماغ وقد سجل السحرة والأطباء نتائج هذه العمليات في كتبهم السرية.

الطب والسحر:

لقد واجه الكهنة المصريون مهنة شاقة وهي التناسق بين الوضع عندما اتحد الآلهةُ العديدون في الأقاليم في ممالك ثم وحِّدت الممالك بعضها مع بعض فأصبحت إمبراطورية ومن العجيب أن السحر أصبح أكثر شعبية فكل مدينة أو منطقة كان لها الإله المحلي الخاص وكل وحدة سياسية كان يتبعها وحده دينية وكان الكهنة الساهرون اليقظون هم الذين يقضون بتنحية إله من الآلهة وتجريده من ألوهيته أو دمج إلهين باسم إله واحد وهكذا أصبح (رع) و(أتوم) إلهاً واحداً وكذلك (شو) و[أونوريس] أو (بتاح وسوكاريس) وأخيراً أضيف أوزيريس إلى الإلهين الأخيرين حتى إنَّ أحدهم تكلم عن الثالوث الإلهي فقد كان من الضروري إسكات المتشككين ودعم إرادة وقدرتهم الآلهة.

ولإنجاز هذه التغييرات استعمل الكهنة المعرفة العلمية التي كان الشعب يثق بها ثقة عمياء والتي ما تزال تبعث في نفوسنا في هذه الأيام الإعجاب والدهشة فالمعلومات حول الأمور الطبية والسحر في مصر القديمة مدونة في سبع أوراق بردي كبيرة وهي تختلف في حجمها ومحتوياتها وتاريخها.

وإنَّ أكبر هذه الأوراق وأشهرَها هي أوراق بردي (إيبروس) فقد كتبت في بداية المملكة الحديثة فهي في صفحاتها المئة والثمانية وتغطيتها الواسعة لموضوعها تعتبر مرجعاً طبياً كلاسيكياً. ويأتي بعدها في الضخامة ورقة بردي (برلين) فهي عبارة عن 24 صفحة وقد كتبت في حوالي نهاية المملكة الحديثة ثم ورقة (أدوين سميث) وورقة (هرست) إذ تحتوي الأولى على اثنتين وعشرين صفحة والثانية على سبعَ عشرةَ صفحة ويرجع تاريخها إلى حوالي 550 ق. م وأقدم ورقتين بالحقيقة هما ورقتا (كاهون) (آ) و(ب) اللتان يجب أن تكونا قد كتبتا حوالي 900 ق. م وكلاهما غير تامتين فورقة كاهون (آ) عبارة عن كتيب يبحث في الأمراض النسائية أما كاهون (ب) فهي جزء من عمل كبير شامل في الطب البيطري وأخيراً هنالك ورقة بردي (لندن) ذات الثماني عشرة صفحة وهي من أيام توت عنخ أمون وتحتوي وصفات صيدلانية ورقيات سحرية للأم وطفلها وهذه شهادة كبرى عن تلازم الطب والسحر وارتباطهما الوثيق في مصر القديمة وهذه الأوراق فيها وصفات صيدلانية حقيقية وكما يظهر بعد إلقاء نظرة على أوراق بردي إيبرس وسمث نجد أن هذه الوصفات يمكن أن تستعمل بشكل ناجح الآن وفي كتاب أمراض الأمعاء والمعدة مثلاً نجد التشخيص والمداواة التالية:

«هذه تعليمات لفحص الذي يشكو من متاعب في معدته: فإذا فحصت رجلا به قرحة معدية أو رجلاً يشكو من متاعب عند الأكل لأن بطنه ضيق وقلبه مريض وإذا كان يشكو من التهاب في الكبد فيجب عليك أن تنظر إليه وهو ممدد على ظهره فإذا كانت معدته تبدو ساخنة بسبب القرحة فيجب أن تخبر المريض أن لديه احتقاناً في الكبد ويجب أن تحضر علاجاً وصفه في كتاب الأعشاب السري كما يفعل الأطباء، اطحن العقار وضع الحجارة مع العقار ثم أذبها في الماء. ويجب على المريض أن يشرب من هذا الدواء لمدة أربعة أيام لكي يفرغ معدته».

ولكن إذا كان الجانب الأيمن من المعدة يظهر ساخناً بينما يظهر القسم الأيسر بارداً فيجب حينئذ أن تخبره أن مرضه ينفرج وفيما بعد يجب أن تفحصه ثانية وإذا وجدت جميع منطقة المعدة باردة عند اللمس فاخبره أن الاحتقان قد زال عن كبده وأن جسمه قد تقبل العلاج.

هنالك صورة ورقة بردي إيبرس وسمت باسم مكتشفها ومترجمها وهـو عـالم ألماني بالحضارة المصرية (جـورج إيبرس) وهـذه الوثيقـة تحـوي على وصفـات طبيـة وتعليمات للعلاج وهي تعود إلى عهد المملكة الحديثة (القرن السابع عشر ق . م) وهي مكتوبة بالخط الهيراطيقي .

وأما ورقة بـردي أدويـن سـميث فتحتـوي علـى تعليمـات بخصـوص جراحـة الإسعافات وذلك عند حدوث جـرح في العظـم الوجني (وطبقاً لورقة بـردي إنَّ هـذه العظمة تقع بين زاوية العين وشحمة الأذن والفك السفلي) إذا فحصت شخصاً ما مصاباً بجرح في العظم الوجني دون أن يكون بارزاً فعليـك أن تنظر إليه بإمعـان فإذا وجـدت العظمة الوجنية سالمة دون أي انشقاق أو أي ثقب أو أي كسر فعند ذلك تقول للمريض :

الصورة ص 108 زنكوغراف صورة صفحة من أوراق البردي تمثل هذه الصورة صفحة بابيروس إيبرس سمِّيتْ باسم مكتشفها وترجمها العالم الألماني جورج إيبرس وتحتوي هذه الوثيقة على وصفات طبية وتعليمات للمعالجة الطبيعية وترجع إلى المملكة الحديثة (القرن 17 ق.م) وهي مكتوبة بالخط الهيراطقي.

«إنَّ لديك جرحاً في العظم الوجني وأنا سوف أعالج هذا الجرح». ففي اليوم الأول يجب أن تضع عليه لحماً طازجاً وبعد ذلك عالجه بالمراهم الملطفة والعسل. وافعل ذلك كل يوم حتى يشفى والجرح الذي لا يفتح ولا يصل إلى العظم هو جرح بسيط أما الذي يصل إلى العظم دون أن يفتح أو دون أن تكون له حافات يدعى بالجرح الضيق». إنَّ هذا النوع من التعليمات يتفق تماماً مع أسلوب المصريين القدماء في تعليم العلوم وكتب الرياضيات تستعمل نفس الأسلوب التعليمي الوعظي. وإنَّ كلمة (أنت) التي يخاطب بها الطبيب مقابلها (هو) التي تخبر عن المريض وقلما يذكر شخص الطبيب وعلى العموم كانوا يقولون «سكين الطبيب» أو «طرق الطبيب السرية» أو كتاب الطبيب العظيم عن أمراض القلب وأسرارها.

وكان من واجبات الطبيب في مصر القديمة أن يفحص لحم الأضحيَة لأغراضٍ دينية وهذه إحدى وظائفه الكثيرة وكان ساحراً وصيدلياً وكاهنا وشافياً وكان بالتأكيد يملك قوى خارقة وله تأثير أكبر مما كان للطبيب في (روما) القديمة وإذا قارنا حماة الأطباء في روما بحماة الأطباء في مصر نجد فارقاً عظيماً فإن إله الشفاء الروماني المسؤول عن الأطباء كان إلهاً من الدرجة الثانية بينما في مصر كان الإله هو ذو اليد الواقية للأطباء ولم يكن (ثوث) هو الإله الوحيد المسؤول عن الطب فأمون ومينا وتشونس وحورس كل هؤلاء كان لديهم القدرة على الشفاء وكان من المعتقد أن أمون له القدرة على شفاء أمراض العيون دون أية أدوية وكان (مينا) يشفي المريض ويحافظ على صحة الأصحاء وكان تشوس هو الإله الذي يطرد الشياطين وكانت كلمة حورس تخفض حرارة الحميات وتشفي المرضى.

ويذكر في ورقة بردي إيبرس بعض الأدوية غير العادية لأمراض العين التي كانت واسعة الانتشار في كل من مصر القديمة والحديثة وهكذا فهي توصي بنزع شعر حاجبَيْ العين وأهدابها ودهنها بدم السحالي كعلاج لانحراف الأهداب وقد ذكر (ديوسكوريديس) وهو طبيب يوناني عاش بعد ولادة المسيح أن المصريين اقترحوا

استعمال دم الحرباء وقد أوصى هو نفسه أيضاً باستعمال نعال الأحذية المحترقة لعلاج الحروق وهذه النصيحة الطبية هي نفسها ذكرت في أوراق بردي إيبرس بشكل مختلف قليلاً بخصوص الجلود المحترقة وكان احمرار العينين يعالج بحليب امرأة حبلى وأما ورقة بردي لندن فهي تعزو ضعف النظر إلى تدخل الشياطين والأرواح وهذا هو السبب الذي جعل المعالجة لا تهتم بالمرض نفسه بل تتركز على الرقى والسحر لطرد الشياطين والأرواح.

وقد أعطيت نصائح طبية محضة لمعالجة العيون وهكذا فإنَّ ورقة بردي لندن تنصح بوضع كبد البقر فوق نار بطيئة ثم صب العصارة الناتجة فوق العينين بينما تقترح ورقة بردي إيبرس وضع قطعة من كبد ثور مشوية بعد عصرها فوق العينين. وأما الرقى السحرية بالنسبة للأم وطفلها فقد اقترحت أن كثرة إفراز اللعاب من قبل الطفل أثناء التسنين (أي بروز الأسنان) يمكن أن يضبط بوضع الفئران الحية في أفواه الأطفال أو بجعل الأطفال يأكلون فاراً مفروماً. وهنالك نصوص مصرية متعددة تتحدث عن القوى السرية ففي كتاب (حكايات قصيرة) يذكر كيف أن الإله (ثوث) طالب «رع» بأن يعيد له كتاب سحر كان (ني نفر كي بتاح) قد سرقه وكيف أنَّ الإله رع رضخ لطلب (ثوث) وأرسل قوة إلهية من السماء ليتأكد أن السارق سوف لن يعود بسلام إلى ممفيس.

وأما ورقة البردي السحرية رقم (11) فهي تتحدث عن (القوى الإلهية) التي توجد في مدينة «بوباستيس» ويشير كتاب الأموات في (بامونت) إليها أيضاً عندما يتحدث عن القوى الإلهية التي تخرج من السراديب السرية تحت المدينة وأن اسم قاضي الأموات يعني ترجمته (البوباشي) أي الذي يخرج من السراديب.

إنَّ جميع هذه القوى الخفية لم تكن تستدعى لحماية الأحياء فلماذا لا يطلب هذه القوى سوى الأموات والآلهة؟ إن أبسط تفسير يبدو هو أنَّ هذه القوى كانت مميتة ومهلكة وإذا افترضنا أن الفراعنة قد قاموا بحماية قبورهم بواسطتها فإنَّنا نكون قد سرنا شوطاً كبيراً في كشف سر لعنة الفراعنة.

وهنالك نقطة غريبة أخرى وهي أنه ليس لدينا وثائق تخبرنا أين وكيف كان الأطباء يتعلمون الطب والحقيقة أن هذه القضية غامضة وسرية جداً. ولم تتوفر لنا أي سجلات تشير إلى وجود مدارس طبية إلا في الفترة الحديثة المتأخرة من تاريخ مصر ولقد افتتحت مدرسة طبية في (سايس) خلال حكم داريوس الأول حوالي عام 500 ق. م ولكن لم يكن لتلكَ المدرسة أي صفات مشتركة مع الثقافة الطبية في مصر القديمة فقد أرسل داريوس الذي حكم مصر رئيس أطبائه المدعو (أودثا هاريسنت) ليؤسس مدرسة في دلتا النيل.

لم تكن المستشفيات معروفة في مصر خلال الفترة الواقعة بين المملكة القديمة والحديثة ومثل هذه المؤسسات (أي المستشفيات) لو وجدت لكانت مبتذلة ولكانت مفتقرةً لكثير من الأشياء بالنسبة للخلفية السرية والطقوس الباطنية التي كانت موجودة. فكلٌ من الطبيب أو الساحر كان يستدعى إلى بيت المريض وعندما يصل كان يستقبل بما يليق به من الاحترام والحفاوة لأن الطبيب كان يبدو في عيون الشعب فناناً فوق جميع البشر يستطيع أن يشفي كل شخص وكل شيء حتى العشاق.

وكان الأطباء المصريون القدماء يعرفون ثلاث طرق للمعالجة الجراحية والطبية والسحرية، وكانت المعالجة الجراحية تشمل العمليات الجراحية فعندما يستعد الطبيب لفصد الدم لمريض يجب أن يسخن السكين قبل العمل ويجب أن يهتم اهتماماً شديداً أن توضع العظام والمفاصل في مكانها، وأن تربط الجروح وتضمد مع الاهتمام بتفهم أساليب التعقيم، وكانت العظام المكسورة توضع بين شظايا وأنابيب وتلف قطع القصب بالكتان وكانت هذه تستعمل في التغذية الصناعية وتقوية العظام وقد توصلوا إلى عمل جسر بين الأضراس وكانت الأسنان القديمة توضع في الفجوة بين سنَّين صحيحين وتشد بواسطة أسلاك من الذهب.

أما المعالجة الطبية فتشمل وصفات من السوائل والمراهم والمساحيق وحتى التحاميل وكانت المساحيق تحرق ويستنشق دخانها وكانت التعليمات بتناول الحبوب

الدوائية والعقاقير التي ينتجها الأطباء المصريون لا تختلف عن التعليمات في فن الصيدلة الحديثة ونسمع قولهم «يؤخذ هذا الدواء قبل الذهاب إلى النوم» أو (يؤخَذُ مرتَّين كل يوم) وكانت هذه التعليمات شائعة وأخيراً كان الأطباء يستعملون المعالجات السحرية التي كانت تستعمل جنباً إلى جنب مع الطريقتين السابقتين.

ونحن نعلم شيئاً حول الحيل التي يمكن أن تواكب الاعتقاد العام بالسحر ولكنها سهلة التفسير طبياً مثلاً كان الأطباء يرسمون صورة على يد المريض الذي كان يقاسي من الألم أو السم وبعد ذلك يطلبون منه أن يلحس الصورة. ولم تكن هذه الصورة تدهَن بالدهان بل بعقار سائل فإذا نجحت تلك العملية كانت تعتبر من عمل الإلهة.

الكتب السرية:

كانت الفجوة الثقافية في مصر عبارة عن هوة سحيقة فكانت هنالك طبقة صغيرة متنورة تواجه كتلاً من الشعب الأمي الجاهل الذي لم يكن بإمكانه تفسير أي معرفة علمية إلا بالسحر. وهذه الحقيقة أصبحت لها نتائجها بالنسبة للتاريخ المصريّ التالي وكانت مكتبات الفراعنة تحتوي كتباً عن السحر فضلاً عن المؤلفات التقليدية والنصوص الطبية وما يدعونه بكتب الحكمة ويذكر الدكتور (إيرمان) أنه حتى المثقفون كانوا يقفون بخشوع وإجلال واحترام أمامَ مؤلفي تلك الكتب ويعتبرونهم الآلهة على الأرض أو آلهة الحكمة، وقد أدعى أحد الكهنَة في القرن السابع أنه وجد واحداً من تلك الكتب المختصة بالأسرار في قبر حيوان. ووجدت الكتب الأخرى في قوارير موضوعة قرب المومياءات وكان المصريون يعترفون بالشخص رئيساً للكهنة عند حفظه الكتب المقدسة القديمة عن ظهر قلب.

لا شك أن فترة الانتقال من السحر والخرافات إلى المعرفة العلمية كانت فترة مرنة ومائعة وهكذا فقد وصلنا (تقويم) من المملكة المتوسطة يدعى به الثامن عشر من الشهر يوماً فيه الخير وأما التاسع من الشهر فهو يوم منحوس واليوم الثالث بيْنَ بَيْنْ وهذا المفهوم الأساسي يصف بعض الأيام بالسعادة وبعضها بالنحس. فالساعة

البيولوجية المنظمة تشبه هذه النظرية . وفـي ذلـك الزمـن كمـا هـو الآن لـم تكـن فكـرة الساعة البيولوجية مقبولة فنحن نعرف من إحدى أوراق البردي من كتاب مدرسـي أن هذه الفكرة كانت تعلم للصغار والكتاب يقول : إنَّ اليوم يكـون سـعيداً أو غـير سـعيد وذلك بالنسبة لما حدث في ذلك اليوم في تاريخ الإلهة .

لا يمكننا أن نرسم خطوطاً معينـة فليس مـن الصحيـح أن تقـول : إنَّ كـل شـيء يشير إلى ما وراء الطبيعة سحر فليس هنالك سحر في وضع الطعام في القبـور ورسـم الملابس والأثاث على جدران القبور والمقاصير أو كتابة الرقى والتعـاويذ فـهذه جميعـاً هي قضايـا تقـاليد وديانـات ولكـن السـحرة والمشـعوذين استخدموا هـذه الاعتقـادات الشعبية لكي يستفيدوا مادياً بمساعدة الطرق العلمية .

وكانت الحاجة إلى السحر تلمس في كل مظاهر الحياة فالسحرة هم الذين كانوا يستحثون نزول المطر وهبوب الرياح وهم الذين كانوا يحمون الرجال مـن الأسـود فـي الصحارى والتماسيح في نهر النيل وكانت هنالك رقيـة سـحرية تتلى فـي كـل صبـاح لحماية الفرعون من أعدائه وقد وجدت كسرةٌ أثرية من آنية فخارية في طيبة تظـهر إلـى أي مدى كانت هذه الرقيـات والتضرعـات والتوسـلات تشير حتـى فـي بدايـة المملكـة المتوسطة (حوالي 2000 ق . م) وفي هذه المدة تذكر تفاصيل عن تحطيم وتكسير الجـرار الفخارية فقد أمر أحد فراعنة الأسرة الحادية عشـرة بكتابـة أسـماء جميـع أعدائـه علـى جرار فخارية كبيرة وهذه الأسـماء تشـمل (بكـواي) حـاكم (اوبـاتس) وجميـع أقاربـه وجميع سكان كوش وميجـار وشـعات بالإضافـة إلـى ذلـك الأقويـاء منـهم والعدّائـين وحلفاءهم وأصدقاءهم وأولئك الذين سـيصبحون أعداءنـا علـى هـذه الأرض وكـان هـذا يشـمل أمـراء ليبيـا وفلسـطين وأخيراً كبـار المستشـارين فـي بـلاده وقـد سـميت أسماؤهم كلهم وحكم عليهم بـالموت وكـانوا لا يزالـون يعتقـدون بـأن هـؤلاء سـوف يموتون في اللحظة التي تكسر بها الجرة التي كتبت عليها أسماؤهم . لقد ازداد الضغـط بطلب السحرة لعمل نتائج فقد أدرك الناس أن الرقى السحرية الغاليـة والمكلفـة كـانت

بحاجة لمساعدة خارجية لتعمل وحالما ارتفع المستوى الثقافي الشعبي في مصر ازداد الطلب على الرقى السحرية حتى إنَّ ذلك الطلب أصبح أكثر عنفا وتهديداً.

ونجد في النصوص التي يرجع عهدها إلى عصر الأهرامات بعض الرقى والتعاويذ كالآتية:

«يا آلهة الأفق إنكم إذا كنتم ترغبون بأن يحيا (أتوم) وكما أنكم تنظفون أنفسكم بالزيت وتلبسون ملابسكم أو تتناولون طعامكم فأرجو أن تمدوا له يد العون وترجعوه إلى بر الأمان». إنَّ هذه الجملة تشير إلى نفادِ الصبر أو قلة الثقة بالنفس ومن الأسهل أن نفسرها بأنها صرخة للاستنجاد ولكن يأس هذا الكاهن يصبح أكثر وضوحاً عندما يقول:

«ولكن إذا لم تساعدوا في إرجاع جثة الميت إلى السفينة فإنَّه سوف يمزق خصل الشعر في رؤوسكم وكأنها براعم الأزهار في الحقل».

أليس من العجيب أن نرى كاهناً قد فقد الأمل بآلهتِهِ ونفسه وخيبة الأمل المريرة تملأ نفسه يلجأ إلى العلم لمساعدته في دعم ثقته بالنفس أو ليس من العجيب أن نرى أن الكهنة والأطباء قد أصبحوا متورطين بالسحر وبالاختصار فقد ثبت لنا بعْدَ دراسة المصادر الموجودة بين أيدينا أن العلم كان يستعمل كدعاية لتثبيت اللاهوت وهكذا فإن الأسرار العلمية يقع على عاتقها مسؤولية كبيرة في تفسير قضية لعنة الفراعنة.

في طريق الخلود

في 19 كانون الثاني عام 1967 مات العالم الفيزيائي (جيمس فورد) بمرض السرطان في (لوس أنجيلوس) وهو في السادسة والسبعين وكان قد هيأ نفسه بشكل لم يفعله أي إنسان من قبله، وفي اللحظة التي تأكد بها موته بدأ فريق مؤلف من ثلاثة أطباء وكيمياويين في إنجاز خطة مفصلة ففي خلال عملية استغرقت ثماني ساعات أفْرغ الأطباء جميع السوائل من جسم العالم الميت وأزالوا الدم ووضعوا بدله محلولاً كيماوياً. ثم بردت الجثة لدرجة التجمد وفي أثناء ذلك بدأ أحد الأطباء بتدليك القلب لكي تبقى خلايا الدماغ حية أكبر مدة ممكنة. وبعد أن أفرغ الدم تماماً بدأ تبريد الجثة إلى درجة حرارة 196 تحت الصفر مئوية ووضعت في ناووس من الفولاذ غير قابل للصدأ وأرسل الناووس إلى مدينة فوينكس في ولاية أريزونا حيث حفظت في مستودع للجثث ذي درجة حرارة منخفضة جداً ومستودع الجثث هذا متوضع بشكل عمودي في بناية تشبه خلية النحل درجة حرارتها تقترب من 200 درجة مئوية تحت الصفر كان الدكتور فورد أول رجل يخضع للتجميد المفرط في العالم وقد دفع ثمن العملية حوالي 30.000 دولار أملاً بالخلود فهل هذا العالم الكاليفورني رجل حالم أو هو خيالي يا ترى؟

رجال التبريد المفرط هم مومياءات هذه الأيام:

في عام 1964 نشر العالم الفيزيائي روبرت أتنجر كتابه الذي أثار كثيراً من الجدل وهو (أمل الخلود) ونظريته تقترح تجميد أجسام الأشخاص الذين ماتوا بسبب

مرض لا يمكن شفاؤه ثم إرجاعهم إلى الحياة بمجرد أن يكتشف علاج المرض الذي سبَّب موتهم وقد استقبلت زمرة الأطباء فكرته هذه بتحفظ وشكر يشوبهما الدهشة وهنالك نقطة واحدة تبدو أكيدة وهي أنه يمكن إعادة الكائن الحي إلى الحياة إذا أسقطت درجة الحرارة أثناء عملية التجميد بمعدل مئة درجة مئوية في الدقيقة وإذا كان التبريد سريعاً بهذه النسبة وهنالك سبب وجيه يبرر ذلك وهو أن صدمة البرودة أو السخونة تمنع تشكل بلورات تسبب إتْلافَ جزيئات حيوية وتجعل البروتينات الهامة وجزيئات الأحماض النووية تتجمد بسرعة بحيث لا يتبلور الماء في الأنسجة بل يتحول إلى كتلة تشبه الزجاج وقد استطاع العلماء إعادة حياة النباتات والحيوانات المنوية في الإنسان ولكن لم يستطع أحد حتى الآن أن يعيد الحياة لشخص مبرد تبريداً مفرطاً وليس من الأكيد التمكن من عمل ذلك في المستقبل ومع هذا فهنالك عدة جمعيات تبريدية موجودة في الولايات المتحدة الآن تتبنى عمليات التبريد في فوينيكس أو لونج آيلاند وفي وادي سان فرنسيسكو حيث تحفظ أجسام الأشخاص المبردين وتخزن لقاء إيجار سنوي قدره 700 دولار تقريباً وهكذا مضت حوالي ثلاثة آلاف سنة حين عاد البشر ونشروا ووسّعوا ذلك المجهود الضخم الذي بدأ به الفراعنة.

عندما تصاب الأعصاب بالجنون:

ما الذي جعل المصريين القدماء يعالجون موتاهم بطريقة تجعل بقاياهم محفوظة تماماً تقريباً؟ ما لذي جعلهم يدفنون فراعنتهم ببذخ منقطع النظير لم يكن له مثيل في التاريخ لا قَبلهم ولا بعدهم؟ هل كان السبب إيمانهم العميق بالخلود أم الاعتقاد بأن البشرية سوف تستطيع في يوم من الأيام أن تكتشف بشكل علمي السبيل إلى الخلود كما هو الحال اليوم.

إنَّ المصريين الذين عاشوا في عهد المملكة القديمة كانوا دون شك بسطاء وأكثر سذاجة من أولئك الذين عاشوا في المملكة المتوسطة والحديثة ولذا فإنه من المحتمل كما قدمنا أنه خلال القرون أصبح إيمانهم بالمعجزات يتغير وحل محله

الوعي العلمي ومع أن طقوس الدفن ظلت كما هي تقريباً، إلا أن شيئاً ما يجب أن يكونَ قد تغير وهذا الشيء له أكثر من دلالة رمزية واحدة وهنالك مثل يمكن أن يوضح هذه النقطة.

لقد مضت عدة قرون كان الطب في الغرب لا يعترف بعمليّة الوخز بالإبَر التي كان يمارسها الطِّب في الشرق الأقصى لشفاء بعض الأمراض واعتبروه في الغرب نوعاً من الشعوذة والتدجيل على أسوأ تقدير أو كعمل يلفت النظر على أفضل تقدير ولكن في هذه الأيام أصبحت عملية الوخز بالإبر معترفاً بها ومشجعة في أوربا وأميركا؟ كيف حدث ذلك يا ترى؟.

اعتقد الصينيون القدماء أن غرز الإبر في أجزاء معينة من الجسم يطرد الشياطين والأرواح الشريرة التي تسبب الألم ولكن تطورت تلك الطريقة وتمخضت عن نظرية تقول: بأن وخز الإبر (عينوا 360 نقطة من الجسم لوضع الإبر) يسمح بإدخال أو إخراج أي نقص أو زيادة لما يسمّونَه (ين) و(يانغ).

وطبقاً للحكمة الصينية فان «ين» و«يانغ» قوتان طبيعيتان تعتمدان على بعضهما مثل الذكر والأنثى، الضوء والظلام الإبداع والتقبل، السرور والألم هذه القوى الأساسية المتعاقبة حسبما فكر الصينيون القدماء هي السبب الجذري لكل شيء في العالم المحسوس ويمكن أن تظل هذه القوى متوازنة بشكل طبيعي بواسطة وخز الإبر التي تخدم تماماً كالهوائي في الراديو والتلفزيون أو مانعة الصواعق فوق البنايات الشاهقة.

وحتى في هذه الأيام هنالك اختلافات كبيرة بين العلماء حول وخز الإبر فقد بدأ الأطباء والعلماء يهتمون اهتماماً جدّياً بهذا الفن الصيني عندما برهن العالم الإنكليزي (هنري هيد) في عام 1983 أنّ الأعضاء الرئيسية تنبه الألم في بعض أجزاء الجسم البعيدة عن ذلك العضو ولكن بعد زمن لوحظت عملية معاكسة تماماً للأولى فإنَّ معالجة بعض أجزاء الجلد أو الجسم كانت لها تأثيرات على فيسيولوجية الأعضاء الرئيسية البعيدة عن تلك الأجزاء من الجلد.

وهكذا فقد توصلنا في هذه الأيام إلى نقطة أصبحت فيها طريقة وخز الإبر مقبولة وجديرة بالتصديق لأنها تمخضت عن نتائج لابد أن تسبب ثورة في جميع فروع الطب وخصوصاً التخدير.

لقد أظهر الدكتور غود فري تشن وان مان من ميشيجين خلال المؤتمر العالمي للتسمم الذي عقد في باريس عام 1973 وكشف تفسيراً علمياً للنتائج المزيلة للألم في عملية وخز الإبر.

ادعى هذا العالم وجود ألياف كثيفة عصبية أطلق عليها اسم ألياف (أ) وهذه محاطة بأغلفة من النخاع وألياف عصبية رقيقة أطلق عليها اسم ألياف (ج) وكلاهما متصلان ببعضهما اتصالا وثيقاً داخل النخاع الشوكي وألياف (أ) تنقل المنبهات الخارجية مثل الحرارة أو البرودة أو اللمس إلى الجهاز العصبي بسرعة فائقة وأما ألياف (ج) فتنقل الإحساس بالألم ولكن ببطء، مثلاً نحن نسحب إصبعنا من المدفئة الساخنة بسرعة دون أن نشعر بالألم فالإحساس بالألم يأتي متأخراً .

وقد ادعى الدكتور مان أيضاً أن الألياف (أ) تؤثر على النخاع الشوكي بطريقة يصبح بها أقل استقبالاً لإشارات الألم الصادرة عن الألياف (ج) فالألياف (أ) تعطي الإشارة بسرعة الضوء مثلاً بأن كل شيء على ما يرام فإذا فقدت هذه الدوافع مثلاً في حالة رجل مبتورة فإن المريض يقاسي من ألم وهمي ولذلك فان وخز الإبر يمكن أن يساعد في إثارة دافع إخماد ألياف الألم وكبحِها إلى درجة تجعل الألياف (جـ) مسدودة وعاطلة عن العمل تماماً.

فمن الواضح أن ما كان يعتبره الناس لمئات وحتى آلاف السنين كوخز الإبر هو ضد الأرواح الشريرة كان (ودون أن يدرك ذلك الكثير من الناس) مؤسسا على مبادئ علمية. وبنفس الطريقة فمن المحتمل أن المصريين القدماء اكتشفوا واستعملوا أساليب فعالة لحماية قبورهم ضد لصوص المقابر تلك الأساليب والطرق التي عرفوها ولكن دون أن يفهموا مبادئها الأساسية.

إنّ هذا بالطبع ينطبق على الفراعنة الذين كانوا يدفنون بمراسم البذخ والثروة أما الرجل العادي فكان يدفن بشكل بـائس كمـا كـان يعيش وبـالرغم مـن أراضـي مصـر الواسعة فإنّ البـلاد كـادت تختنـق بموتاهـا لأن الموتـى كـانوا يدفنـون فقـط فـي القطـاع الضيق الصالح للزراعة غربي النيل وفـي دلتـا النيـل وكـان هنـالك سبب وجيه لدفـن الموتى في الغرب فقـد كـان المصريـون يعتقـدون أن مدخـل العـالم السـفلي كـان واقعـاً حيث تغيب الشمس خلف رمال الصحراء والهضاب الكلسية .

لقـد كـانت مراسـم الدفـن بالنسبة للفقـراء دون أي عـامل مشترك بينـهـا وبـيـن طقوس الدفن الباذخة المكلفة للأغنياء فحفظ الجسد للأبدية كان مقصوراً على النبـلاء والفراعنة فقط وكان الرجل المصـري العـادي البسيط يدفـن فـي زمـن المملكـة الحديثـة بنفس الطريقة التي دفن بها أجداده قبل حوالي ثلاثة آلاف عام وحتى هـذه الأيـام نجـد قبـوراً فـي رمـال الصحـراء السـاخنة حيـث يضطجـع الموتـى علـى جوانبـهم اليسـرى (كوضع الجنين تماماً) والساقان مثبتان وهما مغطيان بحصير واسع مـن الأليـاف وهـذه الأجساد قد ظلت سالمة تقاوم فعل الزمن دون أي تحنيط وذلك بفضل قلة الرطوبة فـي الصحراء ولكن المعتقدات الأساسية حـول المـوت هـي بـين الفقـراء والأغنيـاء . وحتـى أفقر الفلاحين كان يدفن ومعه جرة من الفخار بـها الطعـام والشـراب وأسـلحة بسيطة وأدوات زينة وعندما نقارن بين القبـور القديمـة نجد أنـه عـبر السـنين الطويلـة أصبحـت القبور تحفر أعمق وأعمق وذلك لحماية الموتى من ابن آوى وقد تطورت الحفـر البدائيـة إلى حفر مستطيلة وبعد ذلك إلى مقصورات وأضيفت مقاصير جانبية كغـرف للخـزن وللهدايا التي كانت تقدم للموتى وأخيراً أصبح القبر ظاهراً للعيـان وذلـك ببنـاء جـدار حوله وملء المساحة بمواد البنـاء وهكـذا أوجـدت أنصـاب مسـتطيلة فـوق القـبر وهـذه كانت تدعى المصطبة . وكانت المصاطب تختلف فـي حجومـها حسـب ثـروة صاحبـها وأهميَّتِه وكان الفراعنة من الأسرة الأولى والثانيـة (2850 ـ 2700 ق . م) يـأمرون ببنـاء مصاطب لهم في أبيدوس .

ثم بدأ تركيب بناء المصطبة يتطور إلى نوع من الأهرامات المدرجة كالهرم الذي بناه المهندس أمنحوتب لسيِّده الفرعون (زوسر) من الأسرة الثالثة حوالي 2650ق. م وذلك بوضع مصاطب متدرجة في الكبر بعضها فوق بعض.

لم يكن القبر مكاناً لوضع الجثة فحسب ولكنه كان موطناً (للكا) وهي الروح التي كانت تحمي الموتى وكان يوضع أولاً باب زائف عليه اسم الميت وصلوات مختلفة وتعاويذ سحرية وفيما بعد أضيفت غرف خلف الباب وكانت الأبواب توضع دائماً على الجانب الشرقي وهي تواجه الغرب ثم تطورت الغرف والممرات خلفها إلى تيه منتظم.

صانعوا المومياء:

لم تظهر أشكال الدفن التي تتناسب مع الإيمان الديني المصري وحساسيته إلا خلال الأسرة الخامسة حوالي 2400 ق. م وهي مراسم التحنيط أي محاولة الإبقاء على جسم الميت بمظهره الطبيعي. فاهتمام المؤرخين وعلماء الآثار والفيزيائيين والكيماويين كان ينصبّ على تقنية التحنيط بعد الدفن. والحقيقة أن تفاصيل التحنيط لم تكتشف حتى الآن رغم استخدام جميع الأدوات العلمية الموجودة والأوصاف الكثيرة التي خلفها المغامرون والمستكشفون وكان أول وأفضل شخص معروف واجه أسرار التحنيط هو المؤرخ اليوناني (هيرودوتس) الذي سافر إلى مصر في القرن الخامس ق. م وكانت تقاريره مفصلة ومع أنها لم تكن صحيحة تماماً إلا أنها ممتعة تاريخياً إذ يقول «هنالك محنِّطون فعندما تجلب لهم الجثة كانوا يظهرون لأقارب الميت نماذج من المومياءات المحنطة مدعين أن تحنيطهم هو أفضل تحنيط ما عدا ما عمله الآلهة أنفسهم وإنيٌ أظن أن من الخطأ ذكر أسماء الآلهة بهذا الخصوص. ثم كان المحنطون يرون الأقارب نماذج من التحنيط أرخص وأخيراً نماذج ثالثة أقل كلفة من تلك وكان المحنط يفسر كل شيء وبعد ذلك يطلب معرفة أي طريقة يريدها الأقارب لميتهم وكان الأشخاص الذين يجلبون الجثة يصرِّحون بالثمن الذي باستطاعتهم دفعة ثم يتركون المكان ويبقى المحنطون في دار التحنيط وكان أغلى أنواع التحنيط وأفضلها هي الآتية:

يسحب الدماغ أولاً من الأنف بواسطة سنارة حديدية مع أنه كانت تستعمل محاليل أيضاً لهذا الغرض. وبعد ذلك يشق البطن بواسطة سكين حادة مصنوعة من الصوان من الحبشة وتنزع الأمعاء والأعضاء الداخلية ويغسل داخل الجسم بواسطة نبيذ التمر ويفرك بواسطة مادة عطرية مطحونة ويحفظ الجسم من التلف بوضعه في كربونات الصوديوم المهدرجة (محلول النطرون) لمدة سبعين يوماً ولا يجوز أن تبقى الجثة في كربونات الصودا أكثر من سبعين يوماً وبعد ذلك تغسل الجثة وتلف بأربطة من الكتان وتلبس بنوع من محلول المطاط الذي كان يستعمله المصريون بدلاً من الغراء وفي أثناء ذلك يكون التابوت قد أنجز صنعه وتوضع الجثة في التابوت وتخزن وهي واقفةٌ بشكل عمودي في بيت حفظ الموتى وهذه طريقة التحنيط الغالية الثمن».

وأما الذين لا يستطيعون أن يدفعوا كثيراً من المال فكانت جثث أمواتهم تحنط بالشكل التالي:

لا تفتح الجثة لإخراج الأحشاء وبدلاً عن ذلك يملأ جوف البطن بزيت خشب الأرز وهذا الزيت يحقن إلى الجوف من خلال الدبر بطريقة لا تجعله يخرج ثانية. وبعد ذلك يقضي الجسم السبعين يوماً الإجبارية منقوعاً في كربونات الصوديوم المهدرجة (النطرون) والزيت له تأثير قوي جداً حتى إنه يزيل اللحم وكل الأحشاء بحيث يبقى الجلد والعظم فقط وعندما تتم هذه العمليات تعاد الجثة إلى أصحابها دون معالجة أكثر.

أما الطريقة الثالثة للتحنيط التي يستعملها الفقراء فهي كما يلي:

يغسل التجويف البطني بواسطة مسهل ثم ينظف ويملح ثم يضع المحنط الجثة في (النطرون) لمدة سبعين يوماً قبل أن يطلب من عائلة المتوفى أن تأتي لأخذ الجثة.

وأما (ديودوروس سيكوليس) الذي أخبر عن نفس العملية بعد حوالي 400 سنة فهو يعطينا المعلومات الإضافية الآتية:

عندما يموت شخص ما في مصر ينثر أصدقاؤه وأقاربه التراب على رأسه وأثناء الاحتفال الجنائزي يمشون وهم ينوحون ويندبون خلال المدينة وفي أثناء تلك

الفترة لا يغتسلون ولا يشربون الخمر ويمتنعون عن كل المسرات حتى إنهم لا يلبسون أي ملابس جميلة.

هنالك ثلاثة أنواع من الدفن: الدفن المكلف الغالي والوسط والمتواضع فالطريقة الأولى تكلف وزنه من الفضة أما الثانية فتكلف أقل من ذلك وأما الثالثة فهي رخيصة جداً ولا تكاد تكلف شيئاً ويتعلم المحنطون فنهم من آبائهم وأجدادهم ويأتون إلى بيت المتوفَّى ومعهم صور لعدة مومياءات ويطلبون من أهل المتوفى أن يختاروا الطريقة التي يحنطون بها ميتهم وعندما يصلون إلى اتفاق يجلب الميت إلى المحنط. وحالما تمدد الجثة يضع رجل يدعى الموجه علامة على الخاصرة اليسرى من الجسم ليشير إلى مكان فتح الشق في الجسم ثم يأتي الرجل المدعو (المشرح) ومعه سكين مصنوعة من الصوان من بلاد الحبشة ويشق جدار البطن حسب تعليمات الموجه بالضبط وبعد ذلك يهرب بعيداً ويبدأ كل من كان حاضراً بمطاردته وقذفه بالحجارة ولعنه بسبب ما قد فعل، لأن المصريين يكرهون أي شخص يسبب جرحاً أو أي ضرر لشخص آخر ومن ناحية أخرى نجد المحنطين يتمتعون بالكرامة والاحترام فهم في نفس مستوى الكهنة ويسمح لهم بالدخول إلى المعبد كرجال مقدسين دون أن يعترض سبيلهم أي إنسان.

وعندما يتجمع المحنطون حول الجثة لإعدادها يضع واحد منهم يده خلال الشق متجهاً إلى الصدر وينتزع القلب والكليتين ثم يبدأ شخص آخر بتنظيف الأعضاء الداخلية ويضمِّخها بالعطور ونبيذ التمر وبعد أن تغسل الجثة مدة ثلاثين يوماً بزيت خشب الأرز وتعالج بالمر وهو (صمغ راتنجي ذو رائحة زكية) والقرفة وهذا يبقي الجثة مدة طويلة من الزمن يفوح منها شذا عطر زكي عبق.

ثم تعاد الجثث إلى أصحابها وتظهر العناية الفائقة بإعداد هذه الجثث لدرجة أن أهداب العينين والحواجب تبقى سالمة ولا يتغير المظهر الخارجي للجسم وتبقى تعابير الوجه كما هي بل يمكن معرفتها فوراً. ويحفظ كثير من المصريين جثث

أجدادهم في مقاصير خاصة حتى يستطع الخلف أن يروا السلف وعندما يرى الرجال المسنون تعابير وجوه أجدادهم ويدرسونَها يشعرون كأن هنالك أناساً معهم يعيشون العصور التي عاشوها.

النتائج الأخيرة:

هنالك رجل واحد درس تقنيات التحنيط في العصر الحديث وهو الدكتور (زكي إسكندر) مدير دائرة الآثار في القاهرة وقد كتب يقول بأن الدماغ كان يخرج أولاً من الجمجمة خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة (ابتداء من 1570 ق.م) واستعمل الإزميل والمطرقة للقطع خلال الجدار الأنفي. وبعد ذلك يسحب الدماغ من خلال الأنف بواسطة سنارة محماة بالنار وكان إخراج الدماغ بواسطة الإزميل من جدار الجمجمة قلما يحدث وأما القلب فبما أن المصريين اعتقدوا بأنه مركز الروح والعواطف فلم يعاملوه كبقية الأعضاء وذلك لأنه سوف يوزن أثناء يوم الدينونة والحساب وكانوا يستبدلونه أحياناً بجُعَلٍ مقدس.

وأما عملية التحنيط الحقيقية حسب رأي الدكتور إسكندر فهي تتطابق تماماً مع ما ذكره هيرودوتس. ولا مندوحة لنا من أن نذكر أن الجثة كانت تُحشى أثناء عملية التجفيف وذلك لتجنب تقلص الجثة مع ما يرافقه من تشويه في شكلها وكانت الحشائش والتبن تفضل كمواد للحشو ولكن غالباً ما استعمل رمل الصحراء لهذه الغاية. وقد استعملت جميع وسائل التجميل لإعداد الجثث فالحليب والنبيذ والمصطكي (المسكة) وكذلك زيت خشب الأرز استعملت لإضفاء بعض اللون والمرونة على الجلد وكانت الوجنتان تنفخان بوضع كرات الكتان داخل الفَمِ وكذلك محجر العينين وكان الأنف يسد بكتل من الراتنج.

ولم تكن تقنية التحنيط محصورة بالبشر فحسب فتحنيط الحيوانات كانت له أهميته عند المصريين القدماء كما هو مدون في وثائق ورق بردي فينّا رقم 27 وهذا

النص المكتوب بمزيج من اللغة الديموطيقية والهيراطيقية يمدنا بتفاصيل دقيقة عن طقوس دفن العجل أبيس المقدس.

وكانت الورقة هذه مكتوبة على كلا الجانبين بخطوط مختلفة ويظن أنها أتت من ممفيس وكتبت في عصر بطليموس (من 250 ـ 150ق. م) وتحتوي على تعلميات دقيقة للكهنة والقائمين على شؤون الموتى حول تحنيط وعمل مومياء للحيوانات.

يجب عليهم أن يمدوا حصيراً من البابيروس من مصر العليا أمامه ثم يوضع غطاء على هذا الحصير ثم يسيرون خلف مدير الطقوس والكهنة المرتلين الذين يجب أن يكونوا حليقي الذقون ومرتدين أفخر الثياب والنعال بعد أن يكونوا قد اغتسلوا ويجب أن يمشوا إلى المعبد وهم يندبون ويصرون أسنانهم وبعد ذلك يضعون أربطة حول رقابهم ويظهرون الحزن والأسى لموت إله البيت الكبير وكانت تمد حصير من البابيروس أمامَ الكهنة المرتلين وعلى رئيس الطقوس أن يقرر ما هي الأشياء التي يريدها لتجلب له إلى المعبد. وبين هذه الأشياء هنالك لوح كانت توضع عليه المومياء البشرية فيما بعد ويعض الحجارة والكتان وأما عملية التحنيط الفعلية فقد وصفت كما يلي:

وبعد ذلك على رئيس الطقوس والكهنة المرتلين أن يبدؤوا بتحضير القماش والأغطية والأربطة التي يحتاجونها للرأس والأطراف وكانت اللفافتان بعرض ست أصابع وسمك أصبع ونصف وأما غطاء الرأس فيجب أن يكون مصنوعاً من ربائط جديدة أربع علوية وأربع سفلية وطولها سبعة أذرع والعرض ثلثا الطول وبعد ذلك على رئيس الطقوس والكهنة أن يذهبوا إلى المكان حيث يوجد به الإله (الثور أبيس) وعليهم أن يضعوا القماش بين رجلي الإله الأماميتين ممتدة إلى الكتف الأيمن وتخرج من تحت الكتف الأيسر وبعد ذلك تقطع الربائط وتسحب خلال الكتف الأيسر حتى تصل وتخرج من تحت الكتف الأيمن.

ومن الغرابة بمكان أن جسم الثور الميت يدهن فقط بعد أن يلف فخذه بالربائط ويؤكدون على أن المراهم يجب أن يسمح لها بالوصول إلى الجسم.

وبعد ذلك يجب أن يجلس رجل أمام رئيس الطقوس وعليه أن يفتح جمجمة الإله ويدفع يده داخل جمجمته بالقدر الذي تصل إليه وعليه أن يأخذ ما يجده داخل الجمجمة وبعد ذلك يحشو الجمجمة ويجب على الرئيس أن يهتم كثيراً بالمواد التي يخرجها الكهنة من الجسم وبعد ذلك عليه أن يخلع نابي الثور في الفك الأسفل فضلاً عن السنَّين المجاورين للنابين ويجب أن يحشو الشمع والمر والعطور في الجمجمة حتى لا يقفل الفكان ويجب وضع كيس يحتوي على المر تحت لسانه بينما يغطى اللسان بمادة مشبعة بالمراهم وتلف ثلاث ربائط حول الرأس وتلف إحدى هذه الربائط على قمة الرأس والأخرى حول الوجه وبعد ذلك توضع ثلاث قطع من القماش حول القصبة الهوائية والمري وقطعتان على اللثَّة وقطعتان أخريان حول الخدين وأما داخل الرأس فيجب أن توضع وسائد صغيرة وبعد ذلك يقف رجل أمام العينين وعليه أن يحشو داخل العينين ويدهنهما بالمراهم والزيت ويضع القماش عليهما، رباطان لكل عين وأخيراً يجب أن يخرج كل شيء من الأنف ويحشو داخله بالكتان.

وبعد لف رأس الثور تصف ورقة البردي كيفية لف القرنين وبعد ذلك يقف أحد الكهنة المرتلين أمام تجويف البطن ويغطي جسم الثور الميت بقطعة كبيرة من القماش ويختفي تحتها وبعد ذلك تتابع تعليمات التحنيط كما يلي:

عندما يدخل الكاهن المرتل تحت الغطاء الموضوع فوق تجويف البطن عليه أن يخرج كل ما يجده في البطن ويجب أن يمد يديه إلى أبعد ما يستطيع وبعد ذلك عليه أن ينظف التجويف بالماء ويحشوه بالقماش.

وأخيراً يوقف الثور المحشو بشكل عادي ولعمل ذلك يحرك لوح الخشب بين رجليه وتربط الرأس والرقبة عالياً حتى يأخذ الحيوان وضعاً طبيعياً في الوقوف ثم يرفع الثور (أبيس) وهو في هذا الوضع إلى الضريح المقدس الذي يخدم كتابوت وعندئذ فقط يمكن أن تبدأ مراسيم الدفن وأثناء تلك المراسيم يلبس جميع الكهنة وخدم الميت الملابس ذات اللون الأحمر.

العقاقير من بلاد (بونت):

إننا في هذه الأيام نعرف الكثير عن تركيب الأجزاء المكونة للعقاقير التي استعملت في التحنيط ولكن لا نعرف كل شيء فمثلاً عقاقير الراتنج والنطرون (ماءات نيترات الصوديوم) كثيراً ما تذكر ويتكرر ذكرها في نصوص الأهرامات وكتاب الموتى ومختلف أوراق البردي.

لم تكن عقاقير الراتنج تستعمل في حالتها الطبيعية فقط ولكن بأشكال عديدة أخرى إذ نجد أوراق بردي (هاريس) تقول: «وفي باحتك العظيمة في ممفيس هنالك أشجار المر والعطور المغروسة وهي التي جلبتها يداي من (بونت) لأجْعَلَ وجهك المقدس يتأجج بالأنوار في الصباح» وهنالك ما يشبه هذه الورقة بين أوراق البردي الأخرى حيث يذكر (المر) من بلاد بونت ليس فقط الشجرة بل ما ينتج منها من راتنج مصنع كما تذكر أيضاً زيوت خشب الأرز والبخور المستوردة.

إنَّ بلاد بونت هي من أعظم البلدان القديمة المحاطة بهالة من الأسرار فقد رحل إليها الفينيقيون والمصريون القدماء وتاجروا هناك بقدر ما يستطيعون وذلك بسبب وفرة ما فيها من مواد خام ثمينة مثل زيوت التربنتين والعطور والعاج والذهب والسموم والفلزات التي كانت تؤخذ من الأقزام من أهالي البلاد عنوة وإنَّ بلاد (بونت) بلاد الأسرار والأقزام لم تكن خرافة بل كانت موجودة حقاً وربما تشمل ما يعرف الآن بالشاطئ الصومالي لإفريقيَّة الشرقية وتظهر الصور في قبور طيبة كيف كانت أشجار البخور والأرز والمر تقتلع من بلاد (بونت) وتوضع في جرار فخارية وتجر لمسافات مئات الأميال خلال الصحراء وكانت تشبك في مقابض الجرار بعض القضبان وبذلك يستطيع العبيد حمل هذه الجرار وقد وصلت عمليات نقل الأشجار إلى ذروتها خلال حكم الأسرة الثامنة عشرة وخاصة في زمن حكم الملكة حتشبسوت وفي زمن الفرعون رعمسيس الثالث من الأسرة العشرين، كانت أشجار (المر) تزرع في طيبة ولكنها لم تكن لتزدهر وبعد ولادة السيد المسيح علق المؤرخ الروماني

(بليني) بأن أشجار (المر) قد انحطت في مصر وقد استعمل (بليني) كلمة انحطت بمعناها الأصلي وهو (تغيرت) والتي يفسرها العالم المدرب بكلمة (فسدت) إذ أنه في هذا الزمن كانت شجرة (المر) قد تحولت إلى مجرد (دغلة) كثيفة الأغصان.

وكانت العقاقير ذات الروائح الزكية تستعمل كالراتنج الصلب لإعداد المومياء ويستعمل دخانها خلال مراسم التحنيط. وأما وضع البخور و(المر) في أفواه الموتى فكان لتنظيف الميت والراتنج العطر كان يستعمل لتطمين الميت بأنه سوف يجد ما يأكله خلال رحلته الطويلة إلى الأبدية والحياة بعد الموت وكان المصريون يعتقدون أن البخور والراتنج لهما من الصفات والقوى ما تعجز عنه (ألكا) المسؤولة عن الموتى. وأنَّ دخان الراتنج العطر يجعل الموتى يتغلبون على قوة الجاذبية الأرضية فهي تحرّرهم من العبودية الأرضية فقد علقت ورقات البردي تقول:

إنّهم يسحبونه إلى السماء على أعمدة من الدخان ذي الرائحة الإلهية العطرة وكانت الآلهة (نوت) وتيفنوت تسحب الأموات إلى الأعلى على السحب ذات الشذا العطر بعيداً عن المادة حيث عالَم الأرواح.

وقد عمل (ألفرد لوكاس) وهو الصيدلي الرسمي الحكومي الذي اشترك في فتح مومياء توت عنخ أمون، عمل هذا الصيدلي في تصنيف أنواع البخور فقد أعتقد أنه بالإضافة إلى نبات البخور الذي نعرفه اليوم فقد كان المصريون يستعملون أيضاً (المر) و(البلسم) وغيرها وفي كتابه عن النباتات قدم المؤلف (ثيوفراستوس) النقطة التالية:

في الوقت الذي كانت أنواع الراتنج المختلفة تستخدم في النواحي الروحية والمثالية والإيحاء الذاتي بالنسبة لمراسيم الدفن الدينية إلا أننا نجد أن النطرون وقد كان عنصراً أساسياً لتجفيف الأجسام وبالتالي حفظها من التلف والنطرون يوجد بشكل طبيعي في `البجر فماءات كربونات الصوديوم هي أساس مركبات مختلفة تشمل حامض الهايدر كلوريك والصودا الكاوية ويوجد النطرون في ثلاثة أمكنة في مصر فعلى بعد سبعين كيلو متراً غرب القاهرة وفي الصحراء الليبية يقع وادي النطرون. وفي أثناء فيضان النيل تتكون

بحيرات صغيرة هناك وماء هذه البحيرات يتبخر حالما ينحسر الفيضان فتتكون طبقة بيضاء على الرمل وهذه الطبقة عرفها القاطنون هناك باسم النطرون منذ المملكة القديمة وقد ذكر لوكاس أن النطرون يوجد أيضاً في أقليم البحيرة في مصر السفلى وفي (أدفو) في مصر العليا وهذه المناطق لها أسماء مختلفة في النصوص القديمة فهنالك ورقة بردي تتكلم عن نطرون الجنوب وهذا من الواضح أنه يعني النطرون المجلوب من (أدفو).

وكما ذكر هيرودتس وكثير غيره فإنّ الموتى في مصر القديمة كانوا يوضعون في النطرون لمدة سبعين يوماً لتجفيف الجسم ولكن بعض المراقبين يذكرون أن الفترة كانت أربعين يوماً وهذا الرقم أقرب إلى الحقيقة طبقاً للمكتشفات الحديثة ولكن إعداد الجثة كان يأخذ وقتاً أكثر فقد مضت (272) يوماً تقريباً بين موت الملكة ميريس أنخ وعملية دفنها وفي بداية المملكة القديمة لم تجر العادة بأن تزال الأعضاء الداخلية والأحشاء ولكن خلال الأسرة الثالثة بدأت تلك العادة تستحكم ولكنها ضعفت واندثرت أثناء المملكة المتوسطة وبدلاً من ذلك كانت الجثة تحقن بمحلول التربنتين من الدبر ويبقى ذلك المحلول في الجسم عدة أيام وعندما يسمح لتلك السوائل بالخروج كانت تخرج معها الأحشاء الداخلية الضعيفة التي تتآكل بفعل التربنتين.

وقد استعملت كلا الطريقتين في المملكة الحديثة مع أنه كانت تفضل طريقة الجراحة وذلك لأنها أنظف وقد وصل فن التحنيط إلى أقصى درجة من الكمال خلال الأسرة الثامنة عشرة.

موكب الموتى على نهر النيل:

عند إتمام التحنيط كانت الجثة توضع في تابوت، وفي المملكة القديمة كان التابوت عبارة عن ناووس خشبي أو حجري بسيط وفيما بعد أصبح الناووس يزين بالأحرف الهيروغليفية والصور وكانت تظهر عينان تزينان القسم العلوي من التابوت وهنالك شق لدخول (ألكا) وهي التي تحافظ على الموتى وهنالك أبواب رمزية كاذبة على جانبي التابوت وهي لفائدة (ألكا) أيضاً وفيما بعد غطيت التوابيت برقىً وتعاويذ للموتى مما

يدعى (تقمص الأرواح) فقد كان يعطى للموتى فُرَصٌ كثيرة للتقمص وسرعان ما أصبح من الصعب كتابة جميع أنواع التقمص على التابوت وهكذا أصبح من الواجب تدوينها على أوراق البردي التي كانت توضع في التابوت وهذا هو كتاب الموتى الشهير.

وكانت المخطوطات تطلب العون من الآلهة أنوبيس وأوزيريس ونات وإيزيس ولكن فوق الجميع: من أطفال حورس الأربعة وكل هذه الطلبات كانت لحماية الموتى وكان (حورس) هو الذي يفتح فم أوزيرس حتى يستطيع أن يعاود الطعام والكلام وكان من المفروض أن يقوم أطفال حورس بحفظ الموتى وحمايتهم من الجوع والعطش وبعد أن توضع المومياء في التابوت وبعد أن يعد القبر الصخري أو الترابي كانت تقام طقوس جنائزية خاصة فالموسرون الذين يستطيعون دفع المال كانوا يرتبون أمورهم أثناء حياتهم بأن يدفنوا في مدينة (أوزيريس) المقدسة وهي مدينة أبيدوس ولكن كان الآخرون يستطيعون أن يعملوا قبراً كاذباً مزيفاً في أبيدوس أو أن ينصبوا شاهدة قبر فقط هناك وكانت العادة هي حمل المومياءات إلى أبيدوس حيث يشترك أهلهم في تقديم الضحايا إلى أوزيريس ثم يعودون بهم ويدفنون في مدنهم وقراهم.

وكان موكب الجنازة يبدأ من الضفة الشرقية للنيل حيث يوضع التابوت في قارب مسطح متخم بالأزهار وفي وسطه مظلة وتجلس زوجة وبنات المتوفى تحت المظلة وصدورهن عارية وهن على جانبي التابوت يصرخن ويذرفن الدموع بينما كان كاهن الموتى وعلى كتفيه جلد فهد يصب العطور والبخور فوق الجثة.

وأمام هذا القارب يسير قارب صغير فيه أحد أقارب الميت الذكور وهو يصيح عبر عباب النيل قائلاً لقائد دفة القارب: أدر القارب إلى الغرب إلى أرض العدالة إنَّ النساء في القارب يبكين ويولولن، سيروا بسلام إلى الغرب أيها الميت المحبوب تقدم بسلام، عند يوم الدينونة سوف نراك مرة ثانية، انظر إنك تسير إلى الأرض التي يختلط بها الرجال.

إن عدد القوارب التي ترافق الميت وتشترك في العبور تختلف حسب عدد أقارب الميت وأهميته، عندما كان القارب المسطح الذي يحمل الميت على ظهره يصل

إلى المقبرة تبدأ أربع حيوانات بجره إلى المقبرة حتى يلتحق بآبائه وأمهاته وحتى يرحب به أسياد مدينة الموتى.

وفي هذا الموكب المسرحي الشاذ الغريب يظهر البطل وهو كاهن يدعى (سم) يظل راقداً في القبو وكله أربطة كالمومياء حتى تصل الجنازة إلى القبر وعندما يوقظه رجلان ينهض وسط صيحاتٍ احتفاليّة معقّدة ويبدأ بإتمام طقوس الجنازة بفتح الفم والعينين باستعمال إصبعه الخنصر وهذا العمل يسمح للميت بالرؤية وتناول الطعام مرة ثانية وهما الشرطان الأساسيان اللذان يتطلبهما للخلود.

بقي مظهر واحد من مظاهر الطقوس الدينية القاسية وهو أنه حالما كان النادبون يودعون الميت لينصرفوا تقطع الرجل الأمامية لعجل حي وهذه العادة التي لم يفسر فحواها ولا معناها تنعكس في الصور المرسومة على الجدران التي غالباً ما يظهر بها عجل بثلاث أرجل واقف في وسط قطيع من مواشٍ.

إنَّ مجرد التفكير أن الميت خلال رحلته إلى العالم السفلي سوف يقاسي من الجوع كان مؤلماً بالنسبة للمصريين القدماء وتفسر معنى وجود نماذج من الإوز المشوي والخبز أو ذنب الثور المصنوع من الخشب أو المرمر التي كانت توضع في القبر.

وبنفس اللوعة كان شعور الرجل المصري عندما يفكر أنه سيموت دون أن يعد لنفسه مكاناً للدفن أو أنه سوف يموت غريبا عن وطنه فأولئك الذين كانوا يقتلون في الحرب أو خلال رحلات الاستكشاف خلال بلاد النوبة أو في البحر الأحمر كان عليهم أن يعتمدوا على أصدقائهم وأقاربهم لإرجاعهم إلى الوطن.

تفاهة القبر:

كان النبلاء المصريون يبدؤون ببناء قبورهم وهم ما يزالون شباباً وحالما ينتهي التصميم المعماري كان صاحب القبر يأمر بعمل رسوم له ولعائلته على الجدران. وكان هذا العمل غالباً صعباً وذلك لأن علاقات القرابة فضلاً عن المراتب والمنجزات كانت تميل للتغير خلال حياة الإنسان ولذا فقد كان بناة القبور يتركون فسحات أمام

الممالك لكي يكتبوا أسماء جديدة وهذه الفسحات كثيراً ما كانت تملأ في الوقت المناسب. ومثل هذه الفسحات كانت تروي قصصا بليغة. فمثلاً كان تشاميت المسؤول عن أهراء الحبوب في زمن الفرعون أمنحوتب الثالث قد أوصى ببناء قبر له غرب طيبة وكرجل ذي امتياز ومرتبة وشرف أراد أن يتم القبر أثناء حياته ومع أنه كان يملك عدداً من الحريم تناسب المقام إلا أنه لم يكن قد اختار لنفسه زوجة فقد ترك فسحة لاسم عروسه المستقبلية ليتبع الكلمة التي كتبها وهي (زوجتي العزيزة أو سيدة المنزل) إلا أن الاسم لم يكتب أبدأ فقد مات تشاميت قبل أن يقرر اسم رفيقة حياته. . كان الموت مكلفاً في مصر وقد وجد الكثيرون بما فيهم ضباط البلاط أنفسهم عاجزين عن تحمل تلك النفقات فبدؤوا يستولون على قبور عائلات قديمة قد اندثرت فدهنت رسومات جديدة وغطيت الرسومات النافرة بالآجرّ. وفي بعض الأحيان كان الفرعون يكافئ بعض فقراء الموظفين بمنحهم قبوراً من لدنه. ونحن نعلم أن الفرعون منقرع عاش حوالي (2500 ق. م) وهو الذي شيد له أصغر هرم من ثلاثة الأهرام في الجيزة، هذا الفرعون أعار رجلاً يدعى ديبهن (وهو أحد موظفي القصر) خمسين عاملاً ملكياً حتى يستطيع أن يجهّزَ قبوره. وأما الفرعون ساحور حوالي 2480 ق. م فقد قدم باباً صوريّاً مكلفاً لطبيبه الخاص وهو (ناشن ساشمت) لاستعمال (كا) الطبيب ومع ذلك فقد أصبحت هذه الهدية الصورية سبباً في جعل قبر الطبيب الجيد يبدو حقيراً. إن شعبا يهتم هذا الاهتمام بمراسم الدفن المبجلة الجديدة لموتاه لاشك بأنه يقلق حول قضية حفظ هذه القبور ومحتوياتها الثمينة وكما رأينا فقد أوكلت هذه المهمة إلى منظمي احتفالات الدفن أي الكهنة وكما ترى لعنة الفراعنة فإنَّ هؤلاء الكهنة جديرون بهذه الثقة.

أسرار الآلهة القديمة

«تحرك شيء تحت المجهر» لقد أنكر كثير من العلماء صحة تلك الظاهرة التي رآها العالم البيولوجي الألماني (أدوين سانتو) ولكن العلماءَ الآخرين هللوا لها واعتبروها معجزة.

كل ما في الأمر أن (أدوين سانتو) قد لاحظ طريقة جديدة لتكوين الخلية وخلق خلية جديدة فقد وضع بقايا البكتريا الميتة في محلول طعام فيه آثار من الليثيوم وقد تركت هذه في المحلول في درجة حرارة أعلى من درجة الغرفة بقليل لمدة 17 ساعة وفي هذه الأثناء وجد أن هذه الخلايا الميتة اندمجت وأصبحت خلايا تامة لها نواة وبلازما تشبه الكريات البيضاء وكانت تعج بالحياة.

لقد عرف البيولوجيّون منذ خمسين عاماً أنه حالما تموت الخلايا النباتية والحيوانية فإنَّ عناصر صغيرة جداً من الخلية تبقى حية وقد لوحظت هذه الظاهرة تماماً ويمكن تصنيفها باسم ناقلات الحياة غير معروفة الهوية أو الشخصية. وهذا يعني أنه بينما يكون موت خلايا الجسم سبباً في إنهاء الحياة البشرية إلا أن هذا لا يعني انتهاء الحياة في النباتات فالبكتريا حاملة الحياة باستطاعتها أن تساعد في بناء حياة جديدة بعد موت الواحدة منها فهي تبني كتلاً يمكن أن تستعملها جميع الكائنات الحية مثل البكتريا أو النباتات أو الحيوانات أو الإنسان، في المساعدة على تشكيل الحياة الجديدة. وهل هذا يعني أن الحياة بعد الموت أو البعث المنوه عنها في معظم الأديان هي قضية واقعية وهل هي خاضعة للبرهان العلمي يا ترى؟.

هنالك مسألة واحدة واضحة وهي أن ناقلات الحياة هذه تملك قوى مقاومة أكثر من أي كائنات حية أخرى معروفة ويمكن أن تستخلص من الأنسجة المغلية بالماء أو المتجمدة أو الأنسجة التالفة كيماوياً حتى من المومياءات التي عمرها خمسة آلاف عام.

وإذا رجعنا القهقرى إلى عام 1951 نجد أن العالمة البيولوجية (ليبيشنسكايا Lepeshinskaya) قامت بأجراء عدة تجارب وبذلك اكتسبت عداوة كثيرة من زملائها لأنها تعتقد أنها قد أثبتت أن الخلايا يمكن أن تتجدد وعلى وجه التخصص قد وجدت أن (ناقلات الحياة) من الخلايا قد نشأت من كريات دموية ميتة وتالفة.

وإذا سلمنا بهذا الرأي تبقى عدة مسائل دون جواب؟ فمثلاً يمتص الكائن الحي مثل هذه الخلايا في الطعام؟ كيف يمكن للاستقلابات في الجسم أن تعالج مثل هذه المسائل وهل هي ضرورية للتجديد في الخلايا؟

ولماذا يعمر الإنسان إذا حصل الجسم على إمدادات ثابتة من هذه المواد الحيوية الجديدة؟؟.

إنَّ هذا المنحى التفكيري شجع أحد العلماء في جامعة كاليفورنيا وهو (إيلوف كارلسون) أن يدَّعي ويطالب بإمكانية بناء المومياءات علمياً من جديد أي خلق فرد يظهر ويفكر ويشعر كأنه من أنسالِ مومياء فرعونية وقد اقترح عزل جينات (مورثات) من نسيج مومياء وإعادة تنشيط بلورات الأحماض النووية اللازمة للنفاد والتخلص من قانون المورثات فالنواة المستخلصة من خلية من نسيج المومياء سوف تحل محل نواة حية خصبة.

ومع أن هذه الحقيقة تبدو بسيطة إلا أنها عمل لم تتوصل الكيمياء الحيوية حتى من الاقتراب من إخضاعها أو التغلب عليها. فمن المحتمل أنه في يوم من الأيام القادمة سوف يولد رجل يحمل مورثات الفرعون بعد مضي ثلاثة أو أربعة آلاف عام من وفاة جده ولكن من المشكوك فيه أن مثل هذا الحادث الذي ليس له مثيل سوف يقربنا من حل لغز المصريين القدماء.

لقد كان الشعب المصري القديم من أذكى الشعوب التي وجدت وهذه الحقيقة شهد بها الأصدقاء والأعداء خلال ألوف السنين لكن التاريخ المصري القديم وحتى الحواريين المسيحيين كانوا معجبين بالنبي موسى لأنه كان قد تعلم الحكمة المصرية ومع أن الآباء المسيحيين الأولين انتقدوا فكرة أمنحوتب الرابع في التوحيد إلا أنهم لم يستطيعوا انتقاد العلوم المصرية التي كانت مختلطة مع الدين. وهذه الفرضيات لا تقدم طبعاً أي جواب لتلك الأحجية عن أصل الحياة ولكنها تساعد على إزاحة الغموض عن الديانة المصرية ومنحها أسساً علمية.

إعادة تجسد زهرة اللوتس:

لقد كان المصريون القدماء يؤمنون بالحياة بعد الموت فلم يصدقوا أبدا أن الموت هو نهاية الإنسان ولكن لم يكن هنالك اتفاق تام حول كنه الحياة الأخرى، واستمرارها فاعتقد بعضهم أن حياة ما تستمر في مقصورة القبر أما الآخرون فاعتقدوا أنها تستمر بين الطيور على الأشجار وبين الجعلان في الرمل أو في زهرة اللوتس التي كانت تنمو على ضفاف النيل وقد اعتقد آخرون أيضاً أن الأموات يحلقون في السماء بين النجوم أو تحت الأرض حيث يوافيهم إله الشمس في الليل.

وهنالك إحدى العجائب في الديانة المصرية وهي التقسيم الثلاثي للإنسان بعد الموت فكان أول شيء هو الجسم وبعده الروح وتسمى (با) وبعدها وأخيراً (كا) وكانت (كا) عبارة عن الملاك الحارس الذي يسبب السعادة والسرور والصحة وطول العمر، وأن الآلهة والفراعنة والناس العاديين لكل منهم (كا) وكان هنالك صور حائطية لا تعد ولا تحصى فيها رسوم مزدوجة، الواحد خلف الآخر بنفس الوضع ونفس المظهر وكان الشخص الثاني هو دائماً الـ (كا) وكانت (كا) الفرعون بها صفات خاصة لها أسماؤها الخاصة وهكذا كان تحوتمس الثالث يتكلم عن (الكا) خاصة ويقول: إنَّها الثور الظافر الذي كان يلمع في حلبات طيبة.

لم تكن روح الإنسان هي المسؤولة عن الحياة بعد الموت إلا أن (الكا) هي التي كانت مسؤولة وكان الجسم يحنط لأجل فائدة (الكا) حتى يستطيع أن يستعملها في

الوقت الذي يريد فقد كانت توضع تماثيل للجسم الكامل للميت في قبور الفراعنة وذلك لأجل أن تعرف (الكا) المظهر الفيزيائي لها وبالطبع كان الطعام والشراب المتروك في القبور غذاء لإنعاش (الكا).

وأما (البا) فكان عنصراً شبه الهي محصوراً في الجسم أثناء الحياة ولا يتحرر إلا عند الموت وتسجل ورقة بردي برلين رقم 3024 حديث أحد الرجال مع (البا) وفد ناقش أستاذ التاريخ المصري (ونفرد بارتا) هذا النص مع مشكلة (البا) في كتابه «حديث رجلٍ مع بائه» فكتب يقول: إنَّ (البا) يجب أن تشبه المتوفَّى ليس فقط في المظهر بل في الأخلاق والمعرفة والخبرة ويجب أن يعرف (البا) كل ما يعرفه «المتوفَّى» وإنَّ قوته السحرية لأن يتشكل بأي شكل يرغبه كان عاملاً من عوامل طبيعته الإلهية فهو سحر ولا يمكن أبطال مفعوله بالسحر. والجسم بالنسبة إليه ما هو إلا ظل أو تقمص وهنالك فرق جوهري بين الجسم والبا: إنَّ الجسم فقط هو الذي يخضع لعملية التقميص وذلك بجعل الجسم الحي يستطيع أن ينشد ترانيم التجسيد السحرية التي تؤهله وتجعله قادراً على نيل المغفرة والعفو وهو ما يحتاجه في الدار الآخرة و(البا) تجسيد لقوة الحياة لا تتأثر بالموت وعلى العموم فان (البا) تحتاج طقوساً من الضحايا وليس السحر المطلوب للتقمص وذلك لتأكيد وجود ه الدائم المستمر. ومع أن بعض النصوص من المملكة الحديثة تتحدث عن تقميص (البا) إلا أنها تبدو كأنَّها عبارة عن قضية اتحاد (البا) مع الجسم المتقمص أي الجثة أكثر من قضية تقميص «البا» نفسه.

إنَّ (البا) ينبعث ويخرج كشخصية مستقلة عند موت الجسم فقط وهكذا فان النصوص القديمة تتحدث عن (البا) الحي وتعد الميت بأن يصبح باؤه حيّاً أيضاً وإنَّ التغيير الذي يذكر (التقمص الحي) يجب أن يفسر بأنه عبارة عن جثة متقمصة مع (با) حي وأن القوى التي تهب (البا) حياة دائمة متجددة هي جزء لا يتجزأ من قوته وقدرته الخلاقة التي لا تفني ولا تموت والتي من المفروض أنه يملكها في الدار الآخرة كما كان يملكها الميت أثناء حياته.

إنَّ كل مصري وخصوصاً أطفال الميت كان من واجبهم أن يهتموا بالميت بتجهيزه وتموينه بالهدايا المادية فضلاً عن الروحية واللعنات والرُّقى والتعاويذ ضد لصوص المقابر وكمية كبيرة من الطعام حتى إنَّهم كانوا يفكرون بتأمين وسائل المواصلات فلم يكن كل إنسان يصح له مثلاً أن يعطى عربة ذهبية كما صح لتوت عنخ أمون ولكن وجدت هنالك سفينة في كل قبر حتى ولو كانت مصنوعة من الطين فهذه السفينة تساعد (الكا) على عبور المياه التي تحيط بالحقول السماوية للمباركين المحظوظين.

ليس من السهل أن نحدد مكان وجود حقول المحظوظين هذه وبعكس الأديان الأخرى التي تلت فإنَّ الديانة المصرية ديانة مسالمة كما كان الشعب المصري في بداية تاريخه فالشمس والقمر والنجوم هي أول الأشياء التي أثارت خيال المصريين وفيما بعد أضيفت إلى هذه الأشياء بعض الأحجار الغريبة الشكل والأشجار الوارفة الظلال والثعابين الخطرة والتماسيح وكل هذه كانت لها قوى إلهية مقدسة.

كانت مصر بلاداً كبيرة بالنسبة للشعب في العصر الحجري وعصر الحديد فقد كان الشعب يتصور البلاد أكبر بكثير مما نتصوّر الآن وهذا هو السبب الذي جعل المصريين يطلقون أسماء مختلفة على نفس الإله: فمثلاً الإله الحامي كان يدعى (سيف) في مصر العليا و(حوري) في مصر السفلى.

وقد كان تشكيل إمبراطورية حورس التي وحدت مصر العليا والسفلي تحت قيادة مصر السفلى حدثاً له أهميته التاريخية العظيمة.

وإنَّ ورقة بردي (حاريس) تقدم تفاصيل حول ثروة معابد هيليوبوليس ففي زمن رعمسيس الثالث كانت هيليوبوليس أكبر من ممفيس بـ (160 ضعفاً) وفيها مواشٍ أكثر بأربعة أضعاف ونصف من ممفيس والسكان أكثر أربعة أضعاف وإنَّ امتلاك 103 قرى مجاورة أضافت إلى العاصمة أهميَّة اقتصاديَّة وكذلك التقويم الذي يرجع تاريخه إلى عام (4240) ق.م فقد وجه إلى هيليوبوليس وكما يكتب العالم (كورت شيث) في كتابه «التاريخ الأساسي في الديانة القديمة للمصريين»

فإنَّ الشمس كانت تعبد في هيليوبوليس وتعتبر كأعلى وأقدم كائن الهي وكان أقدم إله رئيسي في مصر هو تشخيص النور وهو الإله (رع) الذي يعني (الشمس) وقد نشأ «رع» من الاتحاد الجنسي أي تزاوج الأرض والسماء «كب ونت» الأب الأرض والأم السماء وتتجدد حياة (رع) كل ليلة حتى إنَّه في كل صباح يولد (رع) ثانية وهذه أقدم نسخة للقصة.

أما في هيليوبوليس فيعتقد أن الشمس ليس لها أب أو أم وبدلاً من ذلك اعتقدوا أن الشمس تشرق وتظهر من خلف تلة، وتجلب الضوء والحياة والحركة إلى العالم وكان إله الشمس (رع) في هيليوبوليس يقابل الإله المحلي (أتوم) (الذي يعني الكل أو الكون) وكنتيجة لذلك فقد دعيت الشمس «رع ـ أتوم».

وقد صور (أتوم) كملك مصري يحمل رموز الحياة والشفاء بين يديه فقد بدأ (رع ـ أتوم) نشاطه بعمل فريد من أعمال الخلق فقد أوجد إله الهواء (شو) وإلهة الماء «تيفنوت» وذلك بأن سعل فاوجدهما في الحياة وهما بدورهما وطبقاً لرواية هيليوبوليس أنجبَا (كب) و«نت» أي الأرض والسماء وكلاهما ولدا بعد زواج واتصال جنسي.

وقد احتفظ (رع) لنفسه بمركز الخالق وأعلى قوة حاكمة طيلة التاريخ المصري ما عدا فترة قصيرة حل محله إله ممفيس (بتاح) وبعد الأسرة الرابعة صار ملوك مصر يحملون اسمَ (ابن رع) ومنذ حكم «خوفو» أصبح جميع الملوك الذين اختيروا للحكم من الأسرة الملكية يحملون اسم (رع) و(ددفرع) و(خفرع) و(ميكورع) وقد أتَتْ المملكة القديمة التي كان مركزها «ممفيس» حوالي القرن الحادي والعشرين ق.م وحلت طيبة مكان ممفيس وقد مد ملوك طيبة سلطتهم حتى (إبيدوس) ثم سنْت وأخيراً على جميع أراضي مصر وأسسوا المملكة المتوسطة حوالي عام 2850 ق.م والإله الذي ساعد ملوك المملكة المتوسطة على النصر هو الإله الصقر (مونتو) وهو إله الحرب ولكن في بداية المملكة الحديثة حوالي 1600 ق.م ظهر إله جديد حصل على السلطة والنفوذ في طيبة وهو أمون أي الخفي وهو إله نسمة الهواء الخفية وهو

أحد ثمانية الآلهة الأصلية في (هيرموبوليس) وقد بني له معبد ومذبح على تلة الخليقة في الكرنك.

وقد عاش أمون باسم (أمون رع) بعكس الآلهة الأوائل الذين كانوا رموزاً لعصر الفوضى فأنزل مركزهم إلى العالم السفلي الماضي. وكأحد الشعوب المستنيرة الواقعة الموجودة في التاريخ وجد المصريون القدماء بعض الصعوبات في تصور وتخيل آلهتهم. فأولاً نظروا إلى الثعابين والأسود في الصحراء وإلى بنات آوى التي تتربص القبور وإلى البقرات التي ترعى برفق وسلام ولكن وجد المصريون من الصعوبة بمكان أن يعزوا الصفات الإنسانية كاللطف والعنف والحب أو البغض والحماية أو العقاب لهذه الحيوانات. وهكذا وضعوا رؤوس حيوانات في أجسام إنسانية وبعد ذلك أصبح الصقر يستعمل جناحيه ليضرب أو يحمي وحتى التمساح أصبح قادراً على إنجاز الأعمال البشرية.

إنّه لمن المستهجن ربط الإيمان بعبادة الحيوانات وطبيعتها الإلهية فعبادة الحيوانات وجدت في جميع الحضارات المتطورة تقريباً ولكن معظم هذه الحضارات كانت تميل لنبذ معتقداتها الحيوانية كلما تقدمت وتطورت الأحوال العقلية والروحية ولكن مع الأسف لم يكن هذا ينطبق على المصريين. إن الرحالة الإغريقي الفيلسوف لوسيان يحكي قصصا غريبة حول الآلهة الحيوانية وعبادتها في مصر.

كانت المعابد المصرية فسيحة وجميلة ومبنية بالحجارة المكلفة ومزينة بالذهب واللوحات الزيتية ولكن إذا سألت عن اسم الإله الذي كرست له كل هذه الأشياء فإنَّهم سيخبرونك أن الإله هو قرد أو ثور أو كبش أو قط.

ثم هنالك الجغرافي الإغريقي سترابو يتكلم من الفيُّوم: «قرب مدينة التماسيح يعيش التمساح في بحيرة وهو أليف مع الكهنة ويسمونه (سوشس) ويطعمونه الخبز واللحم والنبيذ التي يجلبها له الغرباء الذين يأتون لزيارة التمساح وقد أرانا مضيفي وهو رجل من الأعيان الأشياء المقدسة هناك وذهب معنا إلى البحيرة.. وقد جلب معه كعكة صغيرة وبعض اللحم المشوي وزجاجة شراب العسل. وقد وجدنا الحيوان مستلقياً على الشاطئ وقد تقدم الكهنة وفتحوا فكيه وأدخل بعضهم الكعكة إلى داخل الفم وبعدها

اللحم وأخيراً صب شراب العسل خلال الحلق. وأما التمساح فبعد أن شعر بالشبع والتخمة قفز إلى داخل البحيرة ثم سبح إلى الشاطئ الآخر. وفي أثناء ذلك كان هنالك شخص غريب آخر قد أتى ومعه هدايا أخرى أخذها الكهنة منه وداروا حول البحيرة وبعد أن وجدوا التمساح دسوا له الطعام بنفس الطريقة».

ولا يفوتنا أن نذكر أن كلا الوصفين كتبهما المسافرون والسواح الذين لم يكونوا يعرفون الكثير عن هذه الديانة فقد كان إطعام الحيوانات على ما يظن يجري بابهة عظيمة وظروف معينة.

إن تفسير عبادة الحيوانات في الديانة المصرية القديمة تعتبر أن ما قد بدا كخرافة أو أسطورة تحول فيما بعد إلى تقاليد تاريخية. وحيث كان أفرد الشعب يقارنون الإله القمر بالثور (إيبيس) والآلهة (باسنيت) بالقطة فإنّهم فيما بعد انتقلوا من المقارنة إلى الدمج ولكن الحقيقة القائلة: إنَّ هنالك كثيراً من الآلهة لحيوانات ليس لها أي مماثل في الطبيعة هذه الحقيقة تأتي مناقضة للنظرية. وهنالك نقطة أخرى وهي أن الديانة المصرية تبرز كثيراً من الإلهة التي توجد في المدنيات الأخرى. وهكذا فقد كان (أمون) متحداً بالكبش وسيباك بالتمساح (وثوث) بإيبيس الثور «وباستيت» بالقط. ولهذا نجد أن هنالك قليلاً من الآلهة «الحيوانية النقية» فغالبيتها تملك طبيعة مزدوجة لها خصائص مزدوجة تقريباً.

الحيوانات المقدسة:

لقد عبد المصريون القدماء كل الحيوانات التي عرفوها وكان ذلك يشمل القطط والأسود والكلاب وبنات آوى والقرود والفيلة وفرس الماء والتمساح والمواشي والبقر والضفادع والسلاحف والثعابين والأسماك والجعلان والذباب.

ولكن كان هنالك تفريق ذكي في الاحترام والتبجيل الذي كان يقدم لكل فرد من أفراد الحيوانات هذه فبعضها كانت تعتبر مقدسة والأخرى كانت تعبد وكان هنالك ثور واحد يسمى «إيبيس» يعبد كإله وكان هنالك قط واحد إلهي في

(بوباستيس) وهنالك «كبش» واحد يدعى (أمون) في هيكل الكرنك وتمساح واحد في (كروكود يلوبوليس) أي حيوان واحد من كل نوع يعتبر الأعلى والأعظم ولكن جميع تلك الطبقة كانت محترمة إكراماً لرئيسها المقدس.

والحيوان الإله يندمج ويتحد مع آلهةِ عدة أقاليم فالثور (إيبيس) كان متحداً مع (بتاح) والكبش الطيبي متحداً مع أمون المولود حديثاً أما التمساح فكان متحداً مع الإله سيباك.

إن كل من يقتل حيواناً مقدساً حتى في حالة الدفاع عن النفس يعتبر مذنباً بانتهاك حرمة المقدسات التي كانت عقوبتها الموت. وإذا كان من الواجب والضروري ذبح حيوان فكانت تقدم القرابين السخية أولاً فقد اعتقد المصريون بإعادة التجسد للحيوانات (التقمص) (أي قدرتها على الرجوع بشكل آخر بعد الموت) وخافوا من انتقام الحيوانات الأخرى للحيوان المتوفَّى. وفوق ذلك فمن الواضح أن المصريين القدماء رأوا أقاربهم المتقمصين في الحيوانات التي كانوا يعبدونها. وهذا هو التفسير الوحيد المعقول لممارستهم بعض العادات والممارسات السيئة فقد روى هيرودوتس أنه رأى بأم عينيه امرأة تزني علنا مع كبش وكان من العادة جلب النسوة إلى العجل إيبيس. .

وقد روى الدكتور الفريد ويدمان الأستاذ في جامعة بون في كتابه (عبادة الحيوان عند المصريين القدماء): إنَّ كثيراً من الحيوانات الصغيرة كانت تحفظ في منازل خاصة وتعتبر كآلهة وتحفظ في أقفاص تشبه الكنائس الخاصة وتقدم لها الهدايا والتقاديم الأخرى وترى في مواكب يحيط بها الشباب المرتلين للعجل ايبيس أو أي حيوان آخر وهذه المناظر كانت شائعة ومحلاً للاحترام والتبجيل من قبل الجموع المتدينة المخلصة. وقد كتب الأستاذ ولديمان يقول: كانت المواكب الجنائزية الضخمة المترفة تنتقل في الشوارع لحمل الحيوان المقدس المتوفَّى إلى مثواه الأخير ولذا كان الحيوان محاطاً باحترام وتبجيل خاص فإنَّ قبره يوضع في بناء منفصل وهكذا ففي حوالي عام 1500 ق. م بنيت معابد صغيرة على مرتفعات مدرجة فوق مدينة الموتى في (صقارة) وكان الحيوان يحاط بالهدايا وقد وضع في مقره الأخير في قبره

الصخري تحت المعبد الصغير. وغالباً ما كانت هذه المخلوقات لا تدفن في مقابر منفردة ولكن في نقطة من الأرض تشبه بقعة دفن (إيبيس) في ممفيس حيث كان يخصص لكل حيوان حجرة تعتبر مقصورة لمثواه الأخير وكموطن سكن أبدي لروحه. وبالقرب من تلك القبور هنالك غرفة خاصة لجميع سكان القبور وكان من المعتقد أن قوة أرواح هذه الحيوانات الميتة عظيمة ولها تأثيرها حتى إنَّ رجال الدولة بما فيهم أحد الأمراء وهو ابن الفرعون (رعمسيس الثاني) قد أمروا بإعدادِ مثواهم الأخير وسط هذه القبور وذلك للتمتع بحماية هذه الأرواح المقدسة الإلهية.

ولكن أخيراً فضل المصريون استعمال قبور مشتركة جماعية بدلاً من بناء قبور جديدة للحيوانات فالمغاور الطبيعية التي استعملت كمقابر قديمة ونهبت جثثها وكنوزها في هذه المغاور استعملت كقبور جماعية للحيوانات وقد كومت مئات بل ألوف من جثث الحيوانات في هذه المغاور وعادة كان نوع واحد خاص فقط يدفن في كل موقع تبعاً للإيمان السائد بذلك الحيوان في المنطقة مثلاً كانت قبور (إيبيس) التي نهبت منذ عهد طويل توجد في (صقارة) وقبر التمساح العملاق في (منفلوط) وقبر القرد في «طيبة». أما في المناطق الأخرى فكانت جميع الحيوانات المقدسة الميتة تجر من جميع المناطق القريبة والبعيدة وتوضع بعضها مع بعض بغض النظر عن أجناسها وأنواعها.

إن قضية تأليه الحيوانات في مصر القديمة يرجع تاريخها إلى العهد الذي كان إنسان العصر الحجري يقف به عاجزاً أمام الطبيعة حوله. وفي ذلك الزمن كان يأمل أن يطعن الحيوان الذي يريد أن يقتله وذلك برسم صورته على جدران كهفه عندما كان الحيوان ذلك المجهول الذي لا يمكن فهمه أو التنبؤ به يبدو وكأنه شيطان.

تخصيص الإلهة:

بعد أن توحدت الأقاليم الكثيرة في إمبراطوريتين أصبح هنالك إفراط وزيادة في عدد الآلهة، فلم يكن بالمستطاع الاستغناء عن أي من الآلهة بل بدلاً من ذلك اصبح يعين لكل واحد منها وظيفة معينة فأحد الآلهة كانت وظيفته خلق الأطفال

وآخر كان للعناية بالموتى، وواحد مسؤول عن الزراعة وآخر عن الحرب وهـذا بـدوره سمح لكهنة الآلهة بجمع معلومات جديدة عن الناس الذين يتعاملون معهم وهكذا يزيدون في معارفهم ومعلوماتهم وفيما بعد عندما أصبح الفرعون قادراً على أن يمتص معرفة جميع الكهنة وعندما أصبح قصره مركزاً للمعارف التاريخية والمنجزات الفكرية فهل هنالك من عجب إذا رأينا الشعب يحترم الفرعون كأنه إله واسع المعرفة وعزيز القوة؟.

لقد ظهرت البدايات الدينية وانبعثت من مصر السفلى حيث كانت ممفس (وصقارة) و(هيليوبوليس) هي المراكز الدينية ففي ممفيس كان الإله بتاح ذو الرأس الأصلع والصولجان المتأرجح يتمتع بأعظم هيبة واعتبار وقد اعتبر بأنه الإله الخالق كما كان الإله (هيفاستوس) في الأساطير اليونانية وفيما بعد دُمج (بتاح) مع إله الموت (سوكاريس) الذي له رأس صقر وعندما جعل أوزريس سيد العالم السفلي نشأ إله ذو ثلاثة رؤوس بتاح ـ سوكاريس ـ أوزيريس. وأما آبيس الثور فكان ينتمي إلى بتاح.

وفي معبد الشمس هيليوبوليس كانوا يعبدون ثوراً اسمه منيفيس وأما الإله الرئيسي في هيليوبوليس فكان (رع) إله الشمس وكان يمثل باسم (رع هاراشتي) ويرمز إليه برأس الصقر وقرص الشمس (وحارشيت) هو بالطبع حورس الإله حامي دلتا النيل ومصر السفلى.

وكان أول مكان عبد فيه حورس هو (دمنهور) وبعد اتحاد الإمبراطوريتين العليا والسفلى أعطي إقطاعية أخرى في مصر السفلى وهي مدينة تدعى (أدفو) في تلك الأيام.

وطبقاً لرأي المؤرخ (ديودوروس نيكولوس) فإن حورس هو ابن ايزيس «وهي إلهة تشتهر بمهارتها في الطب» اشتغل كطبيب وساحر وكان يدعى رئيس الأطباء في منزل (رع) وهنالك قطعة من الفخار كبيرة موجودة في ستراسبورغ تحمل السطور التالية:

ـ إن كلمات (حورس) تغلب الموت بإبقاء كل من يقاتل لأجل كرامته حيا.

- إن كلمات (حورس) تجدد الحياة وذلك بجعل السنوات دائمة لا تنتهي بالنسبة لأولئك الذين يزورونه.
- إن كلمات حورس تطفئ النار وتعاويذه تشفي المحمومين.
- إن كلمات حورس تنقذ الرجل الذي يقف القضاء والقدر له بالمرصاد.
- إن كلمات حورس السحرية تجعل الإنسان يتفادى ضربات القوس وذلك بجعل السهام ترجع إلى الوراء.
- إن كلمات حورس تبعد الغضب وذلك بتهدئة الحواس.
- إن سحر حورس يشفي المرض.

وأما الأسطر الأربعة الأخيرة فإنّها لم تحفظ تماماً ولكن التأكيد على قوة كلمات حورس ورقابته السحرية واضح تماماً.

وأما حاثور الإلهة الكبرى المعبودة في مصر العليا حيث كانت تعرف باسم (البقرة الأولى بين جميع البقر) وصورها تظهرها كامرأة وسيمة لها أذنا بقرة وقرناها وأحياناً كانت ترسم صورة الشمس الغاربة بين قرنيها وكانت هي إلهة (الغرب) حيث ترتاح الشمس فوق سلاسل الجبال قبل أن تختفي بينها وذلك لكي تمكن الأموات من دخول العالم السفلي وكانت منافسة حاثور الكبرى هي (موت) وهي تجسيد لروح الأمومة وكان مركز نفوذ (موت) في طيبة حيث كانت تعبد كآلهة للحرب وتظهر هناك برأس أسد وقد رفعت لتكون زوجة للإله أمون. ولكن ممفيس كانت تبرز الإلهة العظيمة (ساكميت) التي كان لها رأس لبؤة أيضاً كيما تناسب إلهة الحرب التي يمكن أن تنفث النار على الأعداء عند اللزوم وأما في الرسوم فإن الإلهة (ساكميت) كانت تختلط مع رسوم (باستيت) الإلهة ذات رأس القطة مع أن شخصيتي تينك الإلهتين وأهميتهما متعارضتان تعارضاً مباشراً فباستيت (بالنسبة لبلدة باست) كانت تجسد الفرح والبهجة وليس الحرب وإنَّ تعدد الإلهات الإناث والوظائف التي أنيطت بهن ما هي إلا دلالة على أن المرأة كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في المجتمع المصري القديم.

والحقيقة أن سيت وحورس الإلهان الحاميان لمصر العليا والسفلى احتلا منزلة خاصة في التاريخ الديني المصري. فالمقطع 222 بنصوص الأهرام التي تحتوي أيضاً طقوس التتويج في (هيليوبوليس) هذه النصوص تؤكد التقسيم فأصبحت الإمبراطورية الشمالية تابعة لحورس والجنوبية تابعة (لسيت) وهكذا كانت مصر العليا تقول للملك «إنّ سيت قد أعطاك مقره» وأما مصر السفلى فكانت تقول «إن حورس قد أعطاك عرشه» وكانت الشلالات في الألفنتاين تعتبر أنها انهمار الإله سيت أما مصب النيل في البحر المتوسط فهو انهمار حورس.

وفي أول الأمر كانا عدوين ولكن بعد توحيد الإمبراطورية أصبحا أخوين مع أن (حورس) كان دائماً يعتبر أنه هو السلطة العليا.

ولو لم يكن (سيت) إلهاً فمن العدل أن ندعوه الشخصية المأساوية وذلك بسبب التشوهات الجسمانية فيه فقد كان يصور كحيوان ولكن من الصعب تحديد نوع ذلك الحيوان فعلماء الآثار قد اختلفوا في تحديد هويته وتجسيدها فالعالم (إيدمان) يمثله كحيوان إفريقي يشبه الزرافة ولكنه غير طويل العنق وأما (سكونيفورث) فيدعوه بآكل النمل (أبو ذقن) وأما نيوبري فيدعوه بالخنزير ذي الثآليل. وأما فون بسنغ فيدعوه بالزرافة وأما ما سبيرو فيدعوه بالجربوع ومن المظنون أنه كان فيه صفة من كل هذه الحيوانات المذكورة أعلاه. وكان (لسيت) عينان حمراوان. واللون الأحمر بالمقارنة مع اللون الأخضر المبارك هو لون الشر.

وليس هنالك أي تفسير مناسب لتلبس (سيت) برأس حمار ومن المظنون أن تلاميذ حورس صوروا «سيت» بهذه الصورة على شكل كاريكاتور ولكن هذا الكاريكاتور أي (سيت) برأس حمار أعجب الجمهور واحتفظ به سيت حتى بعد عصر توحيد الإمبراطورية ولكن الفراعنة كانوا مندمجين بحورس وقلما اندمجوا مع (سيت) وعندما كان الفراعنة يسجلون انتصاراتهم باللغة الهيروغليفية كانوا يصورونه بصورة صقر مرسوم على شارة من ذهب فالصقر هو (حورس) وأما الذهب فهو يرمز إلى الإله من (أومبوس) وهو (سيت).

وبينما كان سيت لا يتمتع بكثير من الحب فإنّ (ثـوث) كـان لـه خـط عظيـم فـي هذا المضمار فثوث الذي يحمل رأس الثور (إيبيس) أتى من دلتا النيل وكان يعتبر إلـه القمـر ولكـن ربمـا أن المصريـين رأوا القمـر ينمـو ويزداد ثـم يعـود ويضعـف ويشـحب فوجدوا به تمثيلاً للنظام فاعتبروا (ثوث) رياضياً وكاتباً للإلهة ولكن لا أحد يعلـم لماذا كانوا يصورونه بشكل قرد ضخم قبيح المنظر.

ولكـن (ثـوث) لـم يكـن يخلـو مـن منافسـين كإلـه القمـر ففـي طيبـة كـان الإلـه (تشونز) يقوم بذلك العمل الروتيني وكان لمعظم الإلهة في مصر مثل هـؤلاء المنافسـين حتى إله الموتـى العظيـم أوزيريـس وزوجتـه (إيزيـس) اضطـرا لمحاربـة وخلـع كثيـر مـن الآلهة الأخرى قبل أن يصبحا الحاكمين المطلقين للعالم السفلي. وقد أتى (أوزيريس) من (بوصير) حيث عبد لأول مـرة هنـاك ومـن المظنون أنه كـان أحـد الملـوك فـي فجـر التاريخ وقد سبب موته الإيحـاء بسـفر كـامل مـن أسـفار علـم الأسـاطير. وفـي بدايـة الألـف الثـالث ازداد نفـوذ أوزيريـس فـي مصـر أولاً فـي ممفيـس حيـث امتـص أهميـة سوكاريس وبعد ذلك امتد نفوذه إلى إبيدوس حيث حل محل الإله الأول فـي الغـرب واصبح إله الموت المعبود حاكم العالم السفلي.

وفي بلدته الأصلية (بوصير) كان أوزيريس يصور كعمود لـه تـاج مضلـع وهـذا شعار يعني بالكتابة الهيروغليفية «الدائم أو الأبـدي»، فـالموت أبـدي ودائـم. وتظـهر الصورة والتماثيل أوزيريس كمومياء لها وجه أخضر لأنه عاش وأخضر وقد لبس تاج الفرعون وحمل شارة السلطة وهي صولجان ومروحة يدوية.

ويضطجع أوزيريس تحت الأرض والعالم كله فوقه وعندما يتحـرك تتحـرك الأرض وتنمو النباتات من جسمه وتحوله إلى قمح جديد وبما أن المـاء ينسـاب مـن قدميه فقد أصبح (المطر الجديد) وكان النيل هو من تعرق يديه. كل هذه المعتقدات جعلت من أوزريس إله النظام الطبيعي فهو الذي انبعث كـأرض خصبـة مـن تحـت مياه النيل أثناء الفيضان وكان هو إلـه الحقـول الخضـراء والخريـف المائت والواعـد بالحياة المتجددة في الربيع القادم.

وكان لأوزيريس بصفته إله الموتى ثلاثة مرافقين لهم رؤوس كلاب وهم (أنوبيس) حارس الموتى والأخوان (أبنات) وهما رفيقاه في المعارك ولكن أوزيريس كان ضحية آلهة القضاء والقدر الأشرار وتقول الأسطورة: إن (سيت) قتله ولكن (حورس) ابنه انتقم لوالده وبعد ذلك عاد اوزيريس واستيقظ ليمارس حياة جديدة وقد أصبحت هذه الأسطورة نموذجاً للعناية المتزايدة بالموتى فكان من واجب الابن أن يجهز قبر والده ويرعى ذكراه ويتحول إلى خلف صالح ولقد اتبع هذا التقليد بشكل حرفي حتى إن بعض النبلاء الأموات انتحلوا اسم اوزيريس وكانت الأمهات تندبهم ويسمين أنفسهن باسم (نات) وزوجاتهن يسمين أنفسهم (إيزيس).

كان أوزيريس يضع ريشتين وهما رمز للشرف الملكي وكانتا رمزاً لقدرة الإله المحلي للإقليم التاسع في مصر السفلى وقد اندمج الإله المحلي هذا بأوزيريس ونتيجة لذلك أصبحت عاصمة الإقليم تدعى (بيت أوزيريس) واليوم تدعى (أبو صير).

محاكمة الموتى:

إن كل من فارق الحياة عليه أن يواجه محاكمة أوزيريس، وكان هذا يجلس في قاعة بين آلهتي العدالة يحيط بهما اثنان وأربعون شيطانا يحملون المدى والسكاكين. وكان هؤلاء الشياطين من أكلةِ الظل واللهب وأكلةِ الدم وكان كل واحد منهم يمثل واحداً من اثنين وأربعين من الخطايا والذنوب المحتملة الوقوع بين البشر وكان على الشخص الميت أن يبرهن أنه لم يقترف في حياته هذه الذنوب وإذا نجح في ذلك فإن الشياطين لن تهاجمه.

وبعد أن يثبت الميت براءته يأخذ (حورس) هذا القادم الجديد بيده ويقدمه إلى والده أوزيريس كعضو جديد في العالم السفلي وقد أجريت بعض الإحصاءات عن عدد الأشخاص الموجودين في العالم السفلي في مصر القديمة فوجد أن العدد يتراوح بين 150 إلى 200 مليون في الفترة الواقعة بين مصر القديمة والإمبراطورية الحديثة.

وقد ظل الدين المعترف به قائماً طيلة هذه المدة فيما عدا مدة واحدة وهي خلال القرن الثالث عشر ق. م عندما ألغى الفرعون أمنحوتب الرابع تعدد الإلهة لمدة عشرين عاماً ودعا نفسه (أخناتون) ولم يسمح إلا بعبادة إله واحد هو (أتون) والان دعنا نبحث كيف حدث هذا التغير الرئيسي في تاريخ الديانة المصرية.

إنّ فكرة أتون بدأت بالظهور في المملكة المتوسطة كعلامة أو لقب مميز (لنجمة الصباح) فقد قيل عن التماثيل الملكية في معبد أمنحوتب الثالث في طيبة أن هذه التماثيل تسطع ببريق يفوق لمعان السماء ووجوهها مشرقة كوجه أتون المتوهج في الصباح. وكانت (أتون) نجمة الصباح بالطبع هي الشمس وليست من اختراع أخناتون.

إنّ (والتر ولف) الذي درس خلفيات الإصلاح الديني الذي قام به أخناتون قد دقق بترانيم الإله الشمس بعناية فائقة وقد خلص إلى الفكرة بأن كلمات وعبارات هذه الترانيم كانت أقل أهمية من الروح التي تمثلها تلك الأغاني والترانيم.

ولو ظهرت فكرة الإصلاح أثناء حكم أمنحوتب الثاني لكانت أظهرت على الأقل بعض العناصر التي وجدت في ترانيم (تل العمارنة) (عاصمة أخناتون فيما بعد) وهي التعابير الواضحة للدين الجديد. ولكن وجد (ولف) أن الأفكار القديمة التي كان المصريون يحفظونها عن الشمس منذ أقدم الأزمنة لم تزل سائدة. وفي تلك الترانيم نجد آتون و(حاراست) وتشير جنباً إلى جنب وفوق ذلك كان هنالك ذكر مبتكر لصورة إله الشمس القرد.

كما تختلف الترنيمة لإله الشمس التي نقشها (حورس وسيت) وهما بنّاءان اشتغلا أثناء حكم أمنحوتب الثالث على إحدى الأعمدة التذكارية أن مجرى الأفكار في تلك الترنيمة يشبه أفكار ترنيمة (آتون) وفي البداية هنالك مقطع تظهر فيه قوة تأثير الفكرات القديمة وبعد ذلك يذكر استيقاظ الحياة عند شروق الشمس وتقول الأبيات من السطر الخامس حتى السابع من تلك الترنيمة ما يلي:

عندما تظهر في الصباح يبدأ عمل الصباح في التشكل وعندما تظهر في جلالك وهيبتك فإن النهار يكون قصيراً فأنت تكتسح السماء في رحلة تبلغ ملايين ومئات الألوف من الأميال وإنَّ الزمن أسفل منك فأنت تستيقظ لتشرق في الصباح وإن أشعتك المشرقة لتفتح العيون.

قارن هذه الكلمات بترنيمة آتون:

إن الأرض تصبح لامعة ومضيئة عندما تشرق على جبل النور وعندما تشرق أنت يا آتون بطلعتك تطرد الظلام. أنزل علينا أشعتك السماوية فتنتشي الأرضون بالسرور والغبطة ويستيقظ البشر ويقفون على أقدامهم فأنت الذي سببت استيقاظهم ونهوضهم فهم يغسلون أطرافهم ويلبسون ملابسهم ويرفعون أذرعهم بالدعاء والعبادة لأنك تنير لهم السبيل وكل الأرض تعمل لمرضاتك.

لم يكن آتون شيئاً جديداً:

كتب (جورج مولر) وهو أحد علماء التاريخ المصري من برلين دراسة يؤرخ بها النصوص الأدبية الصادرة عن النصف الأول للملكة الحديثة ويقول فيها: إنَّ الترنيمة المذكورة أعلاه قد كتبت خلال حكم أمنحوتب الثاني أو تحوتمس الرابع ولكن من المؤكد أنها قد كتبت قبل اعتلاء أخناتون العرش.

ولكن ولتر وولف حلل الترنيمة كما يلي: «تبدو بأنها مجموعة متراكمة من الترانيم وبها شخصيات رئيسية مختلفة مثلاً: شخصية (أمون رع) من الكرنك (مين - أمون) (آتون تشيبر) من هيلوبوليس والهارشتي وكان هذا الإله يعتبر ملك الإلهة وذلك نظراً للإشادة بتاجه وصولجانه وأعماله الأسطورية في الأغاني أو بواسطة تكريم الإله وخلفه. وكانت ملاحظة الطبيعة بسيطة وتظهر اقتراباً من الطبيعة وهذا ليس بغريب على أولئك الذين يعرفون رسوم القبور المصرية التي تظهر في هذا النص كقضايا جديدة وغير عادية».

قارن البيت الآتي: أنت أنت الواحد الأحد الذي خلق جميع المخلوقات الوحيد الذي كان وما يزال واحداً وهو الذي خلق جميع المخلوقات.

هذه هي ترنيمة أمون أما ترنيمة أتون فهي تمدح الخالق وتقول: أنت الإله الوحيد لا إله غيرك. لقد خلقت هذه الأرض حسب رغبة قلبك أنت الإله الواحد ولا إله غيرك.

وبينما نرى أن أمون يُمدح لكونه الواحد الذي خلق الأعشاب التي ترعاها الماشية والواحد الذي يعطي الهواء للفراخ وهي في البيضة نرى ترنيمة أتون لمنحه الفضل لجعله جميع المواشي تعطي الشكر على العلف وأن أتون هو الذي منح الهواء للفراخ وهي في البيضة ويظهر مما تقدم أن ديانة أخناتون لم تكن دينا جديداً ابتدعه شخص واحد وفي الحقيقة إن بعض علماء التاريخ المصري بعد أن درسوا بعض الوثائق التي تعود في زمنها إلى حكم أمنحوتب الثالث كان تخمينهم بأن أمنحوتب الثالث هذا لم يكن مبتدع الإصلاح ولكن هذه النظرية أيدتها نقوش مصرية موجودة في متحف برلين الآن وهي تصور أمنحوتب الثالث يقدم القرابين للإله أتون فلربما أنّ أمنحوتب الرابع أو أخناتون لم يكن هو المبادر الأول للإصلاح، أن تلك النقوش واضحة وحقيقية تماماً ولكن هنالك سر لم يكتشف إلا بعد أن نشر (هنريخ شاخر) كتابه عن الفن المصري عام 1963 فقد أثبت (هنريخ شاخر) أن الحجر المنقوش عليه هذا الرسم قد لعب به بعد سنوات من نقشه وبعد موت أمنحوتب الثالث بقليل قام أصحاب الإصلاح العتيد بمحو صورة الإله الذي كان منحوتاً ونحتوا بالأزاميل صورة الإله أتون.

إنّ الدور الذي لعبته والدة أخناتون وهي (تيجي) في الإصلاح الديني المصري لا يزال موضع جدل ومن المؤكد أنها وهي زوجة أمنحوتب الثالث قد رسمت صورتها مراراً عديدة على الانصاب والتماثيل أكثر من أية زوجة فرعون آخر وهذا دليل واضح يثبت أهميتها إذ يجب أن تكون قد أثرت بفكرتها الدينية على أخناتون

ولكن لا نعرف بأي اتجاه فلم يرد أي ذكر (لتيجـي) فـي أي تسـجيلات أثنـاء السنوات الحرجة من حكم أخناتون عندما نقل مقره الملكي إلى (العمارنه) وذلك لتعزيـز عقيـدة أتون ولـم تظهر صورها إلا بعـد العـام الثـامن مـن حكـم أخنـاتون وبعـد ذلـك ظـهرت الصورة في قبر خازنها السابق ومن الظـاهر أنـها عاشـت كأرملـة فـي مدينـة (روراب) ولـم تنتقل إلى العمارنة بل عاشت بقية حياتها هناك.

وجد رقيم مكرس لأوزيريس وهو إله الموتى في الدين القديم في مدينة روراب وهذا أدى إلى الافتراض بأن (تيجي) ظلت تتمسك بالدين القديم ولكن نعود ونقـول إنَّه ليـس مـن الضـروري أن تكـون هـذه الفرضيـة موثوقـة فمـن الممكـن أن يعمـد أحـد الكتـاب أو الكهنـة إلـى تزييـف هـذا الأثـر لأنـــه فـي أثنـاء حكـم أخنـاتون لـم يعـد (لأوزيريـس) أي نفوذ إذ لـم يكن هنالك إلا إله واحد هو (أتون) وهـو قـرص الشـمس وقد قبل الناس الذين ترعرعـوا علـى الديـن القديـم، قبـل هـؤلاء الديـن الجديـد علـى مضض ولـم يعارضوا الإصلاح فـالفكرات التـي آمـن بـها كهنـة الديـن الجديـد ودفعـوا امنتحوتب الرابع إلـى اعتناقـها كـانت فكـرات ذكيـة لـم يسـتطع عامـة الشـعب قبولـها بسرعة ولكن أخناتون لم يهتم بتذمر الشعب كما أنه لـم يـهتم بـالروح العدوانيـة التـي قابل بها كهنة الدين القديـم هـذا الإصـلاح. وأمـا عامـة الشـعب فلـم يسـألها أحـد أن تتدخل لأنهم كـانوا يعتبرونـها غبيـة تعوزهـا الكفـاءة لمقاومـة الفرعـون وقـدرة حـرس قصره الأذكياء فطبقة الكهنة كانت طبقة بيروقراطية يمكن استبدالها بطبقـة أخـرى عنـد الرغبة والحاجة. وأخيراً ترك الفرعون الجديد مدينة طيبة وهي مدينة الإلـه أمـون تلـك التي أهملت وبدأ نجم العمارنة يسطع.

أن التطور الديني كان له أساس دنيوي أيضاً فكـان المصريـون قـد طـردوا حكـام الهيكسـوس المكروهين وطـاردوهم إلـى فلسـطين وفـي بدايـة القـرن الرابـع عشـر ق.م باشر الفرعون تحوتمس الثالث الفتوحات التي حملت الجنود المصريين إلى خارج مصر بحيث وصلوا إلى ضفاف دجلة والفرات وبدأت أفواج العبيد تتوارد إلى مصر وبدأت

الخزينة تستلم أموال الجزية المضروبة على الأمـم المغلوبـة وهكـذا توسـعت دائـرة آفـاق العالم المصري بشكل لم يسبق له مثيل .

بـدأت المعلومـات والعلـوم الجديـدة تـرد مـن البلـدان المستكشـفة حديثـاً فـالنيل المقدس وهو شريان الحياة بالنسبة لمصر لم يكن محصوراً بمصر فقط فالأراضي الجبليـة أيضاً كما كانت تقول ترانيم أتون كان لـها نيـل فـي السـماء وهـذا النيـل ينحـدر إليـهم ويجلِبُ المياه والطوفان للجبال ليزيد في خصب الحقول .

اكتشف المصريون أن هنالك شـعوباً أخـرى لـها ملـوك وكهنـة تسـيطر علـى كـل شيء؛ وتوجه كل شيء .

حكم أمنحوتب الرابع (أختاتون) لمدة تقل عن عشرين عامـاً وعندمـا مـات فـي عام 1358 ق . م مات دين (أتون) معه فقد نقل توت عنخ أمون مقـر الفرعـون مـن تـل العمارنة وقفل راجعاً إلى طيبة حيث عادت سلطة الآلهة القديمة إلى سابق عهدها .

أموات من الأسرة الثامنة عشرة

هنالك لدى المؤسسة الدولية للأبحاث النفسية في لندن ملف به أسطوانة صنعت في أيار عام 1963 ، وهذه الأسطوانة سجلت بها أصوات صادرة عن الحنجرة تدل بوضوح أنها صوت امرأة ويسمع الصوت في هذه الأسطوانة يقول «إيوثوبيا» .

هذه الأصوات تشبه أصوات لهجات إفريقية وطنية ولكن لو كان الأمر كذلك لما تكلف علماء لندن مشقة تسجيلها فهذه الأصوات الغريبة هي جزء من لغة لم يتكلمها أحد منذ حوالي (2500) عام، فهي جملة مصرية قديمة معناها (أنا هرم جداً) ولكن هذا ليس هو المظهر المثير والغريب الذي لا يصدق بالنسبة لهذا الأمر فالجزء الذي لا يصدق منه هو أن كلاً من اللغة والصوت أَتَتْ من عهد الأسرة الثامنة عشرة المصرية ولفظته امرأة وهي معلمة في مدرسة ليفربول أثناء غيبوبة أصيبت بها حديثاً في عصرنا الحاضر ولكنها كانت تحت تأثير امرأة عاشت قبل (3500) سنة تقريباً، وهذه العملية تدعى (التكلم بلسان أجنبي أثناء النوم) وبدأت هذه القصة تجذب انتباه العلماء مؤخراً.

ما هي هذه الظاهرة؟ فالكلمة (Xenoglossy) مؤلفة من كلمتين يونانيتين والكلمتان معناهما الكلام أثناء النوم والغيبوبة بلغة أجنبية لم يعرفها المتكلم أبداً.

ويعتقد علماء التخاطر النفسي أن من متطلبات هذه المقدرة التوتر النفسي والإثارة العقلية. وبما أن هذه الظاهرة قليلة الحدوث لذلك لم يعطِها العلماء حقها من

البحث والتمحيص وإنَّ أقدم ذكر مكتوب لهذه الظاهرة موجود في تاريخ الرسل المسيحيين (الكورنثيين رقم 12) ففي أثناء انفعالهم برسالتهم بدأ الرسل فجأة يتكلمون اللغات الأجنبية ففي عام 1634 كانت الراهبات في إحدى أديرةِ لندن يتكلَّمْنَ اللاتينية واليونانية والتركية والإسبانية وهن في حالة غيبوبة. وفي منتصف القرن الماضي قدمت (لورا أدموندز) مثالاً ممتعاً لهذه الظاهرة عندما بدأت تتكلم اليونانية الكلاسيكية دون أن تعلم ماذا كانت تفعل.

إن المقدرة الغريبة للسيدة (ب) التي لم ترغب في كشف اسمها الحقيقي لأنها كانت تشتغل بالتعليم ولكنها اتخذت لنفسها فيما بعد اسماً مستعاراً هو (روز ماري) هذه المقدرة الغريبة اكتشفت صدفة فقد قابلت في مدرستها أستاذ الموسيقى ويدعى الدكتور (فردريك هربرت وود) الذي كان يشتغل في الدراسات النفسية التخاطرية وقد كتب الدكتور (وود) يقول: «إن اهتمامنا المشترك كان الموسيقى فقط ولم يكن للسيدة (ب) أي اهتمام بعلم النفس التخاطري ولم تكن مهتمة بأبحاثي على الأقل حتى ذلك اليوم في فصل الخريف عام 1927 عندما وقفنا معاً وبدأت المعلمة فجأة ترسم أحرفاً غريبة على قطعة من الورق، وقد كان من الواضح كما كتب الدكتور (وود) فيما بعد «أنّني وجدت مايدعونه بالوسيط الكاتب» ولم يدرك الدكتور (وود) حينها أن السيدة «ب» قد فاهت بكلمات مصرية قديمة ولكنه شكل تلك الشبهة فيما بعد وبالتدريج وأخيراً التجأ إلى عالم الآثار المصرية الدكتور (الفرد هوارد هولم) الذي استطاع أن يعين هوية العلامات الأولى.

تتبع الدكتور (وود) كتابات السيدة (ب) وهذا العمل لم يستغرق أكثر من عشرين دقيقة وذلك بعين العالم المدقق البصير. وبعد ذلك وفي 8 آب عام (1931) أجريَتْ تجربة أدت إلى فتح آفاق جديدة وللمرة الأولى بدأت السيدة «ب» تلفظ أصواتاً غريبة تشبه (آه ـ بيت ـ زولا) وكانت هذه الكلمات تعني (لقد سمعت شخصاً ما يقول شيئاً ما) وكانت هذه الأصوات غير واضحة ومن الصعب تمييزها

حتى إنَّ علماء الآثار المصرية وجدوا بعض الصعوبات في كتابة ما قيل ، ولكن أثناء التجارب التي امتدت بضع سنوات استطاع الدكتور وود والدكتور (هولـم) أن يطوروا طريقة جعلتهما قادرين أن يترجما الأصوات المدونة أثناء التجربة خلال بضع ساعات .

كيف يتسنى لامرأة أن تعيد لفظ جمل كانت تتوارد في خاطر شخص ما قد مات منذ (3300) سنة تقريباً؟ .

قالت السيدة «ب» :

«إنني أشعر أن هذه الجملة وكأنها لغة غير مسموعة وأحس أنها تتشكل في جزء مختلف من أجزاء الدماغ غير الجزء المخصص للكلام ويستطيع المرء أن يفترض أنها تحدث في مكان ما بين الدماغ والجمجمة» .

كانت الكلمات تنساب بسهولة عندما لم تكن تفكر بشيء أكثر مما لو كانت تفكر في مسألة ما أو في أمر ما .

وقد وصفت هذه الحالة بمايلي : «إن الشخص إذا أراد أن يتكلم فيجب أن يصوغ أو يكون فكرة . وعندما يتكلم الصوت الداخلي لا أفكر بشيء تتحرك وتتشكل الكلمات ولكني لا أستطيع أن أقول كيف يحدث كل هذا ، وأنت عادة تتذكر ما تقوله على الأقل لفترة قصيرة من الزمن ولكني لا أستطيع أن أتذكر أي شيء أقوله وأنا في الغيبوبة فلا أستطيع أن أكرر ما قلته ولا أستطيع أن أعبر عن الفكرة ومحتوياتها مرة ثانية» .

وقد حاول الدكتور (وود) أن يتأكد من صحة هذه الأقوال وذلك بإعادة نفس الأسئلة بعد أشهر وبعد سنوات وكانت الأجوبة التي استلمها متطابقة مع الأجوبة السابقة ولكن بكلمات مختلفة .

وقد شرح الدكتور (وود) أيضاً أن تجاربه كانت تقاطعها مؤثرات خارجية مثل ضجيج أزيز الطائرات والموسيقى الصادرة عن الراديو وأصوات السيارات

المارة. وقد أكد (وود) أن مثل هذه التجارب يلزمها الهدوء التام وذلك لتجنب أي تشويش وهذه التجارب التي استغرقت عشرات السنين توفر أثناءها الهدوء الجسماني والعقلي التام.

وقبل بدء التجارب كان (وود) والسيدة «ب» يجلسان متقابلين مدة تمتد بين دقيقتين إلى خمس دقائق وهما يكتبان، وبعد ذلك كان «وود» يدون بعض الأفكار أو الأسئلة في الوقت الذي كان يضع به المرأة في حالة غيبوبة بواسطة التنويم المغناطيسي وهذا ما يجعلها قادرة على فهم أفكاره المجردة دون أن ينطق بأي كلمة..

طليقة المرأة الرابعة للفرعون أمنحوتب الثالث:

استغرق «وود» و «هولم» ثلاث سنوات لاكتشاف اسم صاحبة الصوت الذي يصدر عن السيدة «ب» وقد ذكر الصوت اسمها مرة في يوم 5 كانون الأول من عام 1931 خلال لفظها سلسلة تتألف من (28) جملة مصرية وقد استطاع «هولم» ان يترجم جميع الكلمات ما عدا كلمة «فينتيو» وبعد ستة أسابيع لفظت السيدة (ب) اسماً آخر هو «طليقة» وكررت الاسم السابق (فينيتو (Ventiu)) وبعد ستة أشهر ظهر كلا الأسمين في محادثة أثناء الغيبوبة وكان هذا نوع من اللغز بالنسبة لعلماء الحضارة المصرية وذلك لأنه في الماضي كان الاسم الملفوظ هو (نونا) ومعناه الشخص الذي لا اسم له.

ولكن حدث في 6 حزيران 1935، أن كشف الصوت عن حقيقة تلك المرأة فقد كان الاسم هو (طليقة) وقد ولدت هذه في بابل ولكن عندما حضرت إلى مصر أعطيت اسم (فينتيو) وقد تحدثت عن نفسها باسم (نونا) وذلك لأن اسمها لم يكن له مكان في التاريخ المسجل.

يعلم علماء الحضارة المصرية أن الرقيم الذي وجد في قرية (تل العمارنة) عام 1886، احتوى بين أشياء أخرى على المراسلات بين أمنحوتب الثالث وملك بابل

(قاداش مان غنليل) فالفرعون كان قد تزوج اخت (قاداش مان إنليل) ولكن لم يعرف اسم الملكة.

كانت زوجة أمنحوتب الثالث الأولى هي (تيجي) وهي والدة أمنحوتب الرابع الذي اتخذ لنفسه اسم (أخناتون) فيما بعد وتذكر رقم تل العمارنة ثلاث زوجات أخريات للفرعون وهن الأميرتان (جيلوشيبا وتادوشيبا) فضلاً عن أخت الملك البابلي التي لم يسجل اسمها وهذه المرأة من الواضح أنها (طليقة) صاحبة الصوت وقد ورد اسمها في رسالة بعث بها (قاداش مان) إلى أمنحوتب يخبره عن استغرابه لأن الفرعون يطلب الآن الزواج من ابنة الملك البابلي بينما هو لا يزال متزوجاً أخته أي أخت الملك البابلي ثم يقول «ولكن لا أحد قد رأى أختي فهل هي حية أم ميتة، لقد قلت لرسولي وزوجاتك واقفات أمامك: «انظر إلى سيدتك وهي واقفة أمامك ولكن رسولي لم يتعرف عليها فهل كانت أختي يا ترى»؟.

إن الشك الذي أنتاب ملك بابل كان له ما يبرره وذلك أن طليقة لم تكن حية حين وصول الرسول وأن الفرعون كان يريد أن يعيد عدد الزوجات الأجنبيات إلى الرقم السابق بإضافة ابنة الملك البابلي. فقد كانت طليقة مكروهة جداً في بلاط الفرعون وكانت الملكة (تيجي) تشك وتغار من نفوذ (طليقة) على الفرعون وكان كهنة أمون الفاسدون يخشون أيضاً من تعاطف (طليقة) مع الدين الجديد (دين الإله آتون) الذي أعلنه أخناتون بعد بضع سنوات ليكون دين الدولة الرسمي.

لا ينبغي أن نقلل من تأثير الأميرة البابلية ونفوذها لأنها بصفتها زوجة الفرعون كانت (أتوماتيكياً) لها وظيفة كاهنة ومن الواضح أن (طليقة) كانت شديدة الانتقاد لمكائد الكهنة والسحرة ولهذا السبب فقد كانت تنظر بعينِ العطف للدين الجديد.

ومن مركزها ككاهنة بدأت (طليقة) تصرح بتفاصيل ممتعة تاريخية فقد أخبرت عن نفوذ الكهنة فقالت «أعلم أن السلطة العظمى التي يمارسها الكهنة قائمة على الخرافات وهذه الخرافات تسمح للكهنة بالسيطرة على الشعب فالشعب يتحاشى قوتهم».

وفي 26 تشرين الأول عام 1935 أكدت (طليقة) التي كانت تتكلم بلسان السيدة «ب» النظرية التي قدمناها في هذا الكتاب فقد استعمل الكهنة الكبار علوماً مؤسسة على السحر والشعوذة كعلم التخاطر فكانوا يتنبّؤون بالمستقبل ولم تكن معلوماتهم السحرية مكتوبة ولم يكن أحد يعرف عن هذه الأشياء سوى كبار الكهنة.

وفي المعابد حيث أطلق الكهنة العنان لأعمالهم ورغباتهم السرية يسود الصمت المطلق وفي الحرم المقدس الداخلي حيث لا يسمح إلا للكهنة بالدخول كانت الستائر الكثيفة تكتنف المكان وتمنع العيون من اختلاس النظر وقد كان الكهنة يحلقون شعورهم وحواجبهم، ويمشون وهم عراة إلا من قطعة من جلد الأسد وكانت هناك موسيقى متناغمة تعزفها أدوات نحاسية وقيثارات لخلق جو ثقيل الوطأة أثناء الاحتفالات.

وكذلك قد أثبتت (طليقة) بطلان الخرافة التي تقول: إنَّ الأهرامات قد بنيت على حساب القوة البشرية غير الإنسانية فالنصوص التي ذكرتها السيدة «ب» أثناء غيبوبتها تكشف الحقيقة وهي أن المصريين استعملوا عدة أنظمة من العتلات والبكرات استطاع الرياضيون وعمال الإنشاءات أن ينقلوا قطعاً من الصخور تزن عدة أطنان إلى علو أكثر من مائة متر لبناء الصروح الضخمة العالية ولم تكن هنالك من حاجة إلى استعمال الآلات المعقدة ولكن كانت تجري قياسات دقيقة لتوازي العتلات والأوزان وقد قالت «طليقة»: إن رجالنا الحكماء في مصر يملكون معرفة ستكون ذات قيمة لا تقدر بثمن لعالمكم إذا استطعتم استعادتها والاستفادة منها.

وقد ذكرت (طليقة) أن المصريين أنتجوا الكهرباء من الهواء ولكنهم لم يستعملوها لأجل الإضاءة بما يشبه حاملات المصابيح الجدارية.

وفي 30 أيار عام 1936 صرحت (طليقة) من خلال وسيطتها السيدة (ب) بمايلي:

«أود لو أستطيع أن أخبركم حول النوع الراقي من الحياة الذي لنا تماس به في العالم الآخر ولكني أجد أنه من الصعب أن أصف ذلك. ولقد تعلمنا أشياء كثيرة

أخرى ولكن من الصعب أن نتّصلَ بكم كما أنه من الصعب أن تتصلوا بنا، ومع ذلك فإن أرواح الأموات يمكن أن تتصل وتقترب من أي شخص بشكل أسهل مما هو الحال بين الأحياء على الأرض وإنَّ أحكامكم أنتم أهل الأرض الأحياء خاطئة.

فالأرض قد تطورت تطوراً ضعيفاً بالنسبة للكواكب الأخرى وإن المقدرة وتطور الأحياء على الأرض قد وصل إلى مرحلة منحطة بالمقارنة مع الكائنات العليا فالدول التي تعيشون فيها ما هي إلا قطرة ماء في خضم المحيط الهائل وإنّني أشعر أنني لا شيء ولا أعرف شيئاً ما عدا تلك المهارة الضئيلة شعاع أزرق من الضوء آت من عالم آخر».

«وهذا يساهم في تطوير إمكانيات الجمال والقوة والنور الذي يبهر الأبصار وإن حماة حياتي هنا يخبرونني أن هذه هي أشعة من الوعي العالي الذي سوف أصل وأعلو إليه عندما أستطيع أن أقطع علاقاتي كلياً مع الأرض وذلك سيحدث بعد وقت طويل فالبشرية في ذكائها ومعرفتها المحدودة لا تستطيع أن تتحمل الحقيقة وهي لا تستطيع أن تفهم المصادر التي لا حدود لها لهذا الكون العجيب».

وأخيراً وخلال عدة سنوات من التجارب استطاع الدكتور (وود) أن يعتصر حقيقة تاريخية واحدة من وسيطته وهذه الحقيقة هي ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا وهي أن طليقة قد قتلت وذلك لأن كهنة أمون الذين قد ضاقوا ذرعاً من موقف الأميرة البابلية المفعم بعدم الثقة قد تآمروا ضد زوجة الفرعون بقصد قتلها.

وقد أتت اللحظة الحاسمة عندما قامت طليقة ومعها (فولا) (وهي بنت كانت قد تبنتها) بنزهة في قارب على النيل فتقدم بعض القتلة المأجورين في قارب آخر وقلبوا قارب الأميرة فغرقت وفولا ولكن جثتهما اختفتا ولم يعثر لهما أحد على أثر.

وقد علق (وود) على ذلك بقوله «بعد موت طليقة قامت القوى الحاكمة بطمس اسمها من جميع النقوش والوثائق ويبدو أن هذا العمل كان عادياً في تلك الأيام ويعزو المؤرخون ذلك لتأثير الملكة (تيجي) وقوتها وعملها..

وتستمر طليقة إلى درجة أن تحاول بأن تبرهن على صدق أقوالـها وذلـك بإيراد اسم أحد أصدقائها المخلصين وهو الضابط (راما) الذي كشف الغطـاء عـن المؤامـرات التي نفذها الكهنة ولكنه لم يستطع أن ينتقم وذلك لأنه نفسه قد مات في ميدان القتال وكبطل عسكري كان من الواجـب دفـن (رامـا) بكـل مـا يليـق بـه مـن احـترام وشـرف عسكري، ولكن الكهنة الذين كانوا بالطبع يكرهونه رفضوا أن يقوموا بتقديـم الـهدايا والمراسم الاحتفالية المتبعة في مثل تلك المناسبات وهذا معنـاه بالنسبة للحيـاة المستمرة (للكا) أنَّهُ كان معادلاً للموت الأبدي.

ومع ذلك فإن قبر «راما» الذي لم يكتشف بعد، لا بد أن يكتشف فـي يـوم مـن الأيام، هذا ما ادعت به طليقة وزادت على ذلك بأن قالت: إنّه سوف تكشف لفافات من ورق البردي في نـاووس (رامـا) مـع جثته وهـذه اللفافـات قـد دسـها أحـد الكتبـة ولفافة البردي هذه تحتوي تسجيلاً مفصلاً حول حياة طليقة وموتها.

ولسـوء الحـظ فالمشـتركون فـي هـذه التجـارب الحديثـة قـد توفـوا فالسـيدة «ب» توفيت عام 1961 والدكتـور (وود) توفـي عـام 1963 ولكـن جميـع التسـجيلات التـي جرت أثنـاء البحـث والتجـارب لا تـزال موجـودة وجـاهزة لمسـاعدة أي بـاحـث علمـي جديد حتى إنَّ هنالك تسجيلَيْنِ منفصلَيْنِ عن القضية.

ولقد أثار التسجيل الأول ضجة عظيمة في الدوائر العلميـة حتـى إن الدكتـور (نادنور فودور) وهو مدير مؤسسـة الأبحـاث النفسـية طلـب مـن الدكتـور (وود) أن يقوم بإجراء تجربة أخرى مع السيدة «ب» وطلـب أن تسـجل هـذه التجربـة بحضـور عدد من العلماء.

وافـق (وود) علـى إجـراء التجربـة الجديـدة والتـي أجريـت بحضـور الدكتـور «فـودور» الـذي كـان المشـرف علـى التجربـة وقـد حدثـت التجربـة حوالـي السـاعة العاشرة صباحاً في إحدى المكتبات علـى طاولـة طويلـة عليـها مكـبر للصـوت وفـي غرفة مجاورة جلـس اثنـان مـن مهندسـي الصـوت التـابعين لأسـتوديو شـركة (داي)

المحدودة ومعهم معدات التسجيل. وبعد أن اتخذ الدكتور (وود) والسيدة «ب» أمكنتهما أمام الطاولة طلب (وود) إحضار طبق من الورق لاستعماله في حالة رغبة السيدة (ب) في الكتابة أثناء التجربة ولم تكن هنالك أي حركات لليدين مثيرة للذكريات والعواطف ولا أي نظرات يقصد بها التنويم المغناطيسي وما حدث هناك لم يكن إلا نوعاً من عملية فكرية مكثفة وفجأة انحنى الدكتور (وود) فوق المكبر وقال بسرعة «استعداد».

وكانت هذه هي الإشارة لمهندسي الصوت لبدء عملية التسجيل ويضيف الدكتور (وود) ما حدث بعد ذلك:

بعد بضع لحظات تنهدت السيدة (ب) تنهداً عميقاً (ويمكن سماع التنهد بوضوح في التسجيل) وبدأت تتكلم باللغة الأجنبية بجمل بطيئة متقطعة وقد ذكرت الجمل المتناثرة في التتابع الذي ظهرت به في التسجيل بما فيه الوقفات وفي بعض الحالات كان معنى الجمل مفهوماً وفي بعض الأحيان كانت إحدى الجمل ينساب معناها في الجملة التالية أو القطعة التالية من الجملة التي بعدها.

ولكن لكي نتصور كم كانت عملية التسجيل والترجمة شاقة ومعقدة تلك الكلمات المصرية القديمة التي كانت تتفوه بها السيدة (ب) فإننا سوف ننقل ملاحظات الدكتور (وود) كما وردت في التسجيل الثاني.

ولكن أحد النقاد وهو عالم الحضارة المصرية الأستاذ الإنكليزيّ (جن) يذكر ويصر على أن اللغة التي تكلمت بها السيدة (ب) أثناء غيبوبتها لم تكن هي لغة مصر المفقودة «طبعاً لم يستطع الأستاذ (جن) أن يقدم برهاناً على ادعائه» ولكن دعونا نسمع نسخة طبق الأصل عن الوجه الأول من الأسطوانة.

«نحن أتينا لنسجل . . اللغة . . إنّها برهان . . لكي ترضي الأذن . . إنَّها ترى . . وتؤكد أنه . . إنّها بالتأكيد تحتوي على رسالة . . حقاً . . ما قد عمل من قبل . . من شيء مصنوع من المعدن ليرجع إلى الأذنين ما قد تكلم من قبل

الفونوغراف الذي أتى ليسهل الأشياء الصعبة . . . إنّه لم ينجح بعد . . وهذا هـذا هـو ما حدث كما قلنا . . إنّ القوة تجعـل ذلـك ممكنـاً . . حقـاً لقـد ضـاع . . سـاعدوني . . أكملوا هـذه الجملـة . . أولئك الذيـن كـانوا في عـالم الأرواح . . بـالقدر . . . الذيـن أعطوا به ما تحتاجه الأذن . . أعطني الإمكانية . . لكني أحسن ذلك . . وعندمـا تـرون ذلك سوف نأتي . . ونخبركم عن آمالنا . . وعندما ترون أن . . هذه المصيبة يجـب أن تزول أنا أقدم هذا الإعـلان . . الآن فكـروا وتـأملوا . . وافقـوا واحكمـوا وأجيـزوا . . واستحسنوا مـا قـد كتـب . . هـذا الوقـت . . كـل هـذا قـد اختير لكـي يخـذل ويعـوق المقاومة . . اشهدوا . . اشـهدوا . . سـاعدوني . . لكـي أقـوم بـإعلان رابـط . انسـوا ، انسوا ما قد قيل . . اعملوا نهاية له . . أعطوني مسـاعدتكم . . انظروا إلى حكمكم . . هم يجب أن يتلفوا . . النقاط الضعيفة . . ويمنعوا . . . ما هو مستمر . . إن التفسـير . . دعوهم يسمعوا إليه . . يمكن أن تظهر ما قد حدث . . »

لقد كان الدكتور (وود) والدكتور (هولم) من الرواد ومن يومهم حتى الآن نجد أن التجارب من هذا النوع قد ازدادت ومنطقة البحث النفسي قد توسعت بشكل هائل ليس فقط بعدد المشتركين ولكن في الدرجة والنوعية التي وصلت إليها هـذه الأبحـاث بحيث أصبحت الحلقات العلمية المختصة تعترف بها .

ولكن في عام 1963 لم تكن المجهودات التي قام بها الدكتور (وود) وما شـابهها تحظى بالاعتراف المناسب إنْ لم تكن منبوذة تماماً ومع ذلـك فبمـا أن فـروع الدراسـات مثل دراسة التكلم بلغة أجنبية أثناء النوم أو الغيبوبة أصبح يقابل باحترام واهتمام .

وهكـذا فنحـن نـرى أن إمكانيـة ظـهور (ب) أخـرى يـزداد وبـهذا فإننـا ننتظـر المستقبل حيث ستظهر أجوبة كثيرة محتملة لكثير من المسائل الغامضة الآن .

أجنحة الموت السامة

في 3 تشرين الثاني عام 1962 ، عقد الدكتور عز الدين طه وهو طبيب وعالم بيولوجي في جامعة القاهرة مؤتمراً صحفياً وهذا ما لا يقوم به العلماء غالباً فالمؤتمرات الصحفية تخص السياسيين عادة ولكن العالم البيولوجي المصري كان لديه إعلان مثير يريد أن يفضي به فقد أعلن أنه قد توصل إلى اقتفاء أثر الفراعنة أو أنه قد وجد سبباً واحداً على الأقل .

أعلن الدكتور أنه قد قام بالفحص الطبي لمدة طويلة من الزمن لكل من علماء الآثار والمستخدمين في المتاحف فوجد أن كثيراً من هؤلاء يقاسون من فطر كان يسبب التهابات في الجهاز التنفسي مصحوباً بحمى ، وكان علماء الآثار قد لا حظوا سابقاً أعراضاً غريبة تعرف (بالحكة القبطية) تلك الحكة التي كان يصاحبها طفح جلدي وصعوبة بالتنفس ولكن لم يكن هنالك أي اهتمام جدي بمثل هذه الحالات فقد لوحظ أن مثل هذه الأعراض ظهرت عند الأشخاص الذين كانوا يشتغلون باستمرار في أوراق البردي المصرية .

ففي مؤسسة علم الأحياء المجهري في جامعة القاهرة برهن الدكتور طه عن وجود سلسلة من عوامل المرض الخطرة وقد اعتقد أن هذا الفطر ليس لديه القدرة على أن يستمر في الحياة عبر القرون الطويلة في أجسام المومياء أو مقاصير القبور والأهرامات لمدة ثلاثة أو أربعة آلاف عام .

وهكذا أعلن الدكتور أن هذا الاكتشاف قد قضى كلياً على تلك الخرافة التي تقول : إنّ المستكشفين الذين اشتغلوا في العصور القديمة ماتوا نتيجة لنوع من أنواع

اللعنة بل إنّهم كانوا ضحايا عوامل مرضية يواجهونها لدى العمل، فبعض الناس ما يزالون يعتقدون أن لعنة الفراعنة يمكن أن تعزى لبعض القوى الخارقة ولكن هذا القول ينتمي إلى إقليم «قصص الجنيات» ولكن المضادات الحيوية كما قال الدكتور طه سوف تبطل وتقضي على لعنة الفراعنة.

لم تكن الاكتشافات التي قام بها الدكتور طه تحت المجهر الإلكتروني هي الحل النهائي لمعضلة اللعنة فمن الممكن - كما قال - أن الأمراض لم تكن هي السبب الوحيد لوفيات كثير من العلماء ولكن اكتشافه قد وضع النقاط على الحروف بالنسبة لعمق وعرض المعرفة العلمية للمصريِّين القدماء.

بالتأكيد فإنَّ أبحاث الدكتور طه كانت ستؤدي إلى نتائج ملموسة لو لم يسقط هذا العالم نفسه ضحية جديدة للعنة الفراعنة فقد توفي الدكتور طه بعد وقت قصير من المؤتمر الصحفي الذي عقده وأعلن فيه أنَّه حل لغز تلك اللعنة.

هنالك طريق صحراوي منعزل بين السويس والقاهرة يقع على قطعة من الأرض المغطاة بالإسفلت الأسود ولم تكن هنالك من حركة مرور كثيفة على ذلك الطريق وعندما تلتقي سيارتان كان السائقان يلوحان لبعضهما وكان الدكتور طه واثنان من العمال المساعدين له يسوقون باتجاه السويس وعندئذ وعلى بعد حوالي 70 كيلوا متراً شمال القاهرة انحرفت السيارة إلى اليسار وأصبحت في مسار سيارة قادمة فاصطدمت السيارتان، ونتج عن ذلك موت الدكتور طه ومساعديه فوراً أما ركاب السيارة الثانية فقد أصيبوا إصابات خطيرة وقد كشف فحص جثة الدكتور طه انه توفي نتيجة هبوط في الجهاز الدوراني للدم فهل كان الدكتور طه الذي طالما استعمل المضادات الحيوية أثناء حياته هو ضحية جديدة للعنة الفراعنة وهل كانت أبحاثه تسير على الطريق الخاطئ يا ترى؟.

الوطاويط الخطرة:

في الحقيقة إنّ المرض وعدوى المرض تبدو مقبولة ولكن ظاهرياً لتفسير فكرة اللعنة وقد استمر فريق من العلماء في متابعة التفكير في هذه القضية لأنهم لم يكونوا

مقتنعين بهذا التفسير، ففي شهر تشرين الأول عام 1956 بدأ الجيولوجي الدكتور جون وايلز وهو من جنوب إفريقية، في دخول الكهف تحت الأرض في جبال روديسيا ولم تكن عنده أي فكرة أنَّه كان يعرض نفسه لخطر الموت، وكان المفروض أن يفحص إمكانية التطبيق العملي لاستعمال براز الوطاويط كسماد، وذلك لأن ألوف الأطنان من هذه المادة كانت موجودة في تلك المغاور.

وفي إحدى المغاور وهي على بعد 150 متراً تحت الأرض شاهد الدكتور (وايلز) منظراً غريباً، فجأة وبدون سابق إنذار تحول سقف المغارة إلى مجموعة من الوطاويط يبلغ عدده حوالي عشرة آلاف وطواط، كانوا جميعاً يتدلون من السقف وهم محشورون جنباً إلى جنب دون حركة وذلك قبل دخوله.

وبعد بضعة أيام بدأ الدكتور وايلز يشكو من عسر الهضم وألم في العضلات وحمى عالية وكان أول تشخيص للمرض أنه نزلة صدرية أو داء ذات الجنب ولكن الأدوية التي أعطيت له بناء على هذا التشخيص لم تكن ذات تأثير ولذا نقل (وايلز) إلى مستشفى جيوفري في (بورت إليزابث).

وعندما فحصه الدكتور (دين) رئيس المستشفى تذكر أن الأطباء الأميركيين قد اكتشفوا حديثاً مرضاً انتشر بين الذين اشتغلوا في صخور (الأنكا) في (البيرو) لهذا أرسل الدكتور «دين» عينة من دم المريض الذي أصبح في حالة خطرة إلى الولايات المتحدة وكان الجواب مؤيداً لتشخيص الدكتور (دين) فإن (وايلز) كان يشكو من نفس المرض المسبب من بعض الفطور التي تنمو في براز الوطاويط والمواد المتعفِّنة الأخرى. أعطيت له بعض موادِّ المضادات الحيوية ولكن الدكتور (دين) بدا يشك فيما إذا كان هذا المرض هو سبب الوفيات المحيرة التي لها علاقة بقبور الفراعنة.

الدودة السامة:

بينما كان الأطباء الأوربيون يدرسون هذه القضية تذكر المهتمون بتاريخ الطب بينهم ظهور مرض غريب أصاب العمال الذين كانوا يشتغلون في بناء نفق (سانت جوثارد) وكانت هذه الحالة قد لوحظت في بلجيكا وفرنسا حيث كانت تدعى (فقر

دم العمال) فقد كان عمال الأنفاق وعمال المناجم يقاسون من نفس فقر الدم وقد هدد هذا المرض بوقوف العمل في النفق لأن كثيراً من العمال أصابهم (فقر دم العمال) وأعراضه الإغماء وفقر الدم حتى غصت بهم مستشفيات سويسرا، ولذا أصبحوا يرسلون إلى المستوصفات الألمانية.

ظهرت أول دلالة عن سبب المرض عندما اكتشف أحد الأطباء السويسريين بيوض دودة الأنسيلوستوما في براز أحد الضحايا وبالتالي وجدت الديدان الخيطية في براز مرضى آخرين. وقد أظهر الفحص الشامل للعمال الصناعيين الألمان في أرض الراين ووستفاليا وآخن، انتشار الأنيميا أو (فقر الدم).

السموم الممكنة:

إنه من المحتمل جداً أن علماء الآثار قد هاجمتهم الطفيليات أثناء تجوالهم الطويل لمدة أسابيع تحت الأرض ولكن إذا افترضنا أنّ لعنة الفراعنة قد وضعت وصممت بصورة خاصة لحماية القبور الملكية فإن هذه القضايا ما كانت لتترك للصدف فوضع السموم وارد حتماً وهو نظرية عملية طبعاً.

إن السم قديم قدم البشرية نفسها وقد استنبت الفرعون (مينا) نباتات سامة حوالي 3000ق. م وسجل تأثيرها ولسوء الحظ فإنها لم تصنف بشكل علمي نباتي ولكننا نعلم من القرون التالية أن الأفيون والهالوك (الشوكران) والبنج (نباتات ذو خصائص مخدرة سامة وضارة بالدجاج وما إليه) والزرنيخ وقلنسوة الراهب (نباتات سامة) وكانت مادة الأكونايت السامة تستخرج من قلنسوة الراهب ويكفي خمسة ميلغرامات منها لقتل إنسان، وحتى حامض البروسيك كان معروفاً وكان يستعمل في تنفيذ حكم الإعدام في اليونان القديم قبل 3500 سنة كما استعمل في الولايات المتحدة في هذا القرن. وقد مات سقراط بعد شرب الهالوك (الشوكران) وإن المادة القلوية السامة التي تدعى الكونايين مشتقة من الشوكران ويقال بأن (ميثريديتس) حاكم آسيا الصغرى كان يعيش في خوف دائم بأن شخصاً ما سوف يسمه لذلك كان يبتلع يومياً جرعات صغيرة من السم وذلك ليزيد مقاومة جسمه للسم (وهذه المقاومة التي يكتسبها الإنسان ضدّ السم تدعى المثريدية تكريماً لمثريدس).

اشتهرت كليوباترة بقدرتها الفائقة على مزج السموم وكانت عند مزج ما تدعوه (جعة الساحرات) تعتمد على التقاليد القديمة التي وصفت تأثير السموم بتفاصيل مثيرة. وكانت تختبر مفعول تلك السموم على العبيد وقد قيل: إن (أنطونيوس) حبيبها كان يخشى هذه السموم وكان يأكل مما تقدمه له كليوباترة بعد أن يفحصه أو يفحص الأكل بواسطة أحد الأشخاص ويسمى (الفاحص) مما جعل كليوباترة التي كانت عظيمة الثقة بنفسها تعتبر هذا العمل إهانة لها ويقول المؤرخ (بليني) في تاريخه لقد شفت كليوباترة أنطونيوس من هذا الخوف بطريقة درامية فقد انتزعتْ زهرة من الإكليل الذي يتوج رأسها ورمت بهذه الزهرة في كأس انطونيوس ثم طلبت منه أن يشرب الخمر من الكأس كدلالة على حبه لها. وعندها أصبح أنطونيوس في موقف حرج من هذا الإغراء والخيار المحرج ورفع الكأس إلى شفتيه دون أن يطلب من الفاحص أن يقوم بعمله بعد وضع الزهرة ولكن كليوباترة أمسكت بسرعة بالكأس ونزعته من يد أنطونيوس قبل أن يشربه ونادت رجلاً كانت قد جلبته من السجن وأمرته أن يشرب الخمر وعندما شرب الرجل سقط ميتاً في الحال.

عندها قالت كليوباترة «إنني قد سممت الأزهار، وإني قد فعلت هذا لأريك أنني إذا أردت أن أقتلك أستطيع رغم وجود الفاحص».

وقد ذكر الطبيب اليوناني ديوسكوريديس الذي درس الحضارة المصرية في القرن الأول بعد الميلاد أن المعالجة الوقائية صعبة وذلك لأن الذين يشتغلون سراً بالسموم يقولون بأنه حتى الأشخاص المجربون في هذا المضمار يقعون في الخطأ أيضاً، وأن السبب في عدم معرفتنا أي شيء عن إعداد السموم في مصر القديمة هو أن هذا الفن كان سراً من الأسرار يحتفظ به الكهنة لأنفسهم ولا يعلّمونَه إلا القليل من الموثوق بهم.

نباتات من الحديقة السحرية:

أما في خارج مصر فإن مزج السموم كان عملاً منتشراً بشكل مكشوف ففي مملكة (كولاس) جنوب شرقي البحر الأسود وهي موطن (ميداس) الخرافي ومكان (الجزة الذهبية) هنالك يقال: إنَّ الملوك أنشؤوا حديقة مسحورة محاطة بسور علوه تسع قامات

وله بوابة نحاسية ذات ثلاث طبقات وفي الحديقة تنمو النباتات السامة والنباتات الترياقية جنباً إلى جنب بسلام وكان السم المستورد من مملكة كولاس مشهوراً حتى العصر الروماني وفي كتاب أبيدوس يلتفت إلى كانيديا وهي مازجة السموم ويقول لها:

أنت أيتها المعمل لسموم كولاس

قد أشغلتني دائماً

حتى إنني تحولت إلى رماد

وأصبحت هدفاً للرياح العاصفة

وعندما كسر أنطونيوس في حربه ضد الباراثيين عام 38ق. م كان مجبراً أن يراقب بكل أسى وحسرة فرقه المغلوبة على أمرها وقد أهلكت معظمها السموم أثناء تقهقرها في الشرق الأوسط. وقد اكتشف الجنود ضعف معنوياتهم ودبت فيهم الفوضى والارتباك واكتشفوا نوعاً من العشب كان ينسيهم أحزانهم موقتاً ولكن مصيرهم الموت عاجلاً أو آجلاً.

ويعتقد علماء السموم في الوقت الحاضر أن النباتات التي ذكرْناها تنتمي إلى الطائفة الباذنجانيّة، وعندما فتح الرومان سردينيا وكورسيكا في القرن الثاني ق. م وجدوا سماً في الجزيرة جلبه القرطاجيون وبعد ثلاثمائة عام من الفتح الروماني وصف الطبيب (ديوسكوريديس) العشبة الطبية السردينيَّة التي كانت تشوش الحواس وتشوه الشفتين وتسبب ابتسامة مشوهة وهي المعروفة اليوم باسم الابتسامة السردينيَّة.

عرف الأباطرة الرومان المنجزات المصرية في علم السموم ولذلك كانوا يحصلون على معظم السموم التي يحتاجونها من وادي النيل ومنهم الإمبراطور كاراكالا وكلوديوس ونيرون، وقد اقتنى الإمبراطور (كاراكالا) أكبر مجموعة من السموم، وحتى هذه الأيام فإن شعوب إفريقية من أمهر الشعوب في خلط السموم خصوصاً في بلاد (بونت) (الخرافية) القديمة وهنالك نوع من النباتات يكثر في إفريقية الشرقية ويحتوي على مادة بإمكانها أن تشل عضلة القلب. ويلاحظ نفس التأثير من نسغ شجرة (الأباس) ومن

هذا النسغ يؤخذ سم للسهام. وهذه الشجرة موجودة بكثرة في إفريقية فعندما يحز لحاء هذه الشجرة يسيل سائل ذو فعالية سامة شديدة من الشجرة ويتبلور بسرعة وقد ظهر أن جرعة تتألف من 0.000009 من الغرام من هذا السائل تكفي لقتل ضفدعة.

وفي عام 1859 اكتشف المستكشف البريطاني دافيد لفنجستون (1813 ـ 1873) كرمة سامة فوق شلالات فكتوريا وقد كان الوطنيون يتخذون من هذه الكرمة مادة يدعونها (كومبي) استعملوها في تسميم السهام لقتل أعدائهم وقد لاحظ لفنجستون أيضاً ان الوطنيين كانوا يهتمون بصورة خاصة ببذور هذه الكرمة وعصارة البذور وقد لفت نظر مساعده العالم النباتي (جون كيرك) الذي عرف فصيلة هذا النبات السام وقد ذكر لفنجستون أن سمَّ هذا النبات قوي جداً لدرجة أنه يمكن أن يقتل فيلا في مدة اثنتي عشرة ساعة.

وحسب ما كتب الكاتب برنت كارجر ديكار (Bernt Karager Decker) في كتابه (السموم وجعة الساحرات) (وجرعات الحب) فالوطنيون في نيجيريا استعملوا السم في أواخر عام 1885 ضد ممثلي شركة إفريقية الوطنية، فقد شكا اثنان من هؤلاء إلى رئيس القبيلة حول سرقة مسحوق البارود من مصنع محلي وفي خلال المناقشة الحامية أطلق سهم على أحد البريطانيين ونتيجة لذلك فقد بادر الاثنان إلى الهرب إلى قاربهم تحت وابل من السهام فالرجل الذي أصابه السهم مات وهو في القارب وأما زميله فقد مات بعد أن قاسى آلاماً مبرحة بعد بضعة أسابيع إذ إنَّ سهماً خدشه خدشاً أثناء هربهم وكان ذلك السهم مسموماً. وقد شرح كارجر ديكر الحادث:

إنَّ التسمم بـ(الستريو فانتوس Streophantus) وهي مادةٌ سامة تستخرج من بذرة شجرة (الستريوفانتوس Streophantus) يبدأ بالقيء أو الغثيان وبعد ذلك يبدأ نظام ضربات القلب بالاضطراب وعادة في الحالات الطبيعية غير الخطرة تظهر انقباضات عنيفة وكل ضربة من ضربات القلب تتبعها تقلصات إضافية طويلة نوعاً ما وفي بعض الأحيان يحدث انسداد تام في القلب مع نقص عدد ضربات القلب إلى النصف، وعلى العموم فإن هذه الأعراض تختفي بعد خمسة إلى عشرة أيام ولكن

في الحالات الخطرة فإن الاختلاج العضلي يمكن أن يؤدي إلى الموت وترافق هذه الحالة أحياناً تشوش في التوازن والهلوسة وحالات من الشرود العقلي.

ويذكر الكتاب الرابع عن النبي موسى عادة متبعة منذ عهد المصريين القدماء، فإذا ما اتهمت امرأة بالزنا ورفضت أن تعترف بالذنب كانت تؤخذ إلى المعبد وهنالك تجبر على شرب نوع من السم يدعى (ماء الغبيرة) وهذا الإجراء كانت تنجو منه بعضهن ولكن الكثيرات لم ينجين وقد اعتبر هذا بأنه حكم إلهي فقد أصبح الماء المسموم كاشفاً للكذب ويعتبر كقاضٍ وكمنفذ للحكم.

ولا تزال بعض القبائل الإفريقية الوطنية تضع بعض السموم القوية بشكل حاد وتستعمل وصفات كانت معروفة لدى المصريين القدماء. وقد ذكر عالم السموم الدكتور (لويس ليوين) في كتابه (السموم في التاريخ) عن سم قادر على إحداث تشنج عام وهو عبارة عن مزيج من ماء الكافور وسم الأفعى وبصيلة أخرى سامة هذا العقار يسبب عدم التوازن العقلي ثم شللاً في العمود الفقري ثم الدماغ ثم مركز التنفس وقد كتب ليوين يقول:

إن قوة تأثير هذا السم ودوامة شاذة وغريبة عن المألوف ولقد فحصت اسهماً مسمومة جلبها (ليشتاين) من إفريقية الجنوبية من تسعين عاماً وقد حزمت وحفظت تحت ظروف مختلفة في المتاحف هنا في برلين، إن السم الموجود في السهام قوى المفعول كما لو أنه قد صنع لتوه. وقد حاولت أن أحصل على حالات سيكولوجية نفسية بواسطة هذا السم، ولقد أدى فحصي الأخير للبصيلة لاستخلاص مادة قلوية هي الهيمائيين وهذه المادة لها نفس خصائص النبتة البصلية كالاهتزاز والشلل العضلي فضلاً عن صعوبة التنفس.

كان للمصريين القدماء معرفة واسعة بالسموم لاسيما الكهنة والأطباء الذين كانوا يستفيدون أعظم فائدة من قواهم السحرية وكان السم الذي ينبجس من العقرب الذي يعيش في شمالي إفريقية والهند يمكن أن يقتل رجلاً وكانت أعراضه تشمل تشنُّجاً في العضلات وشللاً وضعفاً في النبض وصعوبة في التنفس وكان المصريون يعرفون كل هذا وتذكر ورقة بردي (إيبرس الطبية) تحذيراً من مخاطر لدغة العقرب

وتوحي باستعمال العسل وبراز فرس البحر كعلاج وكالعقرب فإن الثعابين والعناكب لها نظام من الغدد السمية يستخرج منها السم الزعاف، وسم نوع من العنكبوت كان يشل النظام العصبي ويؤدي إلى تكوين الجلطة الدموية.

وسم الحيات قريب من السم النباتي وكما ذكر عالم السموم الباريسي الدكتور مارتيني فإن ذبول الغدد السمية أو جفاف السموم ذاتها لا ينقص من فعاليتها وقوتها وحتى تغيير درجة الحرارة لا يضعفُ سم الكوبرا. إذ بعد أن يتعرض السم لمدة 15 دقيقة لحرارة مقدارها 100° مئوية يظل السم في أتم قوته وحدته.

أما سم الثعابين ذو الأساس البروتيني فلا يملك مثل هذه المقاومة فهي تخسر قوتها تحت درجة تتراوح 75 ـ 70° مئوية ومثلها بعض سموم الحشرات، والأشعة فوق البنفسجية تستطيع أيضاً أن تبطل مفعول السموم ولكن قبور الفراعنة التي لا يمكن للأشعة فوق البنفسجية أن تخترقها كانت أماكن مثالية لحفظ مثل هذه السموم دون أن تتأثر فعاليتها مطلقاً.

وفي علم الصيدلة الحديثة يستعملون سم الأفاعي وسم بعض الحشرات كدواء والجرعات الصغيرة من السموم تسبب نوعاً من المناعة. وقد قضى هوارد كارتر نصف حياته تقريباً يشتغل في قبور فراعنة عديدين دون أن يتأثر بهذه اللعنة فمن المظنون أنه قد تكون في جسمه مناعة ضد هذه السموم لأن عمره عندما توفي في 2 آذار عام 1939 كان السادسة والستين، ولكنه مع ذلك أخذ نصيبه من الألم فقد كان يشكو وهو يتجول في وادي الملوك من نوبات من الدوار والضعف التي كانت تشل نشاطه وأحياناً كان يشعر وكأن الدم يندفع ويتجمع في رأسه، مع شيء من الهلوسة والصداع وكل هذه الأعراض يعزوها علماء السموم إلى التسمم الحيواني.

إنّ الضفادع البرية تعتبر بشعة ومنفِّرة ومع ذلك فقد اعتبرها قدماء المصريين مقدسة واحترموها وكان ذلك يبدو غريباً لما للمصريين من إحساس بالجمال ولكن حدث في الخمسينيات من هذا القرن أن أحد الصيادلة السويسريين حلل السم الموجود في الغدد حول أذني الضفدع البري فوجد أن هذه الغدة تنتج عشرين نوعاً من السم

وله نفس تأثير نبات الديجيتالس السام ولا عجب إذن ما دام الأمر كذلك أن يعامل المصريون هذه الضفادع باحترام.

جعلان الحب والصبير السام:

إن الأخيضر أو (الذباب الهندي) المصنوع من الجعلان المجففة له شهرة قديمة كمصدر من مصادر السم، وهذه الحشرات طول كل منها حوالي بوصة وتنتج مواد لها تأثير سمي عندما تستعمل بشكل خارجي والأخيضر المجفف يحتفظ بنفس خصائصه السمية وعند دهن الجلد بهذه المادة يبدأ بالتقرح وظهور البثور عليه بينما تنفجر الأغشية المخاطية ويصحب ذلك حمىً ومرض. وإن تناول المسحوق من الفم يؤدي إلى تشنج واختلاطات عقلية الأمر الذي كان حافزاً لاستعماله كعلاج مثير للشهوة الجنسية وقد استعمل هذا الدواء بشكل أقراص دوائية ووصفوه لإطالة المتعة الجنسية وتقويتها ولكن غالباً ما كانت هذه العقاقير تزيد في نسبة الوفيات إذ أن جرعة زائدة عن الحد كانت تؤدي إلى الشلل في الوظائف الدورانية في الجسم.

وهنالك عدة نباتات كما نعرف مما يستعمله الهنود في أمريكا الجنوبية تنتج ردود فعل مشابهة فهنالك نوع من الصبير الذي ليس له شوك اسمه (بيوت) وينعتونَهُ باسم (واهب الأحلام) وقد أعار هذا النبات اسمه لطائفة دينية من الهنود الحمر تعتنق البيوتية وتشمل طقوس هذا الدين وجبة من (البيوت) صممت لتسمح بالاتصال بالقوة الخلاقة العظمى بينما يكون المريدون في حالة غيبوبة.

يبدو أن حظ كثير من السموم الطبيعية لم يكن يحظى بالقدر الكافي من الاهتمام وذلك بسبب التقارير عن النتائج المثيرة التي أحرزها علم الأدوية والسموم في هذا المضمار، ففي صيف 1972، عندما كانت تباع في ألمانيا العقود الإفريقية المصنوعة من بذور بعض النباتات الهندية التي كانت تستعمل كسبحات أيضاً ومعها حبات مرجانية حمراء من بذور ثمرات بعض النباتات الإفريقية ذات الشجيرات الكثة صدر عن محكمة الجنايات في بافاريا أن هذه العقود تسبب الموت اختناقاً بالتسمم وذلك لأن النباتات التي تستخدم بذورها في عمل العقود

والسبحات تحتوي على مواد سامة وكذلك فإن ثمر شجيرات المرجان فيها سموم تشبه السموم التي يستعملها الهنود على رؤوس سهامهم وهي تستطيع أن تشل حركة الجسم وبما أن هذه السموم تمتص بالتنفس الطبيعي فإنها من المحتمل أن تؤثر على علماء الآثار الذين كانَ يتصبب منهم العرق أثناء العمل.

وهكذا فلم يكن من الضروري أن يحصل تناول السم عن طريق الفم بالنسبة لعلماء الآثار الذين استكشفوا قبور الفراعنة بل يكفي أن تمس السموم الجلد مساً خفيفاً وبذلك تخترق طبقات الجلد وتسبب التسمم فالجدران في مقاصير القبور وكل الأدوات المصنوعة كانت تدهن بدهانات ممزوجة بسموم قوية مثل سم الأكونايت والزرنيخ والكونيوم وجميع هذه السموم لا تفقد فاعليتها حتى لو جفت وفوق ذلك فإننا نستطيع أن نبرهن بأمان وثقة أن قبور الفراعنة كانت تحتوي على أبخرة سامة وغازات سامة بأشكال مترسبة وكان استعمال السموم المترسبة عادة شائعة في القرون الوسطى لأجل التخلص من أولئك الأشخاص غير المرغوب بوجودهم. وأسهل هذه الطرق هو نقع ذبالة شمعة بالزرنيخ فعندما تضاء مثل هذه الشموع تحدث النتيجة المرغوبة، فالبابا كلمنت السابع يقال: إنَّه قتل بهذه الواسطة عام 1534 وكذلك الإمبراطور ليوبولد الأول إمبراطور النمسا عام 1705 ففي مقاصير قبور الفراعنة الحصينة التي لا يدخل إليها الهواء فإنّ مثل هذه أبخرةٌ يمكن أن تترسب ولا تختفي أبداً وتظلُّ ذات مفعول أكيد فهل كانت الشموع السامة تشتعل في القبور بينما كان العمال يقفلون مدخل القبر نهائياً يا ترى؟.

ومع أنه لم يكن هنالك أنواع وأصناف كثيرة من النباتات تنمو في مصر القديمة فالرسوم المدهونة التي كانت تزين القبور استعملت بها المواد النباتية للدهان بشكل مذهل وقد ظهرت صور مين وأمون ترافقهما شجرة ويعتقد بعض العلماء أنَّها شجرة السرو ومن المحتمل أن يكون هذا الافتراض خطأً وذلك لأنه لا يوجد أي شجرة سرو في طيبة ومعنى هذا أن بعض الأشجار والنباتات كانت تستورد من الخارج خصوصاً ما يخص الأصبغة والدهانات.

هنالك بعض الدلائل في الصور والنصوص الموجودة في معبد الكرنك وفي مدينة (حابو) ومدينة (أدفو) فبين يدي الفرعون نرى شراب الخس ونبات الخس حسبما يقول علماء النبات هو الوحيد الذي يزرع في وادي دلتا النيل ويستخرج منه سائل حليبي بعد عصره وهذا الخس الذي لا يزال ينمو في مصر العليا له أوراق تشبه أوراق خس الحديقة العادي وبما أن الأوراق لا تتجمع حول بعضها بل تنمو بشكل مستطيل من أسفل الساق إلى أعلاه فمن الممكن أن تصل النبتة إلى ارتفاع متر أو أكثر.

ويعتقد أنَّ حليب الخس الذي يعتصر من ساق الخس هو رمز للخصوبة وهذا ما يفسر الخرافة التي لا تزال سائدة حتى اليوم وهو أن الخس يساعد على إنجاب الأطفال.

المضادات الحيوية في مصر القديمة:

إن كلاً من هيرودوتس وأوراق البردي الطبية تنبئ عن استعمال النباتات السحرية وبعد التقصي والتحليل العلمي وجد أن هذه النباتات السحرية هي البصل والثوم والفجل، والآن يمكننا أن نعزو الكثير من الفائدة لهذه النباتات ولكننا لا نعلم إن كان لها تأثير طبي أم كان مفعولها الشفائي هو أمراً خيالياً يا ترى؟.

كلا إن هنالك سبباً جوهرياً يفسر السبب الذي جعل الفراعنة يطعمون مئات الألوف من العمال المستخدمين في بناء الهرم الكبير في الجيزة الفجل والبصل. فالمشكلة الرئيسية في استخدام مثل هذا العدد الضخم من العمال في بناء الأهرامات لم تكن مشكلة تقنية بقدر ما هي مشكلة صحية فالأوبئة التي كانت تنتشر بسرعة لا تصدق، فلقد كانت قادرة على قتل الألوف في وقت قصير جداً ففي أثناء إنشاء هرم خوفو الكبير يقال إنه مات حوالي 185000 عامل.

ولمنع الأوبئة والأمراض السارية أعطي العامل مضادات حيوية وهي موجودة في الكرّاث والبصل والفجل ويقول هلموت بوتشر في كتابه (العقاقير العجيبة) إنه في عام 1947 عزل عالمان مادة تذوب في الماء تدعى الرافاين وهي تؤثر في جميع أنواع الجراثيم

خصوصاً ما يدعى بالجراثيم الآخذة للجرام[1] (جرام موجب) والجراثيم غير الآخذة للجرام (جرام سالب) وبعد سنتين برهن عالمان سويسريان على صحة تأثير الرافاين ضد المكورات العقدية[2] والمكورات العنقودية[3] والمكورات الرئوية والعصيات الكولونية وقد وجدت نفس تلك الخصائص في عصير الفجل والكرّاث والبصل.

الطبيب أمحوتب يناضل ضد البكتريا:

الحقيقة أن المصريين القدماء لم يكونوا يعرفون البكتريا ولو باسم آخر، ولكنهم فهموا تأثيرها الفيسيولوجي ونعلم اليوم أن المكورات العنقودية تنتج قيحاً يسبب إصابات في الجلد والكليتين ومخ العظام بينما تسبب المكورات العقدية الخانوق وتسمم الدم والحمّى القرمزية وكل هذه الأمراض كان المصريون يعالجونها بواسطة عقاقير مأخوذة من عالم الطبيعة ويمكننا أن نفترض أن علم الصيدلة وعلم السموم قد بلغا الأوج في الإمبراطورية القديمة وقد لعب أمحوتب الطبيب الحكيم العاقل دوراً هاماً في هذا المضمار وقد صادفنا هذا الطبيب في زمن الفرعون زوسر.

كان أمحوتب الذي اعتبر إله الشفاء حتى في أثناء حياته قد تثقف في بلاد السومريين في ما بين النهرين وقد ادهش المصريين بمعرفته الواسعة بالطب حتى إنَّ الشعب اعتبره ساحراً، وقد أصيبت زوجته (أبوبي) بمرض التراخوما في عينيها وهذا المرض هو شكل معدٍ من التهاب الملتحمة (باطن الجفن) وهو ينشط في مناخ مصر الجاف وهو واسع الانتشار في مصر حتى الآن، ويؤدي إلى العمى أحياناً وقد حاول أمحوتب بكل ما يستطيع من قوة تحضير دواء شافٍ وفي هذا المضمار نراه يتوصل إلى أفكار غير عادية.

---

(1) الجرام هي طريقة ابتدعها العالم جرام لتلوين الجراثيم فإذا تلونت الجراثيم باللون الأزرق دعيت جرام موجب أو آخذة للجرام، وإذا تلونت باللون الزهري دعيت جرام سالب أو غير آخذة للجرام وجميع أنواع الجراثيم تقريباً تدخل في هذا التصنيف (المترجم).

(2) المكورات العقدية: هي جراثيم آخذة (للجرام موجب) تصطف بشكل عقد حجمها 1 ـ 4/ 3 ميكرون (المترجم).

(3) المكورات العنقودية هي جراثيم آخذة للجرام موجب تصطف بشكل عناقيد كعناقيد العنب حجمها 1 ـ 4/ 3 ميكرون.

مثلاً مزّق رأس خنفساء وجناحيها كانت تسكن في القمامة وغلاها في الزيت ووضع نصفي هذه الحشرة على عيني زوجته ولكن هذا العلاج لم تكن له أية فائدة ولذا بدأ في عمل معجون مصنوع من صخر الأردواز الأخضر ووضع هذا المعجون بين أدوات زينة زوجته وبعد ذلك نشر هذا المرهم على جفون زوجته وفي هذه المرة نجح علاجه فالمرهم المضاد للبكتريا جعل تقيح العينين المصابتين ينفجر وبذلك عادت لها قوة البصر وبالنسبة للشعب في الأسرة الثالثة اعتبر هذا العمل من قبل المعجزة فالتراخوما كانت تؤدي إلى العمى فكيف استطاع أمحوتب أن يمنع ذلك فهذا الأمر هو أمر فوق الطبيعة ولذلك فقد أصبح بمنزلة الإله ولكن أمحوتب أدرك شيئاً لم يعرفه أحد في عصرِهِ وهو وجود ديدان صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة وهكذا فقد بدأ يتعقب علماً لم يتم تطوره إلا بعد مضي أربعة آلاف سنة من زمنه وهو علم البكتريا واختراع المجهر الذي كشف النقاب عن البكتريا والفيروسات وبما فيه الكفاح ضد هذه الكائنات الحية.

الدفاع ضد لصوص القبور:

إن السم الذي كان يخشاه المصريون كثيراً هو (سم الموتى) وهي السموم التي تنبعث خلال تفسخ الجسم وهنالك بعض أوراق البردي تشير إلى أن الأطباء المصريين كانوا يعرفون بعض الأدوية لطرد سموم الموتى وإيقاف مفعولها وهذه الأدوية تتألف من الزيت والعسل أو براز البنات الصغيرات والقطط والحمير والخنازير ومثل هذه الأدوية لم تكن دون أية نتيجة فكل الأحياء تنتج مضادات حيوية تقاوم الكميات الصغيرة من المواد السامة التي يصدف أن يمتصها الجسم كل يوم ولكن من المشكوك فيه أن تكون هذه الأدوية قادرة على إزالة هبوط القلب وعلى كل حال فإن السموم الخارجة من الجثث أثناء تعفنها وفسادها هي سموم قاتلة.

وهنا يتبادر للأذهان سؤال وهو أنه هل تستطيع تلك السموم أن تحتفظ بقدرتها وتأثيرها عدة قرون أو ألوف السنين أم هل تفقد تلك القدرة؟ إذ إنَّ هنالك بعض الشكوك في أن بعض المواد السامة تفقد قدرتها بتأثير النور والهواء والشمس بمرور

السنين ولكن السموم الأقوى فعالية تستطيع أن تحتفظ بقدرتها عدة قرون خصوصاً عندما تكون مخزونة في حيز ضيق.

إن قبور الفراعنة الصخرية والأهرامات هي أمكنة مثالية لتكاثر البكتريا فالفروق في التنفس تختلف بالنسبة للأحياء المجهرية فهنالك أشكال من البكتريا تحتاج للأكسجين لاستمرار حياتها كما هي الحال في الإنسان بينما هنالك عدد كبير من أنواع البكتريا تتطور وتنمو بشكل جديد دون الأكسجين. ومعظم البكتريا تتغذى على مواد نباتية ومواد حيوانية كالدهن وماءات الفحم (النشويات) والبروتينات وإنّ مظاهر الاحتراق التي تبدو ظاهرة على معظم المومياء الملكية كانت النتيجة لعمليات جرثومية فإن التفسخ في المواد الدهنية والزيوت والراتنج الذي يغطي جسم المومياء أنتج كمية من الحرارة أدت إلى احتراق جزئي في الجثة وقد كان علماء الآثار يتساءلون دوماً لعدة عقود من السنين، لماذا كانت أجسام الفراعنة سوداء؟ والجواب على ذلك السؤال هو البكتريا.

كم من الزمن تستطيع البكتريا أن تعيش فهل تستطيع مدة تحملها للفناء أن تتجاوز الألف عام يا ترى؟ هل لعنة الفراعنة هي مرض حيوي كيماوي في القبور الملكية منذ آلاف السنين.

ويعتقد الكيماويون وعلماء الجراثيم أن هذا سبب مقبول ظاهرياً للعنة فهنالك انواع من البكتريا التي إذا تهيأت لها ظروف خاصة مواتية فإنها تبقى حية عدة قرون من الزمان وهنالك أنواع أخرى من البكتريا تصبح خطرة فقط بعد موتها وعندها تفرز سموماً فيها أنواع عديدة من الأمراض خصوصاً التهاب السحايا. وبعض البكتريا الحية تفرز سموماً تسبب أمراضاً مثل مرض الخانوق.

وهذه السموم هي مواد قاتلة تشبه إلى حد ما تنتجُهُ هيئة الأبحاث الصناعية الحربية فهنالك خطط ومخططات للأسلحة الكيماوية والبيولوجية مخزونة في خزائن حديدية محصنة ضد القنابل في وزارات الحرب والدفاع عند جميع الأمم الشرقية والغربية مع أن معظم الدول قد وقعت على اتفاقية لاهاي عام 1899، وبروتوكول

جنيف عام 1925 بحظر استعمال الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في حالـة نشـوب أي حرب وهذه الحقائق تخالف الواقع بشكل مقيت ومثير للاشمئزاز.

وإن الفيلق الكيماوي التابع لوزارة الحـرب فـي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة لـه قسم يختص بالأبحاث وتطويـر الحـرب الكيماويـة ويحتفـظ البريطانيون أيضاً بدائـرة تسـهيل الأبحـاث البكترولوجيـة الحربيـة والسـوفييت والفرنسـيون يعملـون أيضـاً فـي تطوير الأسلحة الكيماوية والبيولوجيـة وذلـك بقصـد الحيلولـة دون توسـع انتشـارها. وبعد سبعة آلاف سنة من التطور البشري تذكر الرجال الأذكياء حقيقة هامة كـانت قـد نسيت خلال فرض التسلح التقني فإنه ولمدة عدة قرون قضت الأوبئة والأمراض على عدد كبير من الرجال يفوق عدد الذين لاقوا حتفهم خلال الحروب والقتال.

إن الغازات المؤثرة على الأعصاب وغازات الـدم والغـازات الخانقـة هـي سـهلة الإنتاج وسهلة التخزين مثل أسلحة العصر الحجري. ولكـن تـأثير هـذه الغـازات أكثـر خطورة من تأثير القنبلة الذرية فالأسلحة البيولوجيـة تجعـل كـل شـيء ممكنـاً فـالحروب التي يدعون أنَّها إنسانية لأجل القضاء على خصم يعمل ضد الإنسانية إلا أن الحـروب نفسها لا تتورع عن أعمال تؤثر في القضاء على الإنسانية قضـاء مبرمـاً وذلـك بالتـأثير على الزوايا الوراثية للبشر.

وفي عام 1960 ظهر فيلم أمريكي فـي دوائـر حلـف الأطلسـي يظـهر فرقـاً عسـكرية تعمل بعد أن تأثرت بالمواد الكيماوية ففي منتصف المناورات كـان الجنـود يلقـون أسـلحتهم ثم يستلقون على الأرض ويستغرقون في سبات عميق أو يبدؤون بالـهرب دون أي هـدف وهذا الفيلم له دلالته بالنسبة للحرب وهو لا يخلـو مـن عنصـر النكتـة والفكاهـة الممزوجـة بالمرارة لأن الفرق بين النكتة والموت في هذا النوع من الحروب لا يزيد عن ذرة.

كان المصريون يعلمون أيضاً شيئاً عـن نـوع مـن تسـمم الأعصـاب ففـي التـاريخ القديم كانت مصر هي مخزون حبوب العالم فكانت (إيرجوت) وهي فطر مـن فطـور الحبوب مغطاة ومحجوبـة عـن النظـر بشـكل غـامض لمـدة آلاف السـنين وكـانت تنشـر

المرض المدعو (النار الباردة) ويبدأ هذا المرض بالحكة والإحساس بالوخز في الجسم والتشنج في العضلات ثم الشلل والخبل العقلي.

ومع أن مادة فطور الـ (إيرجوت) هذه قد أثارت أوبئة قتلت آلاف الناس فإنّها آخر أوبئة فتكاً ذريعاً واكتسحت الأراضي المنخفضة بين 1828 ـ 1829 وألمانيا 1855 ـ 1856، ولم يستطع العلم أن يخفف من عناء هذه الأوبئة إلا في القرن العشرين فالتحاليل الكيماوية فصلت عدداً كبيراً من القلويات وفوق ذلك فقد اكتشفت مجموعات أخرى من المواد في (أيرجوت) وهي مواد الإيرجوتايين فضلاً عن الكولين والأستين كولين والمواد الأخيرة هي عوامل هامة في بناء نظام عمل الجسم السليم ووظائفه فبالنتيجة فإنَّ الفكر يترجم إلى عمل عضلي.

وهذا الفكر ينقل كهربائياً خلال ألياف الأعصاب إلى نهاية من النهايات العصبية وهنالك يجد كميات صغيرة من الأستي كولين وجواباً على الدافع الكهربائي المقابل، تسير المادة وتنساب إلى نهاية عصبية حركية لخلايا عضلية وهكذا يحقق تنفيذ الأمر الأصلي.

وعندما تنفَّذُ أوامر الدماغ فإن هذه المادة الكيماوية تكون قد قامت بوظيفتها ولكي تتمكن الأعصاب والعضلات من استقبال الأوامر الجديدة من الدماغ بسرعة فإن مادة الأستيل كولين المستعملة يجب التخلص منها وهذا يتم عن طريق (إنزيم) خاص يشق المادة الكيماوية هذه إلى كولين وحامض الأستيك وهذه المواد تطرح في مجرى الدم.

لا نحتاج لكثير من الخيال لندرك ماذا يحدث عندما تتدخل التأثيرات الكيماوية وتعمل على تعطيل نظام الأعصاب المركزي فإن لم يتخلص الجسم من الأستِل كولين فإن نظام حركة العضلة يظل مستمراً إلى ما لا نهاية، وهذا ينتهي بالإصابة بالتشنج العضلي وهناك سموم أخرى تستطيع أن تقفِلَ النهاية العصبية لأعصاب الحركة وبذلك تمنع دخول المادة الكيماوية لأداء عملها وفي النهاية أو في هذه الحالة فإن بعض العضلات تتوقف عن إبداء أي رد فعل حركي مهما حاول الدماغ إثارتها

للعمل وأخيراً فإن نظام الأعصاب المساعدة على النمو والذي يسيطر على نشاط القلب والرئتين هذا النظام يتوقف نهائياً.

إننا مقتنعون أن قبور الفراعنة كانت تحميها الفطور التي تنتج مواد مخدرة ومن المؤكد أن معرفة لص القبور أن التنفس الصادر عن الشيطان الحامي للقبر سوف يلمسه ويؤذيه حال دخوله القبر. إنّ هذه المعرفة تساعد كثيراً على إعاقة دخول اللص بل منع ذلك الدخول نهائياً. فماذا يقول الرقيم الذي وجد في قبر توت عنخ أمون «الموت سوف يقتل بجناحيه كل من يزعج سلام الفرعون».

تمزق الوعي:

كم هي هذه السموم يا ترى؟ هل من الواجب أن يبتلع الإنسان مساحيق أو جرعات بواسطة ملاعق صغيرة أو هل هي تدخل الجسم خلسة دون أن نلاحظ ذلك فإذا رجعنا القهقهري إلى عام 1953 فقد حدث حادث غامض في مصلحة الأبحاث الكيماوية (البكترولوجية) الحربية في وزارة الدفاع البريطانية وهذا الحادث أظهر تشابهاً ملموساً لما حدث لعلماء الآثار المصرية. فقد حدث أن المدعو (وليم كولين) وهو ملازم في القوى الجوية الملكية البريطانية، أرسل في مهمة إلى مصلحة الأبحاث المذكورة فدخل ومعه أحد الكيماويين إلى المخبر وذلك لفحص أحد الأوعية التي تسخن كهربائياً. وفي وسط هذا الوعاء كانت تقف زجاجة مسدودة فيها بعض السوائل فأخذ الكيماوي تلك الزجاجة وقال: «إن هذا غاز الأعصاب وإنّ أقل كمية منه يمكن أن تقتل إنساناً في بضع ثوان».

اقترب كولين من الزجاجة ليلقي نظرة على الغاز السام ولكنه لم يكدْ يقترب حتى انهارت أعصابه وسقط مغمى عليه ليستيقظ ثانية في مستوصف طبي ولم يتذكر شيئاً إلا للحظة التي سقط بها مغمى عليه عندما اقترب من الزجاجة المسمومة.

ظل الملازم كولين مدة ستة عشر عاماً وهو يطالب الدولة بالتعويض عن الضرر الذي أصابه فقد تحول من رجل في عنفوان الصحة والحياة إلى رجل يقاسي من وهن

وانحطاط عميق دوري في قواه عامة وقد حاول الانتحار ثلاث مرات ولقد قـدّم أحـد الأطباء النفسيين الذين أشرفوا على علاج كولين تقريراً إلى الحكومة فحـواه أن كولـين لم يكن يشكو مـن أي أعـراض قبـل حادثـة المخبر وأخيراً توصلـوا إلـى مصالحـة فقـد اعترفت وزارة الدفاع أن كولين قد تعرض وبشكل بسيط لغاز الأعصاب .

تذكر أيها القارئ أن كثيراً مـن علمـاء الحضـارة المصريـة كـانوا ضحايـا الوهـن . وقد رأينا أن (هوارد كارتر) كان يقاسي من هذا الوهن باسـتمرار حتـى إنّـه تـرك عملـه كمنقب عن الآثار عدة مرات ولكنه كان يعود .

وقد رأينا أيضاً اللورد وستبري وهو والد رتشارد بيثل سكرتير كارتر الذي كـان يرافق ابنه إلى مصر هذا الوالد قد قفز من نافذة بيته إلى الأرض وهـو متـأثر كمـا يظـهر بأحد الأعراض الوهنية التـي نوهنـا عنـها وبعـد خمـس سـنوات انتحـرت أرملتـه وأمـا صديق كارتر الحميم وهو الدكتور (إيفلين وايـت) الـذي اشـترك فـي التنقيـب عـن قـبر توت عنخ أمون فقد بدأ يقاسي من وهن عصبي فظيع بحيث إنّهُ رفض أن يسـمح لأي طبيب بفحصه مع أن حالته المرضية كانت خطيـرة وكـان يقـول لكـل طبيـب «لا تتعـب نفسك إنّني أعرف هذه القضية تمام المعرفة وفي أوائل عام 1959 انتحر الدكتور (زكريا غنيم) وهو المفتش الأول لمصلحة الآثار المصرية في مصر العليا بعد أن تعرض لنوبـات من الوهن لعدة سنوات ، وهذا غيض من فيض بالنسبة لمثل هذه الحوادث .

هناك بعض السموم الفتاكة مثل الكلورين وحامض البكريل والفوسجين يمكـن أن تسبب الموت إذا ما استنشقت أبخرتها وهي في حالـة تركيـز عـال بشـكل كـاف وإنَّ قابلية هذه السموم للبقـاء بعملـها مشـكلة مـن المشـكلات لا سـيما إذا كـانت تسـتعمل كأسلحة حربية فهذه المشكلة تستمر في أوقات السـلم أيضاً وذلك لأن التآكل والفسـاد الذي يحل بالأوعية التي تحفظها هذه السموم هو أسرع من فساد السموم نفسها .

كان الزئبق أحد المواد السامة المحاطة بالأسرار في مصر وإنَّ استعماله في المملكة القديمة لم يكـن أكيـداً ولكـن هنـالك وثـائق تشـير إلـى أن تطبيـق استعماله مـن القـرن الخامس عشر ق . م وكان الزئبق الشديد السـمية يؤلف جزءاً من مـادة (الزنجفـر) وهـي

صبغة كبريتور الزئبق وقد ظلت هذه المادة العنصر المفضل والمحبوب لدى الكيماويين ولكن قدرتها الفريدة على التبخر حتى في درجات حرارة منخفضة جداً جعلها سامة قاتلة وذلك لأن أبخرةَ الزئبق تستطيع إحداث الأضرار البليغة بالجهاز العصبي وخطرها يكمن في أنها عديمة الرائحة بعكس الزرنيخ.

موت تشسمن Chessman في غرفة الغاز:

مع أن أبخرة حامض البروزيك ليست عديمة الرائحة تماماً إلا إنها لا ترى بالعين. ففي الساعة العاشرة صباحاً في 2 أيار عام 1960، نفذ حكم الإعدام بالسجين رقم 656 ـ 66 في سجن كونتين قرب سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية وقد تكرر الحكم عليه تسع مرات وتأجل ثماني مرات وكان اسم هذا السجين كاريل تشسمن، وقد كان القاضي قد حكم عليه بالإعدام في 25 حزيران عام 1948 بتهمة تعدد حوادث السرقة والاغتصاب، وبعد اثنَيْ عشر عاماً من الأخذ والرد وضع مقيداً على كرسي من الفولاذ والخشب في غرفة الإعدام ثم سد الباب الصغير البيضوي للحجرة سداً محكماً ثم دفع الحراس بقضيب ومن صندوق مثبت تحت كرسي الإعدام ثم تدحرجت عدة كرات من طاسة مملوءة بحامض الكبريتيك وكانت هذه الكرات من حامض البروزيك الذي تخرج منه أبخرة حينما يتفاعل مع حامض الكبريتيك وبعد ثلاثين ثانية سقط تشسمن فاقد الوعي ثم فارق الحياة بعد ثلاث دقائق وحامض البروزيك هذا هو سائل لا لون له درجة غليانه 36° مئوية ويحدث الموت من الاختناق الداخلي عندما تعجز الرئتان عن امتصاص أكسجين جديد ولقتل شخص بالغ يلزم 60 مليغرام من حامض البروزيك أو 3 . 0 مليغرام لكل ليتر من الهواء لهذه الغاية وقد عزل المصريون القدماء هذا السم من نواة الخوخ وقد افترض أن روائط المومياء كانت تنقع بمزيج من حامض البروزيك وبعض الزيوت المتطايرة وعلى الأقل إنّ هذا يقدم تفسيراً واحداً لتفسخ المومياءات الملكية وهنالك سبب آخر وهو أن القبور كانت مختومة لا يدخل إليها الهواء.

وهنا نقع في مأزقٍ وذلك لأن الدين المصري يتطلب وجود فتحة في القبر لتدخل منها (الكا) وتخرج وقد حل المصريون الأذكياء هذه المشكلة وذلك بواسطة بناء أبواب كاذبة ترسم على الجدران أو تبنى بالحجارة. ولكن لماذا كانت القبور مسدودة سداً محكماً فهل كان المصريون يعلمون أن مادة البنزلاد تحتوي على حامض البروزيك المركز من 2 إلى 4 في المئة أو أن حامض البروزيك يتبخر عند ملامسته بالأكسجين.

وهنالك شاهد ثالث يشير إلى استعمال الأبخرة السامة كوسيلة لحماية المومياءات من لصوص المقابر ففي كل قبر كان اللصوص قد هاجموه، (ولم يكن قبر توت عنخ أمون بمنجاة من هذا الهجوم)، لوحظ أن اللصوص قد حفروا ثقباً بحجم ذراع الإنسان فهذه الفتحة كانت ضيقة جداً فلا تصلح لتسمح لهم بإخراج الكنوز من خلالها ولهذا فقد اتضح أن هذه الفتحات قد عملت لتسهل خروج الغازات السامة من القبور ربما أنه يجب أن يكون اللصوص قد أدركوا أن بعض أصدقائهم قد لاقوا نهاية مرعبة في قبور أخرى حيث لم يسمح للهواء النقي بالدخول لتخفيف حدة السموم وإزالتها.

وفي أوائل الخمسينات من هذا القرن طورت الولايات المتحدة الأمريكية غاز الأعصاب هذا وقد أخذت صيغة هذا السم من وثائق ألمانية عثر عليها بعد انكسار ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وفي عشر السنين التالية بنت الولايات المتحدة حوالي 100.000 صاروخ مجهزة برؤوس غازات سامة ولكن بعد مدة أي في عام 1959 بالتحديد حدث حادث هز ضمير الإنسانية والعالم جمعاء فقد بدأت ألوف من الرؤوس ترشح وهذه كانت مخزونة في أحد المخازن في ولاية (أوتا) وكان هنالك قطيع من الغنم مؤلف من خمسة آلاف غنمة ترعى قرب ذلك المخزن وفي خلال بضعة دقائق نفقت جميع الأغنام وأصبح حوالي (24) شخصاً من البشر في حالة مرض شديدة. ولمنع مثل هذه الحوادث في المستقبل غلفت حوالي 12.450 من الرؤوس السامة المخزونة في مخازن أنيستون التابعة للجيش في ألباما ورتشموند

ولتتكي في أغلفة وزن الواحد منها خمسة طونات تقريباً وتقرر إغراقها في مياه المحيط ولكن هذا الاقتراح قوبل بعاصفة من الاحتجاجات من قبل السياسيين والعلماء في العالم. ولهذا عدل الجيش عن هذه الفكرة وبدأ بإعادة النظر بهذه المشكلة ومن المفارقات الهزلية أن نجد العلماء الكيماويين يجدون طريقة لإبطال مفعول غاز الأعصاب بشرط أن تزال الرؤوس السامة من أغلفتها أو كما يقولون من مقابرها الأسمنتية المسلحة وبما أن هذا الأمر مستحيل التطبيق لهذا فإن الغاز المحفوظ في الإسمنت يجب أن يكون مصيره قعر المحيط رغماً عن كل الاحتجاجات.

ماذا كان يخشى حورمحب:

لقد واجه الفرعون العسكري حورمحب مشكلة مشابهة عندما استولى على العرش وبدأ بإتلاف كل أثر من آثار من سبقه ما عدا قبره مع أنه كان يعلم أن القبر يغص بالذهب إلا أنه ترك القبر دون أن يمس، لماذا هل كان ذلك بسبب شعوره بالتقوى؟ بالتأكيد لم يكن للتقوى أي سبب فإذا كان يخشى شيئاً فهو القوى السرية وقوى السحرة. فبالتأكيد كان من المفهوم أنهم استعملوا السموم أو زرعاً بكتريائيّاً لإنتاج الغازات السامة وذلك لحماية القبر الملكي.

ولكن لم تكن هذه الجراثيم هي المثير الوحيد والمنبه للعنة ففي خلال القرون اكتسب الكهنة المصريون معارف جديدة جعلتهم يبدلون الأنظمة الوقائية المتبعة في قبور الفراعنة ولو كانت السموم والبكتريا هي التي تحرس قبر توت عنخ أمون وكنوزه ضد لصوص القبور لما تورع حورمحب عن التضحية ببضعة مئات من الجنود لاقتحام القبر دون أن يتردد ولو برهة واحدة ولكن بما أنه لم يفعل ذلك فمعنى هذا أنه يجب أن نفترض أنه على الأقل بعد عصر توت عنخ أمون (القرن الثالث عشر ق. م) اتبع نظام جديد للحماية أصبحت عناصره الرئيسية معروفة بين فناني القبور ومجهزي المومياءات حتى إن مجرد امتلاك مثل هذه التقنيات كان له نتائج خطيرة ومميتة.

البيت المتألق

هنالك قبر غريب في مقبرة شلالات إيداهو يحمل اسم ثلاثة رجال وبجانب القبر يقف ترس يحمل هذه الكلمات (انتبه ـ مادة مشعة).

والمادة المشعة هي جثث ثلاثة رجال ماتوا ميتة مفجعة في 3 كانون الثاني 1961 وكان الوقت الساعة التاسعة مساء ودقيقة واحدة بالضبط وذلك لأن المفاعل الذري الموجود في مركز الأبحاث في مركز شلالات إيداهو بدأ ينذر بالخطر وقد كانت العملية كلها كلمح البصر فقد استغرقت حوالي 20.000 /1 من الثانية عندما انفجر المفاعل وأصبحت المنطقة كلها مشبعة بالإشعاع الذري فانطلقت صفارات الإنذار وتحركت الأنوار الكاشفة تنذر بالإشعاع الذري وبعد خمسين دقيقة تحركت أول فرقة تفتيش كاشفة تلبس طقوماً مقاومة للإشعاع ومجهزة بأجهزة لقياس كمية الإشعاع، متوجهة إلى مركز المفاعل.

وفي أثناء ذلك تحققت المخاوف القديمة فقد كانَ هنالك ثلاثة أشخاص مفقودين وهم من الأعضاء المتخصصين بخدمة المفاعل وقد دلت أولى التحريات على أن لا مجال للشك في أنه إذا كان ثلاثة الرجال ما يزالون داخل المفاعل فإنهم قد أصبحوا في عداد الأموات.

وفي الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة دخلت فرقة الإنقاذ في ملابسها البيضاء اللامعة المانعة للإشعاع إلى غرفة المفاعل فوجدوا رجلين مستلقيَيْنِ على الأرض وكان أحدهما لا يزال حياً وقد تحرك حالما سحبوه من الغرفة ولكنه مات قبل أن يصلوا به إلى سيارة الإسعاف.

ولكن الرجل الثاني لم تظهر منه أي بادرة من بوادر الحياة ولهذا فقد بقي في مكانه مدة يومين، ومضى أسبوع قبل أن يتمكن الرجال من استخراج جثّة الرجل الثالث الذي وجد في وسط المفاعل وقد وجد العلماء أنه من الخطورة بمكان إرسال فرقة إنقاذ وبدلاً من ذلك استعملوا رافعة تعمل بالسيطرة من بعد. وكما لو كان يسوقها عفريت تقدمت الرافعة كالثعبان إلى داخل باب المفاعل الأوتوماتيكي وارتطمت وامتدت خلال غرفة المراقبة ثم التقطت جثة الرجل الميت كالملقط وتراجعت إلى خارج الغرفة.

لقد كان دفن الجنود الثلاثة في مقبرة شلالات إيداهو لا يقل غرابة عن موتهم فقد وقفتْ رافعة وسيارة شحن في المقبرة وكانت التوابيت التي اضطجع فيها الرجال الموتى ملبسة بالرصاص ومجهزة بترس مكتوب عليه ما يلي: انتبه درجة عالية من الإشعاع. وبعد أن تكلم الكاهن باختصار رفع الثلاثة كل على حدة بواسطة الرافعة ووضعوا في قبورهم ثم تقدمت سيارة الشحن وصبت الإسمنت السائل فوق التوابيت.

إن حوادث الإشعاع المشابهة في إيداهو تقتل حوالي خمسة أشخاص كل سنة ولا يمكن الحصول على عدد المتوفين الصحيح وذلك لأن مثل هذه القضايا تعتبر أسراراً عسكرية ولا تنشر وفوق ذلك فإن الموت السريع بالإشعاع قلما يحدث وإنما يحدث الموت السريع بواسطة المرض أو بالأحرى بمجموعة أمراض سببها التعرض لخطر الإشعاع في الماضي.

قدرة اليورانيوم:

في عام 1949 فاجأ العالم الذري المعروف البروفسور لويس بولجاريتي علماء الآثار المصرية بقوله: أعتقِد أن المصريين كانوا على علم بقوانين انحلال الذرة تلقائياً. فقد كان الكهنة والحكماء عندهم مطلعين على معدن اليورانيوم ومن المحتمل بالتحديد أنهم استعملوا الإشعاع لكي يحموا أماكنهم المقدسة وبالحقيقة حتى في يومنا هذا يمكن تعدين اليورانيوم من مصر الوسطى.

هل لعنة الفراعنة هي عبارة عن حزام مهلك من الأشعة المميتة؟ فالعالم بيجارتي لا يجد حرجاً من الأخذ بهذه الإمكانية فهو يقول: من المحتمل أن تكون

أرضيات القبور مغطاة باليورانيوم أو أن تكون القبور مبنية أو مكملة بواسطة أحجار مشعة ومثل هذه الأشعة يمكن أن تقتل رجلاً أو تؤذي صحته.

في عام 1896 حين اكتشف العالم الفيزيائي الفرنسي هنري باكوريل أن اليورانيوم يصدر إشعاعات تشبه الأشعة السينية وقبل باكوريل بسنة كان العالم وليم كونراد رونتجن قد برهن على وجود نوع من الأشعة التي لا تزال تحمل اسمه أي أشعة رونتجن وقد نال كل من رونتجن وباكوريل جائزة نوبل ولكن دون أن نقصد الحط من قيمة إنجازاتهما إلا أن المرء يمكن أن يتساءل فيما إذا كان هذان العالمان قد أعادا اكتشاف شيء كان المصريون القدماء قد اكتشفوه في غابر الأزمان.

إنما أصلاً لم يكن باكوريل ورونتجن على علم بالأهمية أو النتائج الخارقة لاكتشافهما فإذا جاز لنا أن نعزو سبب لعنة الفراعنة للإشعاع، وحتى ولو كان ذلك التحديد جزئياً عندها من الممكن أن نعترف ونقر للمصريين القدماء بالفضل لأنهم أشرفوا على علوم لم يكن حتى الحائزون على جائزة نوبل يعرفونها فهؤلاء كانوا يتعاملون مع المواد المشعة دون التفكير بأي حماية منها وكأنها دمى أطفال عجيبة. ويروي أرنيست بوملر في كتابه (فورة نشاط الذرة) أن هنري بوكريل سافر إلى لندن لإلقاء محاضرة علمية ومعه كمية من الراديوم في جيبة صدريته وقد قاسى من حروق مؤلمة في صدره نتيجة لذلك.

ولقد حدثت حوادث مشابهة لنتائج لعنة الفراعنة وذلك في حادثة واقعية حدثت في العشرينيّات من القرن الحالي فبعد أن اكتشف أن المواد المشعة تتوهج في الظلام ظهرت صناعة جديدة في (نيو جرسي) في الولايات المتحدة وهي صناعة أوجه الساعات المتوهج فقد قضت كثير من النسوة وقتاً كبيراً في دهن أوجه الساعات بدهان مشع بمساعدة فراشٍ صغيرة ودقيقة وعند وضع بعض النقاط على الفراشي كان بعض العمال يضعون طرف الفرشاة في أفواههم، وقد استغرقت عملية موت عامل مدة سنتين بسبب التهابات، وعند ذلك فقد انتبه الأطباء والفيزيائيون من غفلتهم فالعناية المشددة بالعمال وهم على رأس عملهم أزالت كثيراً مما يمتصه الجسم إذ إنَّه حتى

الكميات الصغيرة يمكن أن تسبب سرطان الدم لأنه بمجرد دخول العناصر المشعة إلى الجسم يتأثر نخاع العظام وهو المادة الأساسية في تكوين الكريات الحمراء في الدم لعدة سنوات بينما تظل الكريات البيضاء تتكاثر دون أي عائق ولهذا فإن سرطان الدم لا يزال عسير العلاج والشفاء. والموت للمصاب به محقق إنما هو قضية زمن.

والموت بالإشعاع هو موت رهيب فتأثيراته يمكن أن تكون بطيئة ولا يلاحظها الشخص الغريب وقد حدثت عدّةُ حوادث من هذا النوع في السنوات السابقة وعند فحص هذه الحوادث بإمعان تبين وجود تشابه كبير مع حوادث موت كثير من علماء الآثار المذكورين آنفاً.

ففي الأول من آذار عام 1954 كان قارب الصيد الياباني واسمه (التنين المحظوظ) يسير قرب جزائر مارشال فإذا بزخة من المطر من الرماد الذري الذي أحدثته تجربة انفجار ذري قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية قرب تلك الجزر وقد كانت لتلك التجربة الذرية نتائج مأساوية فقد بدا الإثنان والعشرون شخصاً من بحارة قارب الصيد تعساء من أضرار الإشعاع وقد توفي واحد منهم وهو بحار عمره اثنان وأربعون عاماً واسمه كوبوجاما بعد ستة أشهر من إصابته. وحسبما قرر الأطبّاء فقد عزي سبب الموت للإشعاع مباشرة، وقد قال الطبيب: إن سبب الموت المباشر هو انهيار في الجهاز الدوراني فقد تقلص كبد (كوبوجاما) إلى جزء يسير من حجمه العادي فأصبح يزن حوالي 820 غرام بدلاً من 2200 غرام. وقد اعتقد الطبيب أن تقلص الكبد هذا أدى إلى إصابة الشخص بمرض اليرقان الذي أثر بدوره على القلب والكليتين ثم تبع ذلك تمزّقٌ في الكليتين ونزيف وقد تأثرت البنكرياس أيضاً وقد ذكرت زوجة كوبوجاما أن آخر كلماته كانت «إنني تعب وأشعر بألم شديد».

وقد رأينا في الفصول الأولى من هذا الكتاب أن علماء الآثار المصرية كانوا يشكون أيضاً من تعب شديد قبل موتهم بوقت قصير وبما أن المرض الغامض الذي كان يعتبر المسؤول عن الموت لم يكن ليظهر أي أعراض خارجية لذلك فإن إمكانية وجود الإشعاع واردة ولا يمكن الاستهانة بها بالنسبة لإصابات علماء الآثار المصرية، وهنالك دليل آخر يؤيد نظرية

الإشعاع وهو أن المرض الغامض هذا كان يختلف اختلافاً عظيماً من شخص لآخر فبعض العلماء كانوا يقاسون من تغييرات الأخطار ولكن في خلال فترة عشر سنوات ماتت اثنتان وأربعون امرأة ومعظمهن بمرض السرطان كنتيجة مباشرة لتعرضهن للإشعاع.

ولا يغيب عن بالنا ما ذكرنا في أول هذا الكتاب من أن كثيراً من علماء الحضارة المصرية والمكتشفين ماتوا في ظروف غامضة دون أن يستطيع أحد أن يعرف سبب الموت الحقيقي وقد شكا علماء الآثار من الإرهاق الزائد وبعضهم ظَهَرتْ عليه أعراض عطل في الدماغ بعد أن عملوا في مصر بينما لم يشعر آخرون بأي ضرر مطلقاً.

النشاط الإشعاعي ظاهرة لا يمكن التنبؤ بها:

ما هو تأثير الإشعاع على الكائن الحي؟ كم من الزمن تبقى المادة المشعة قادرة على إطلاق الإشعاعات القاتلة؟

قال الدكتور جاكوب يوجستر Jacob Eugster من جامعة برن: إنَّ انشطار النواة لا يحدث بسرعة ثابتة ولكنه خاضع لتأثيرات خارجية ولكي يثبتَ نظريته قام بتجربة غريبة فقد قسم مادة مشعة إلى شطرين وعرَّض أحدَهما للأشعة فوق البنفسجية على قمة جبل ووضع النصف الثاني في نفق (سمبلون) لسكة الحديد فوجد أن اليورانيوم في نفق سمبلون كان ينشطر بسرعة أقل بكثير من انشطار اليورانيوم على قمة الجبل وبكلمة أخرى إنَّ المادة تحتفظ بقدرة الإشعاع تحت الأرض مدة أطول.

ونسبياً يمكن لكميات صغيرة من الإشعاع أن تسبب ضرراً للصحة العامة وبعكس السموم الكيماوية يلاحظ انه لا يمكن إبطال مفعول الإشعاع فالمواد المشعة لا يمكن تغييرها إلى مواد أخرى ولا يمكن إزالتها أيضاً إذ عندما يمتص جسم الكائن الحي هذه الإشعاعات تبقى في داخله فالتعرض الجديد إنما يزيد في الكمية المخزونة من الإشعاع.

وتستهلك الطاقة الإشعاعية على شكل تفاعلات كيماوية فالبنية الخلوية للجسم يمكن أن تحطم خلال جزء من الثانية ولكن في حالة التعرض الخفيف للإشعاع فإن عدة خلايا مختلفة تهاجم ولكن بصورة عشوائية، وأمَّا النتائج البيولوجية فتزدادُ سوءاً حسب أهمية المادة الخلوية المصابة بالنسبة لحياة الخلية وبالتالي لأهمية الخلية

بالنسبة للكائن الحي بأجمعه فالقرب من الإشعاع للخلايا التي لها بديل يعمل عملها يمكن إهماله وتجاهله، ولكن عطب عنصر أساسي خلوي هو شيء خطير لا سيما إذا كانت تلك الخلايا تنظّم الاستقلابات الكيماوية في المادة الحية أو إذا كانت حاملة لبعض السمات والخصائص الوراثية الخاصة.

وإنَّ اكثر أشكال النتائج المشاهدة للإشعاع هي اللوكيميا (سرطان الدم) وتشوه الجنين، وهذه النتائج لا تعتمد على كمية الإشعاع غير فيسيولوجية بعد وقت قصير من بدء العمل في القبور أو مع المومياءات وفي حالات أخرى لم تظهر أي أعراض لمدة شهور أو سنوات وبعضهم ماتوا بسرعة وبشكل غير منتظر وآخَرون كانوا تعساء بسبب عطل في الدماغ وأخيراً كان هنالك رجال اشتركوا في الحفريات ولكن لم يتأثروا بلعنة الفراعنة بأي شكل من الأشكال.

وإن ردود الفعل المختلفة للإشعاع هذه غريبة حقاً فبعد عشرين عاماً من إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي في آب عام 1945، أصدرت وزارة الصحة اليابانية كتاباً تذكارياً كشف به النقاب عن أن أثر الإشعاع كان مختلفاً بالنسبة للسكان ففي خلال عام 1964 مات حوالي 200 شخص نتيجة الإشعاعات وفي كل سنة كان حوالي 150 شخصاً يظهرون أعراض الأضرار الإشعاعية لأول مرة منذ تعرضهم للقنبلة.

إن حادثة جابية الباص (كيميكو ماتسودا) التي كانت في العشرين من عمرها عند إلقاء القنبلة هي حادثة مثيرة فقد بدت في صحة جيدة تماماً بعد الكارثة ولكنها بدأت فجأة تشكو من أضرار الإشعاع حتى إنَّها أخذت إلى المستشفى بعد ظهور تلك الأعراض وماتت الأم والأخوات بعد وقت قصير وأما والدها فقد عاش ثمانية عشر عاماً حتى عام 1963 وأما أخوها الذي يكبرها بست سنوات فهو لا يزال حياً ويتمتع بصحة جيدة نوعاً ما ومع ذلك فإنه عند إلقاء القنبلة كان جميع أفراد العائلة مجتمعين معاً في بيت واحد.

أن أية مقارنة بين الإشعاع الذي يتبع الانفجار الذري والأشعة ذات النشاط الإشعاعي التي يمكن أن تنبعث من قبور الفراعنة والمومياءات مبالغ فيها طبعاً زد على ذلك فالإشعاعات لها تأثيرات مختلفة على مختلف الأشخاص ولا يجب أن يغيب

عن بالنا أن الضرر الذي يحدث نتيجة للتعرض مدة طويلة لإشعاعات ضعيفة يمكن أن ينتج نفس النتائج التي تنتجها جرعات أقوى وأعلى ولكن بوقت أقل.

إن تعرضاً صغيراً بشكل مستمر للمواد المشعة يمكن أن يسبب نتائج وراثية ويمكن أن يسبب السرطان وهنالك تقرير صادر عن المجلس البريطاني للبحث الطبي مثلاً يقول «يبدو أن أي كمية من مادة السترونتيوم المشعة التي يمتصها الجسم خلال العظام تجعل تكون السرطان أكثر إمكانية وربما بتقصير الفترة الزمنية حتى يظهر السرطان وإن إمكانية حدوث السرطان تزداد تبعاً لجرعة المواد المشعة».

وإن السترونتيوم هو مادة قلوية وزنها الذري 62 . 87 وبعد الانفجار الذري يتكون نظير ثقيل يدعى سترونتيوم رقم 90 وتمتصه بعض الأطعمة الأساسية كاللحم والحليب والبيض ثم تتوضع هذه المواد في عظام الكائنات البشرية والحيوانية وبهذا تُصبحُ بنية الدم معرضة لإشعاع مستمر.

إشعاع اليورانيوم، وكم يستمر:

إن النظير سترانيوم 90 له مدة من الحياة تستمر 28 عاماً وهذا الوقت يكفي لعطب قوة نصف كتلته الإشعاعية، وهذه الحقيقة تثير في الذهن نفس السؤال حول المادة المشعة فضلاً عن السموم والبكتريا، هل تستطيع هذه المواد أن تحتفظ بقواها الكامنة الخطيرة لعدة آلاف من السنين وإذا كان الأمر كذلك فهل تظل قوتها الإشعاعية كافية للقتل؟

إن الجواب يعتمد على تصنيف حياة العناصر المختلفة ولنذكر أولاً تعريفاً مقبولاً ليصف فترة حياة العنصر وإنَّ كهولة حياة العنصر هي سرعة التغير الذري وهو الوقت الذي تحتاجه نصف النواة الذرية ليعطب وبعد مضي نصف فترة حياة العنصر يبقى ربع قدرة العنصر على الإشعاع وأنصاف الحياة هذه تختلف فمثلاً هي عبارة عن ساعة بالنسبة لنظير الكلور 0 و6 . 2 سنة بالنسبة لنظير الصوديوم 0 و 8 . 12 سنة بالنسبة للتريتيوم (وهو أحد نظائر الهيدروجين المشعة) و 1580 سنة بالنسبة للراديوم و 5730 سنة بالنسبة للكربون 014 وهنالك نظير مشع وزنه الذري 230 يتشكل من انحلال معدن التوريوم له نصف حياة أو حياة كهولته هي مليون سنة وأما نصف حياة

أحد نظائر البريليوم تقدر بـ 2.7 مليون سَنَة. بينما نصف حياة نظير الأورانيوم رقم 238 يقدر بـ 7.5 بليون سَنَة.

وتختلف نظائر نفس العنصر من نظير إلى آخر في عدد النيوترونات في نواة كل نظير. ومعظم نظائر العناصر ليست مواداً متماثلة منتظمة بل هي مزيج من النظائر وهذه ظاهرة تدعى ظاهرة توحد الخواص فإن ظاهرة توحد الخواص في الرصاص (وزنه الذري 207.2) هي واحدة من أمتع الظواهر وذلك لأن انحلال معدني الثوريوم واليورانيوم ينتج مع الزمن نظائر مختلفة من نظائر الرصاص خلال حقب طويلة جداً من الزمن تقدر ببلايين السنين.

وطبقاً لقوانين الانحلال الذري فإن ألف كيلوا غرام من اليورانيوم تنتج غراماً واحداً من الرصاص في مدة عشرة آلاف عام.

وهنالك نتيجة ظاهرة واحدة لها علاقة بشدة استهلاك الطاقة فإذا كانت هنالك مواد مشعة مخزونة في القبور الملكية المصرية فإنه ليس من الضروري أن توضع هذه المواد خلف أو تحت كتل ضخمة من الحجارة أو الجدران المعدنية فإذا أخذنا بعين الاعتبار المستوى العالي لمعرفة العلوم لدى المصريين القدماء فإنه لمن المعقول أن نشك في قدرة المصريين القدماء على معرفة العملية التي اكتشفتها جوليو كوري في عام 1934 وهي أن انشطار النواة الذري يمكن أن ينتج إشعاعاً اصطناعياً في عناصر ليست مشعة بشكل طبيعي وعادي، وإذا سلمنا بهذه النظرية فإنه ربما احتوت القبور كثيراً من الأشياء المصنوعة الصغيرة التي لم يكن يعرف لها أي فائدة أو غرض إلا أنها في الحقيقة مواد مشعة قاتلة صممت لتنفيذ صيغ الموت التي هدد بها الفراعنة.

وهكذا فمن الممكن تفسير وفاة كثير من علماء الآثار المستكشفين وربما أمكن تفسير الكارثة التي حلت بالباخرة (تيتانيك) وهي أعظم الكوارث البحرية المثيرة في هذا القرن.

فقد اصطدمت الباخرة تيتانيك في 14 نيسان 1913 بجبل جليدي وهي تقوم برحلة من ساوثمبتون في إنكلترا إلى نيويورك وغرقت بعد أن سببت موت 1500 إنسان. وقد كانت هذه السفينة تعتبر أجمل سفينة في العالم في وزنها وأكبرها وأسرعها واعتبرت من السفن التي لا يمكن أن تغرق أبداً.

وقد لعب قبطان الباخرة (إدوارد سميث) دوراً غامضاً في هذه الكارثة فقد كان بحاراً متمرساً ومن الدرجة الأولى ولولا ذلك لما عين قبطانا لتلك السفينة الرائعة. ولكن في ذلك اليوم من أيام نيسان سلك سلوكاً غريباً فقد بدأ هذا المجرى الذي اختاره لسير السفينة ثم السرعة العالية بشكل غير عادي ثمَّ رد فعله الغريب تجاه طلب النجدة وانتهى الأمر بخطة الإنقاذ التي لم تعلن إلا في آخر لحظة.

وعلى ظهر تلك السفينة كان هنالك 2200 راكباً وأربعون طناً من البطاطا و(12) ألف زجاجة من الماء المعدني و (7) آلاف كيس من القهوة و (35) ألف بيضة ثم كان هنالك إحدى المومياءات المصرية كان اللورد كانترفيل يريد نقلها من إنكلترا إلى نيويورك.

وكانت المومياء هي مومياء إحدى المتنبِّئات التي تمتعت بشعبية رائعة زمن حكم أمنحوتب الرابع (أخناتون) وهو الفرعون الذي نادى بالتوحيد وقد وجد قبرها في تل العمارنة وبني معبد صغير لهذه المتنبِّئة يدعى معبد العيون.

وقد جهزت المومياء المؤنثة بما يناسب مقامها من التمائم المعتادة ومنها تميمة عليها صورة أوزيريس والكتابة الآتية: «استيقظي من تلك الغفوة التي أنت فيها وإنَّ نظرة من عينيك سوف تحرز النصر على كل شيء ضدك». وقد وضعت تلك التميمة تحت رأس الميتة فهل كانت هذه تلميحاً إلى أن جسم المتنبِّئة هذه يتمتع بحماية خاصة؟.

وضعت المومياء في صندوق خشبي وبسبب قيمتها العظيمة لم توضع بين البضائع التي تحملها الباخرة ولكنها وضعت خلف قمرة القبطان. فهل يا ترى قد نظر القبطان (سميث) إلى تلك العينين المشعتين المميتتين؟ وهل من الممكن أن يكون القبطان (سميث) هو أحد ضحايا اللعنة؟ إذْ إنَّ كثيراً من العلماء الذين درسوا المومياءات قد ظهر منهم إشارات الهلوسة وانحطاط عقلي واضح.

لم يكن لدى المصريين القدماء آليات لرفع الأتربة وكسح الصخور بل كانت القوى العضلية هي السائدة ومع ذلك فقد كانت منجزاتهم هائلة، إذ استخرج المصريون القدماء من الأرض كل ما يمكن استخراجه والذهب كان يحتل المركز الأول وبما أن الذهب واليورانيوم يوجدان في نفس الطبقات الصخرية فلا شك بأنهم قد استخرجوا اليورانيوم أيضاً واليورانيوم لا يزال يستخرج من مصر اليوم.

هنالك كثير من أوراق البردي تخبرنا عن مناجم الذهب القديمة فهنالك عدة مناجم في ناحية (أم القريات) على بعد 60 ميلاً شرقي النيل ويقدر المهندسون في التعدين أن حوالي (100) ألف طن من الصخور قد استخرجت من هنالك في الزمن القديم.

وقد وجد نقش صغير قرب قرية (القبان) تخبر عن محاولة غير ناجحة لحفر بئر في زمن الفرعون رعمسيس الثاني ويشار إلى المنطقة (بوادي مناجم الذهب).
وهنالك ورقة بردي موجودة في مدينة (تورين) تذكر المنطقة وتقول: إنَّ الجبال التي استخرج منها الذهب كانت معلمة باللون الأحمر ويظن أن الفرعون سيتي الأول قد نقب عن الذهب هنالك حوالي عام (1300) ق.م.

الحقيقة أنه لا يوجد لا في أوراق البردى ولا في أي منقوشات على جدران المعابد أي ذكر لليورانيوم ولا للثوريوم ولا أي مفاهيم يمكن أن تكون إشارة لأحدهما ولكن هذا لا يثبت أن المصريين لم يكونوا يعرفون أي شيء عنهما ومن الممكن أنهم استعملوا القدرة الموجودة في هذين العنصرين دون معرفة مصدر هذه القدرة.

إن طناً واحداً من التراب الفلزي يحتوي على حوالي 17 غرام من الرصاص ولكن يحتوي على قليل من الذهب (حوالي 0.002) غرام من الذهب.

فالمصريون الذين حفروا واستحصلوا على الأطنان من الذهب لأجل القبور لا شك أنهم صادفوا اليورانيوم والثوريوم ما دام أن المعدل الوسطي لما يحتوي عليه الطن من التراب فيه (11) غرام من الثوريوم و (4) غرامات من اليورانيوم.

إن الذهب واليورانيوم يوجدان عادة في نفس المنجم لأن كلا المعدنين يوجدان في طبقات جرانيتية فالفلزات الذهبية الموجودة في جنوب إفريقية مثلاً والتي هي أغنى مناجم العالم لا تحتوي على نسبة لا تصدق من الذهب وهي من 6 - 10 غرامات في الطن الواحد من الصخور فحسب ولكن فيها نسبة لا بأس بها من اليورانيوم والثوريوم حتى إنَّ كثيراً من المناجم في جنوب إفريقية قد تحولت من مناجم ذهب إلى مناجم يورانيوم.

كان المصريون ينقبون عن الذهب حتى قبل بناء الاهرامات فالعالم الأثري (كويبا) الذي اكتشف بعض قبور ما قبل التاريخ قرب قرية (الكاب) وجد قضيباً من الذهب في إحدى هذه القبور وقد أرسل أحد ملوك بابل رقيماً حجرياً لكل من الفرعون أمنحوتب الثالث والرابع طلب من كل منهما عشرين مثقالاً من الذهب وذلك لبناء معبد جديد وقد أشار هذا الملك البابلي أن والده قد استلم بعض الذهب من الفراعنة كما فعل ملك كابادوكيا وهذا يوضح كثرة ما كان يوجد من الذهب في مصر.

وفي حوالي عام 1900 م بدأ كثير من شركات التعدين في فحص المناجم المصرية القديمة علها تتمكن من تجديد نشاط التعدين هناك وقد كان الحماس لا يقلُّ عن حماس مكتشفي الذهب في أميركا فقد بدأت ثلاثة وثلاثون بعثة إنكليزية تزحف نحو المناجم وتجوب خلال الصحراء المصرية والصحراء النوبية للتفتيش عمَّا يمكن أن يكون المصريون القدماء قد تركوه ولكن مع الأسف كان القرار النهائي أن المصريين القدماء قد استنزفوا كل ما كان هناك من ذهب ولم يتركوا شيئاً ومع ذلك فقد أقدمت خمس وعشرون شركة على استصدار امتيازات تعدينية جديدة من الحكومة المصرية وقد كانت أهم شركة من هذه الشركات المنقبة هي شركة (التنقيب عن المعادن المصرية) وكان امتيازها يخولها التنقيب في المنطقة على خطوط العرض 5 ـ 27 على طول البحر الأحمر. وفي شباط عام 1903 وفي المنطقة حول (أم الروس) صادف رئيس المهندسين (إلفورد) عروقاً من الكوارتز تحتوي على الذهب واليورانيوم.. ووجد (إلفورد) أيضاً آثار مئات من الأكواخ القديمة الحجرية التي كان العمال المصريّون القدماء يسكنون بها وهم الذين كانوا يشتغلون في تعدين الذهب.

ثم بدأت الشركة المصرية السودانية للفلزات بالتنقيب جنوب الشركة المصرية للتنقيب وقد امتد امتيازُها على طول الطريق إلى نوبيا وهذه المنطقة حسبما ذكر (ديودورس وسكولوس) وإجاثا رتشايدس أن حفريات من هذا النوع قد حدثت في عصر بطليموس وقد بنت شركة التعدين مراكزها الرئيسية في المنطقة التي تحيط بها الحفر والخنادق.

وتعرف في هذه الأيام باسم دريكيب.

وكانت عروق من الذهب لا تزال حول المكان وفي نهاية أحد هذه الأنفاق صادف المستكشفون جداراً من الحجارة الثقيلة وعليه كتابة هيروغلوفية ماثلة وقد كتب مهندسو المنجم في تقريرهم: إنَّهم وجدوا هذا الأمر غريباً ولكن بما أنهم لم يجدوا أي تفسير لاكتشافاتهم فقد أقفلوا الرواق والحفر العموديَّة المجاورة.

وهنالك بعض المؤشرات التي كثر حدوثها في المناجم المصرية وهي تأتي من شركة وادي النيل للحفريات، وكان للشركة امتياز غرب المناجم المصرية السودانية في (أم القريات) حيث كانت تحميها بعض أبراج المراقبة التي لا تزال آثارها ظاهرة للعيان. وكانت هذه المناجم مشمولة بالامتياز أيضاً ويقع وادي (انفاط) جنوب شرق (أم القريات) وقد اكتشف مهندسو شركة وادي النيل بعض كتابات هيروغلوفية لم يستطع أحد أن يحل رموزها. وحتى الآن لم يستطع علماء الآثار أن يعرفوا شيئاً سوى اسم المؤلف فآخر سطر يذكر اسم أمنحوتب ـ الكاتب.

ماذا كان أمنحوتب الكاتب يصنَع في المنجم يا ترى وما الذي دعاه لأن يكتب هذه الكتابات الهيروغلوفية في الصخور تحت الأرض؟ وما الذي جعل المصريين القدماء يسورون المناجم ويضعون الكتابات المنقوشة فيها.

إنَّ الوضع الحاضر للتاريخ المصري لا يسمح بإعطاء أي جواب شاف لهذه الأسئلة ولكن مع أننا لا نزال بحاجة إلى برهان نهائي حول ما إذا كان المصريون قد عرفوا تأثير النشاط الإشعاعي والإشعاع الذري وليس هنالك إثبات معاكس أيضاً بأنهم لم يستعملوا هذه المعرفة.

الموت والحياة من النجوم

في الساعة الثانية والنصف صباحاً، كانت إحدى سيارات الإطفاء تسير بالسرعة القصوى خلال مدينة فستمانيجر الواقعة في أقصى جزيرة هيماسي من جزر أيسلندة، وكانت ليلة مظلمة من ليالي 23 كانون الثاني عام 1973 فقد كان أحدهم قد أخبر دائرة الإطفاء أن أحد البيوت في المدينة يحترق. ولكن بعد أربع دقائق من وصول السيارة إلى المكان المعين عادت السيارة على أعقابها مع رجال الإطفاء ولكن صفاراتها كانت مستمرة في العويل وذلك لأن النار التي أُخْبر عنها لا يمكن إخمادها لأنها عبارة عن ثوران بركاني.

لم يحدث أن ثار هذا البركان وهو يدعى (الجبل المقدس) الواقع على تلك الجزيرة الصغيرة التي تبلغ مساحتها ستة عشر ميلاً مربعاً، ولم تظهر أي إشارة إنذار بالثوران منذ سبعة آلاف عام، ولكن في تلك الليلة المشؤومة ليلة 23 كانون الثاني 1973 حدث ثوران في فوهة جانبية من الجبل شق صدعاً طوله كيلو متر ونصف داخل الأرض ولفظ حوالي مئة متر مربع من المنصهرات البركانية مندفعة عالياً في الجو.

تدفقت سيول من المنصهرات البركانية إلى البحر، احترقت كثير من البيوت ودفنت سيارات وأخذ الماء في البحر يغلي في الميناء ولحسن الحظ كان مسير الريح مواتياً بحيث أبعدت النارَ عن المدينة ومع أن بعض السكان كانوا يعيشون قرب الفوهة البركانية إلا أنه لم يمت أحد.

اهتم العلماء بهذا البركان لسبب خاص هام وهو الآتي :

إن المنصهرات البركانية التي تندفع نحو السماء تتكون عادة من جزيئات تحتوي على الحديد وإنَّ المجال المغناطيسي الأرضي يوجه هذه الجزيئات أثناء اندفاعها إلى الأعلى وكعدد لا يحصى من إبَرِ البوصلات تطير جميعها في نفس الاتجاه وإن المنصهرات التي تتجمد متحولة أخيراً إلى حجر البازلت سوف تظهر بعْدَ مئات الألوف من السنين التي مضتْ وانقضت حتى وصل المجال المغناطيسي للأرض لحالته الحاضرة عام 1973 . ولنفترض لسبب أو لآخر أن تاريخ هذا الثوران البركاني قد نسي فإنه من الممكن حساب الزمن بمجرد اتجاه البازلت لأن المجال المغناطيسي للأرض هو عرضة للتغير الدائم فنحن نعرف الآن أنه قبل سبعمائة ألف سنة كان القطب المغناطيسي الشمالي للأرض متوضعاً حيث القطب الجنوبي وأنَّهُ قبل متتي ألف سنة 000 . 200 سنة من تلك الحقبة كان القطب المغناطيسي الشمالي في نفس موضعه الآن وخلال الـ (76) مليون عام من تاريخ الأرض حدث (171) تغيُّراً وتبدُّلاً لمركز الأقطاب المغناطيسية .

وهذه التغيرات في مراكز الأقطاب أحدثت تغيرات في المناخ وفي الزلازل والثورات البركانية ولكن الأهم من هذا كله أنها أحدثت تغيرات في توازن نشاط الأشعة الكونية وطاقتها وهذا يتسبب عنه نتائج مميتة فالعواصف المغناطيسية والتغيرات الفجائية في المجالات المغناطيسية الجغرافية للكرة الأرضية كتلك التي سجلت خلال نشاط الكلف الشمسي العنيف كل هذه تعطينا بعض الأفكار عن التأثيرات الهائلة التي يمكن أن تسببها التغيرات في المراكز القطبية .

إن تباين كميات السوائل واختلافَها والمواد الصلبة داخل الكرة الأرضية يخلق مجالها المغناطيسي فالقالب الصلب للكرة الأرضية مغطى بطبقات سائلة وهذه بدورها مغطاة بطبقة أصلب وبما أنه طبقاً لقوانين الجاذبية ، تتعرض هذه الطبقات لمختلف أنواع السرعة في الدوران لذا تنشأ تيارات كهربائية ومجالات مغناطيسية كما هي الحالة في المولدات الكهربائية (الديناموات) ومثل هذه التيارات تسير حول خط

الاستواء. وأثناء عملية قلب القطبين يتحرك القطب المغناطيسي الشمالي باتجاه نصف الكرة الجنوبي بينما يتحرك القطب المغناطيسي الجنوبي باتجاه الشمال.

إن الشّمال الجغرافي والشمال المغناطيسي. لا يتطابقان في موضعهما حتى في هذه الأيام فالشمال المغناطيسي يتحرك باستمرار ففي أثناء العصر الجيولوجي الثالث (حين تكونت به سلاسل الجبال الكبرى كالألب وهيملايا) كان متوضعاً على خط عرض 70 شمالاً وخط طول 60 غرباً وقبل (350) مليون سنة كان متوضعاً عند درجة عرض 30 شمالاً ودرجة طول 45 غرباً.

ولمدة أكثر من مئة سنة استمر العلماء في تسجيل الضعف المستمر في المجال المغناطيسي الأرضي. وتشير أحدث الحسابات أنه إذا استمر الحال على هذا المنوال فإن المجال المغناطيسي الأرضي يتدنى إلى الصفر في مدى ألفي عام وفي عملية الاستمرار فإن هذا المجال سوف يعيد بناء نفسه بالاتجاه المعاكس ولكن هل تتمكن الكائنات الحية أن تظل على قيد الحياة وتتخطى هذه الكارثة؟

إن هذا لغز علمي محير لا يستطاع حله حتى الآن ولكن على أي حال فإنه سيكون من المحتم على الناس في المستقبل أن يهتموا بالمشاكل العلمية التي يهملها سكان الأرض في الوقت الحاضر أو بكلمة أخرى لا يحملونها على محمل الجد.

إن القوة الفيزيائية للمجال المغناطيسي يمكن أن تقرر بقياسات بسيطة، فالمجال المغناطيسي الأفقي له قدرة 0.1 جاوس (والجاوس هو وحدة الحث المغناطيسي) والكلف الشمسي يمكن أن تصل قدرته من 2000ـ 4000 جاوس وبالمقابل فإن قدرة التيار الكهربائي الداخل إلى مصباح كهربائي هي 0.2 جاوس.

إن المجال المغناطيسي الأرضي يتضاعف في جميع الأجسام التي تحتوي على الحديد فالمطارق الحديدية المستعملة في نصف الكرة الشمالي ينشأ على جوانبها مجال مغناطيسي جنوبي ويتكون مجال مغناطيسي شمالي على مقبض مظلة عندما تدار المظلة نحو الأرض وهذه القوى المغناطيسية تعمل على الأرض بينما لا يعيرها العلماء

أي اهتمام لأنها لا تبدو ذات أهمية عملية تطبيقية ولكن المصريين القدماء بملاحظاتهم الفذة للسموات كانوا يتبعون بعض الظواهر العلمية التي لم نهتم نحن أبناء القرن العشرين حتى بحملها على محمل جدي.

لماذا نرى المصريين القدماء الذين أحبوا واحترموا موتاهم لدرجة أنهم وضعوا مومياء أجدادهم بشكل عمودي في غرف المعيشة وغالباً ما تدوم تلك الوقفة عدة سنوات؟ لماذا نرى المصريين يدفنون الفراعنة في أماكن بعيدة عن أماكن السكن في مدن الموتى الكبيرة وقد جعلت طيبة مدينة أمواتها في وادي الملوك وأما ممفيس ففي صقارة والجيزة فهل من الممكن أن تكون هذه الأماكن المخصصة للموتى معرَّضةً بصفة خاصة للأشعة الكونية وتأثيراتها؟.

إن نظام الكواكب بأجمعه يخضع لعلاقات متبادلة كهراطيسية وإشعاعية تتعرض لها جميع الكائنات الحية قاطبة، فالمجال المغناطيسي مثلاً يلتقط الأشعة الكونية وهذا هو السبب الذي يجعل جزيئات الإشعاع الكهرطيسي لا تستطيع السير على خط مستقيم بحرية ولكنها مجبرة على السير في ممرات حلزونية تسير على طول خط المجال المغناطيسي.

إن مناطق الإشعاع الأرضية المسماة أحزمة (فان ألن) باسم مكتشفها مؤلفة من جزيئات ذات طاقة عالية من الإشعاع الكوني خاضعة للمجال المغناطيسي الأرضي وهذا النظام المعقد المتشابك بأجمعه من السهل تعطيله وإيقاع الفوضى فيه.

بقع (رع) المشؤومة:

إذا كان المصريون يعتبرون أي شيء مقدساً فهو الشمس وإذا كانت الاهتمامات العلمية مركزة على شيء واحد فإنما هو على الشمس فمن أقدم الأزمنة كان (رع) وهو إله الشمس الأعظم وفيما بعد أصبحت الشمس الكوكب الجدير بالاستكشاف.

تخبرنا النصوص البابلية المسمارية عن الأرصاد الدقيقة للشمس وعن زيادة ضوئها ونقصه وعن الكلف الذي يلاحظ على سطح القمر ولكن يبدو حينئذ أن هذا الكلف الشمسي قد نسي أمره ولكن الصينيين اخذوا يهتمون به في القرن الثالث عشر

الميلادي، ثم إنّ هذا الكلف قد أثار فضول جاليلو ولكـن فـي منتصـف القـرن الماضي اكتشف العلماء الألمان أن نشاط الكلف الشمسي يصل ذروته كل أحد عشر عاماً.

وفي هذه الأيام نحن نعلم أن الكلف الشمسي له تأثير قوي على قوة النشاطات العضوية والكونية على الكرة الأرضية فـالكوارث العالمية الطبيعية لـها علاقة بنشاط الكلف الشمسي وبلوغه ذروته.

ففـي 27 آب عـام 1883، ثـار بركـان (كاراكـاتو) فـي مضيـق (سـندا) وقتـل 80.000 إنسان وفي ذلك الوقـت كـان نشاط الكلـف الشمسـي في ذروتـه ثـم هـزت الزلازل العنيفة مدينـة سـان فرنسيسكو ومسينا في عـام 1906 و 1908 علـى التوالـي خلال نشاطات الكلف الشمسـي العنيفة. وفي أيلـول عـام 1926 أتلـف إعصـار هـائل أقسام كبيرة من فلوريدا بينما خربتْ زوبعة حلزونية جامايكـا، واكتسـحت الصواعـق نبراسكا وكانت نشاطات الكلف الشمسي في ذلك الوقت على أشدها.

ما هو الكلف الشمسي؟

إذا وضعت مصباحاً كهربائياً مشتعلاً أمام قطعة من الفولاذ المتوهج فإن المصباح يظهر للعين وكأنه بقعـة مظلمـة، فـالبقع المظلمـة علـى قـرص الشـمس ليسـت بـالكتل الباردة أو المتجمدة بل إنَّ درجة حرارتها هي فقط أقل انخفاضاً مـمّا يحيط بها.

إن سبب هذه التغيرات المريعة يمكن أن تعزى للمجال المغناطيسي الشمسي فهذا المجال يتغـير فـي اتجاهـه وقوتـه أكثر مـن المجـال المغنـاطيسـي الأرضـي وبـهذا تتضـاعف الفروق بين قوة المجالات المغناطيسية هذه آلاف المرات.

وكمـا يحـدث فـي الأرض ومجالـها المغناطيسـي فـإن التغـيرات فـي المجـالات المغناطيسية على الشمس تؤدي إلى تغيرات في درجات الحرارة.

على سطح الشـمس مـن 6000 درجـة مئويـة إلـى 4000 - 5000مْ درجـة مئويـة ولكن هذا الكلف محدود في مسـاحة تنحصـر بـين 30 درجـة م شـمالاً إلـى 30 درجـة جنوباً بالنسبة لخط الاستواء الشمسي فهي تولف 1٪ من مساحة سطح الشمس فقـط.

ومع ذلك فإن تأثيرها عظيم. هذا وإن التغيرات في المجال المغناطيسي تنتقل إلى المجالات المغناطيسية للكواكب والأرض مع تأخر أربعة أيام ونصف وبكلمة أخرى فإن هنالك خطاً من المجال المغناطيسي يربط الشمس بالأرض.

قام اثنان من علماء الفلك الفيزيائي وهما الدكتور نورمان نيس والدكتور جون ولكوكس من جامعة كاليفورنيا بعمل أول قياسات دقيقة عام 1964 عندما حللا التسجيلات والرسم البياني للمغناطيسية التي عملت في مرصد ويلسون مع المعلومات التي بثها القمر الصناعي من الفضاء.

إن انطلاق الأنوار المبهرة للأبصار من الشمس وانفجارات المواد الغازية فوق الشمس هاتان الظاهرتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بنشاط الكلف الشمسي فهو يسبب انبعاث الإشعاعات والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية وانطلاقها بشكل أشد فعندما تصل بعض أيونات الغاز قريباً من الأرض أو الكرة الأرضية يمنعها المجال المغناطيسي الأرضي من التسرب والوصول إلى الأرض فالتموجات في المجال المغناطيسي يمكن أن تصل إلى ألف ضعف من قوتها الطبيعية.

في 8 شباط عام 1958 حدثت حوادث تؤيد هذه النظرية أو الظواهر الفلكية الفيزيائية ففي ذلك اليوم أصدر الفلكيون في مرصد هافارد تقارير عن وجود أصوات مريبة آتية من الفضاء، وسجل الفلكيون على قمة جبل (سكرا منتو) نشاطات كلفية عالية غير عادية وكذلك فقد أظهر أحد المناظير الفلكية في هنولولو لمعاناً وأنواراً مبهرة للأبصار صادرة عن الشمس.

بعد 24 ساعة انطلقت بوادر الجحيم على الأرض فقد توهجت الأنوار القطبية في سماء الليل المظلم وتعطلت الاتصالات اللاسلكية عبر القارات وقد فقدت حوالي مئة طائرة تطير عبر المحيط الأطلسي كل اتصال مع الأرض وأما خط الهاتف تحت سطح البحر بين اسكتلاندة ونيوفاوندلاند فقد سجل توتراً كهربائياً قدره (2000) فولت ثم تعطلت أجهزة التوليد الكهربائي في تورنتو. كل هذه التغيرات كان سببها حوادث حدثت في الفضاء على بعد (150) مليون كيلو متر فهي مسؤولة عما حدث من تعطلات على الأرض.

قوة القمر:

هنالك عدد متزايد من الأطباء والفيزيائيين يعتقدون أن تأثير الشمس والقمر على نمو الأحياء وعلى قابلية الإنسان للتعرض للمرض لا يجب أن يستهان بها هكذا فالحلقات السنوية على جذوع الأشجار تظهر نفس ما تفعله دورة الكلف الشمسي كل أحد عشر عاماً والخيزران الذي يقطع في أول الشهر القمري تكون متانته أكثر من الذي يقطع حينما يكون القمر بدراً فالأول يدوم عشرة أو اثنا عشر عاماً بينما الثاني يدوم من سبع إلى ثماني سنوات وكان الرومان يقطعون الخشب الذي يحتاجونه لبناء السفن والجسور عندما يصبح القمر في المحاق وإنَّ العلم الذي يتعلمه الإنسان بمرور الزمن لم يكن مؤسساً على مجرد الخرافات بل على التجارب المؤسسة على الحقائق البيولوجية فحالما يتكامل القمر ترتفع النسغ في الخشب وهكذا فالسكر الموجود فيها يجذب آكلة الخشب وكنتيجة لذلك يصبح الخشب عرضة للتعفن والفساد بسرعة أكثر، وعندما يميل القمر إلى المحاق يتحول السكر الموجود في النسغ إلى نشاء ونتيجة لذلك فإن الخشب المقطوع في ذلك الوقت أي المحاق لا يفسد بسرعة.

إن تأثير القمر كان موضوعاً لكثير من الأمثال الشعبية وخصوصاً عند الفلاحين وهكذا يقولون: إن بذر الحبوب عندما يكون القمر بدراً أفضل وإنّ الحصاد من الأفضل أن يكون أثناء المحاق ويكون الألم أشد أثناء اكتمال القمر بينما يكون سم الثعبان أقل تأثيراً أثناء انخفاض القمر.

إن الحقيقة والخيال متداخلات في هذه الأمثال ولكن العلماء يعتقدون أن القمر يؤثر بالتأكيد على العمليات الحيوية خصوصاً بين المخلوقات البحرية فهنالك بعض أنواع البزاق والمحار تضع بيوضها طبقاً لاتجاهات القمر وتحركاته.

«عندما تبدأ مجموعة نجوم بليديس وهن بنات أطلس بالارتفاع، عندئذ ابدأ بالحصاد ولكن باشر بالحراثة عندما تبدأ هذه المجموعة بالانحدار، تظل هذه المجموعة مختفية أربعين يوماً وليلة.

ولكن في أثناء مجرى السنة عندما تعود وتظهر عندئذ ابدأ بسن منجلك للقيام بحصاد جديد».

هذه مقاطع من شعر الشاعر اليوناني هيسيود التي تقدم النصائح لأجل الحصاد وهي مؤسسة على النجوم. وعلى ضوء علم الفلك الحديث فهي غير صحيحة لأنَّ المدة الزمنية بين غروب مجموعة نجوم البليديس وشروقها هي أربعون ليلة وتسع وثلاثون نهاراً ولكن هيسود الذي عاش في القرن الثامن ق. م لم يكن عالماً فهو يعطي تقريراً عن تجاربه فقط.

القذف من الفضاء:

إن ما ندعوه الشمس أو الضوء إن هو إلا عملية فيزيائية لها سبب ونتيجة ولكن ما يهمنا كثيراً في هذه المناقشة هو تأثير ضوء الشمس.

إن الشمس تقذف الأرض بكميات خطرة من الإشعاع تؤثر على المحيط الحيوي أي مجال حياة الإنسان بشكل خطر جداً لولا المجال المغناطيسي الأرضي.

وإن أكثر أنواع الإشعاع المعروفة هي الأشعة فوق البنفسجية وهي التي تعدم وتقوي مقاومة الجسم ضد الأمراض وتشجع تشكل فيتامين (د) وتساعد في شفاء السل الجلدي والعظمي وتختزل تلك الأجسام في الجلد التي تحفظ توازن الفيتامينات (آ ـ ب2 ـ د ـ هـ) بينما نجد أن أي زيادة أو نقص في هذه الأجسام له تأثير مباشر على النظام العصبي الإنمائي. وبالاختصار فإن الأشعة فوق البنفسجية يمكن أن تؤثر بشكل شامل على فسيولوجيا الأجسام.

وإن الغلاف الجوي للأرض يمكن أن يصد الأشعة ذات الأمواج القصيرة بشكل فعال حتى إنّ الأشعة الكونية المتطرِّفة (يجب أن لا نخلط بين هذه الأشعة والأشعة فوق البنفسجية) مثلاً تفقد شيئاً كبيراً من قوتها عندما تصطدم بالغلاف الجوي بقدر ما تفقده عندما تصدم صفيحة من الرصاص سمكها 90 سنتيمتراً، أو جداراً من الماء عرضه عشرة أمتار وهذه الأشعة الكونية المتطرفة تحوي إلكترونات

وميزونات[1] وبروتونات ونيوترونات وفوتونات عالية الطاقة وأما النيوترونات والفوتونات فهي تخترق الغلاف الجوي بينما يصطاد الغلاف الجوي الإلكترونات والبروتونات ويوقف فعاليتها.

إن هذا يفسر لماذا يتحدَّث علماء الفلك الفيزيائي حول الإشعاع الأولي والثانوي فالأشعة الأولية هي تلك الأشعة التي لم يغيرها الغلاف الجوي، وأما الأشعة الثانوية فهي الأشعة التي يمكن أن تخترق الغلاف الجوي متجهة إلى الأرض وهذه ليس بينها وبين الأشعة الأولية أي عوامل مشتركة.

إن ثمانين في المئة من الأشعة الأولية المتطرفة هي عبارة عن بروتونات ومعظم الأشعة الباقية هي عبارة عن جزيئات (ألفا) ولكن طاقة البروتونات هائلة جداً فهي تتدرج من مليون إلكترون ـ فولت إلى عدة تريليونات.

وإن الأشعة الكونية قد استعملت في علم الآثار فالعالم (الفاريز) وهو أحد حائزي جائزة نوبل في الفيزياء وهاوي الثقافة المصرية قرر في عام 1965 أن يرى فيما إذا كانت الأشعة الكونية يمكن أن تستعمل لاستكشاف هرم خوفو قرب الجيزة.

فمنذ الزمن الذي تسلل فيه (جيوفاني بلزوني) الإيطالي خلال الهرم الثاني عام 1818 ووجد مقصورة واحدة تؤلف القبر، منذ ذلك الحين وعلماء الآثار المصرية يتساءلون عن إمكانية وجود مقصورة أخرى لم تستكشف بعد وقد كانت الدهاليز خلال الهرم بسيطة في تصميمها بشكل عادي بعكس الدهاليز الشديدة التحول والانحراف في الهرم الكبير الذي يحتوي على مقصورتين بدلاً من واحدة.

بدأ الفاريز في عمل يبدو مستحيلاً لكي يجد مقصورة مساحتها حوالي 15 ـ 20 متراً مربعاً خفية في مكان ما في داخل حوالي 4.4 مليون طن من الصخور.

ففي الماضي كان علماء الآثار يعتمدون على التجارب الماضية لحل مثل هذه الألغاز أو كانوا يحفرون كثيراً من الحفريات على غير هدى ولكن لم تكن أي من

---

(1) الميزون: هو جسم دقيق ذو كتلة متوسطة بين البروتون والإلكترون.

هاتين الطريقتين تساعد (الفاريز) بأي حال، فالخبرة في هذه الحالة لا يمكن أن ترشده والحفريات كانت خطرة فلا يجوز المجازفة خوفاً من إحلال الضرر في مبنى الهرم نفسه.

البحث النووي داخل الهرم:

لقد بنى (الفاريز) مباشرته في العمل على الفرضية الآتية (التي ظهر أنها صحيحة): إنَّ الأشعة الكونية المتطرفة تنسحق وتدمر في طبقات الغلاف الجوي العليا. وحوالي 80٪ من هذه الطاقة تصل إلى الأرض بشكل ميزونات متوسطة الثقل وهذه الجزيئات يمكن أن تخترق أي شيء بما فيه الإهرامات ويمكن معرفة قدرة هذه الجزيئات فإذا وضعت أجهزة القياس تحت الهرم وفي زوايا مختلفة فيه فإن مستويات الإشعاع وقوته يجب أن تكون أعلى كلما مرت الأشعة خلال مقصورة جوفاء وذلك لأن الهواء لا يمكن أن يكون حاجزاً ضد مرور الأشعة كما هي الحال عند مرور الأشعة في الصخور.

إنَّ أفضل مكان تنصب به تلك الأجهزة هو الغرفة الوحيدة التي اكتشفت في الهرم (غرفة بلزوني) وقد سميت باسم الرجل الذي أعاد اكتشافها وكانت الغرفة واقعة في وسط الهرم تماماً وعلى بعد 130 متراً من قمة الهرم.

بدأ تركيب التجهيزات المعقدة البالغ وزنها حوالي 30 طناً في ربيع 1967 وبما أن دهاليز الهرم كان عرضها حوالي 120 سنتيمتراً لهذا أصبح من الواجب تفكيك الأجهزة أولاً ثم تركيبها بعد إدخالها إلى داخل الهرم وقد اشترك في العمل اختصاصيّو الأهرامات المصرية: الدكتور أحمد فخري والدكتور فتحي البدوي وهو أحد الفيزيائيين النوويين من جامعة القاهرة ثم (الفاريز) وفريقه من مخبر لورنس للإشعاع في جامعة كاليفورنيا وكان المفروض أن تبدأ القياسات بعد ثلاثة أشهر من العمل ولكن حدث أن ابتدأت حرب حزيران عام 1967 بين العرب وإسرائيل وبذلك تأخر العمل، وأخيراً وفي ربيع عام 1968 بدأ (الفاريز) القياسات التي دام إعدادُها

والتجهيز لها مدة ثلاث سنوات، وكانت غرفة (الشرارة) التي شادها داخل الهرم تعمل بالشكل التالي: وضعت صفائح من الألمنيوم واحدة فوق الأخرى في غرفة مملوءة بالغاز تحت توتر كهربائي عالٍ فعندما يدخل جزَيءٌ ويخترق الهرم ويضرب إحدى الصفائح تنبعث شرارة وتقفز إلى الصفيحة التالية وكانت هذه النبضات تسجل على شريط.

وطبقاً لحسابات الأستاذ الفاريز فإن الجزيئات المشحونة بطاقة أقل من مستوى 55 بليون ألكترون فولت سوف تمتصها حجارة الأهرام وهكذا فلا تصل هذه إلى داخل الهرم أو إلى المقصورة في داخل الهرم فغرفُ الشرارات صممت لتدوين الجزيئات التي تسجل 10 بليون ألكترون فولت بعد أن تدخل الهرم.

وقد أدهشت النتائج الأولى المراقبين فقد كان عدد الجزيئات التي وصلت إلى المقصورة في القبر أكثر مما كان يتوقع، وقد نفذت القياسات على زاوية قدرها 3 درجات وكانت التأثيرات التي سجلت هي حوالي 84 جزيئاً في الدقيقة وكانت المساحة التي تم مسحها تمتد فوق مخروط يقف على نهاية زاوية مقدارها 70° وهذا كان يغطي حوالي 1/ 5 مساحة الهرم وقد استغرقت هذه القياسات عدة أشهر، واستخدم الكومبيوتر في جامعة القاهرة لتحليل المعلومات المخزونة مغناطيسياً، وبعد أن نقلت هذه المعلومات إلى الستار الروتوغرافي[1] ظهرت البطانة الكلسية في داخل الهرم وظهر ظل مظلم يبدو بأنه يشير إلى الفضاء الأجوف وهذا سبب بعض الانفعالات لدى العلماء ولكنهم تحققوا أخيراً أنه انعكاس من الأجهزة، وبعد تحليل المعلومات المعروضة على الشريط تأكد الفاريز واقتنع أن الفرعون خفرع بنى غرفة واحدة فقط في هرمه لتكون قبراً له.

من الواضح أن هنالك طاقة إشعاعية متصلة بين الأرض والكون الخارجي أكثر مما كان يظن العلماء القدماء وهذه الطاقة يمكن أن تكون نعمة لأهل الأرض لو استطاع

---

(1) الرتوغرافيور: عملية تصويرية تظهر بها الصورة بواسطة صفائح أسطوانية مثبتة على أسطوانات مطبعة دوّارة.

الإنسان أن يسيطر عليها، ولكن هذه الطاقة تستطيع أن تجلب الموت والدمار لأهل الأرض أيضاً.

ومع ذلك فإن هذه الطاقة عندما تصل الأرض فإنها تكون قد فقدت معظم قوتها فالأشعة الثانوية المتحولة لها تأثير أكبر بكثير من الأشعة الرئيسية فهذه الجزيئات يمكن أن تخترق القشرة الأرضية إلى بعد عدة آلاف من الأمتار في داخلها.

وفي السنوات الأخيرة أصبح الفيزيائيون وعلماء الآثار يعملون جنباً إلى جنب في معظم المناسبات وخصوصاً في تحقيق عمر أي جسم بمساعدة الكربون المشع فالأشعة الكونية تنتج الكربون المشع ك 14 من النيتروجين الموجود في أعلي الجو فهذا يشبه مبدأ عمل المفاعلات الذرية وبمرور الزمن فإن هذا الكربون يحترق مكوناً حمض الكربون ويمتزج مع حمض الكربون العياري في الغلاف الجوي.

لقد استفاد (ولارد ليفي) وهو أحد كيميائيّي الولايات المتحدة المرموقين من هذه العملية الطبيعية فطور نظرية ممتعة تدعى (طريقة الشيخوخة) نال عليها جائزة نوبل وهذه النظرية تتلخص في أن كل كائن حي سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً يملك في بنيته كربوناً مشعاً متطابقاً ومتماثلاً مع كميات حمض الكربون المشع الموجودة في الغلاف الجوي وهو المادة الأم للكربون العضوي الموجود على الكرة الأرضية.

إن انحلال الكربون المشع وتحوله إلى ك 14 بواسطة الإشعاع الكوني يبقى محافظاً على توازن متقارب فعندما يموت الكائن الحي تتوقف إمدادات الكربون والحديد فالتعفن والتفسخ عادة يرجع الكائن الحي إلى الدورة الطبيعية للحياة، فالغبار تمتصه النباتات والنباتات تأكلها الحيوانات والحيوانات إما أن تموت أو يأكلها الإنسان وهكذا.

ولكن لنفرض أن الكائن الحي لم ينضم إلى الدورة الطبيعية بعد وفاته وبقي كما هو لم يمس لعدة قرون أو آلاف السنين فعندها يصبح خاضعاً لعملية انحلال

الكربون المشع فكميات ك 14 تبدأ بالتناقص باستمرار وقد وجد العلماء أنه قبل حوالي 5730 سنة تحولت نصف ذرات ك 14 إلى نيتروجين (نصف حياة ك 14).

وهذه الطريقة لتقرير الأعمار دقيقة ومعتبرة في حالة بقاء تركيز ثاني أكسيد الكربون في الجو ثابتاً طيلة ألف سنة (لقد أظهرت القياسات التي عملت بعد التفجير الذري أن هنالك بعض تقلبات وتغيرات جزئية في محتويات ك 14 ولكن هذه الفروق في التركيز اختفت في مدى بضعة أسابيع).

القياسات الجنونية: إن النتائج التي حصل عليها العلماء الأمريكان في تقرير عمر الهدايا الموضوعة في القبور ومقابر الفراعنة لا تقل في إثارتها عما ذكر، ويبدو أن جميع الأجهزة أصيبت بالجنون. فالمومياءات ظهر فجأة أنها أقدم بنحو خمسمائة عام من النواويس التي تحتوي عليها. والحبوب ظهر أنها أقدم من الأوعية التي وجدت فيها. وهذا يظهر أنّه إما أن جميع أجهزة قياس الأعمار كانت مغلوطة أو أن المصريين القدماء كانوا يفهمون تماماً كيف يؤثرون على عمليات انحلال المواد المشعة فإذا كانت هذه الظاهرة قد حسب حسابها في قبور الملوك المصريين أفلا نستطيع أن نفترض أن هذه القبور قد بنيت لحفظ المومياءات. وفي تقرير الأعمار حتى 5000 سنة يقبل العلماء عامل الخطأ بنسبة أربعين إلى سبعين سنة بالزيادة أو النقصان وأما الأخطاء الأكثر من ذلك فيجب أن يكون لها أسباب، وربما كانت وجيهة.

في أوائل الخمسينيات مثلاً حلل الفيزيائيون بعض الشجيرات على القطاع الأخضر على الطريق العريض الذي لا حد لسرعة السيارات فيه بين هيدلبرج ومانهايم وكانت النتيجة صاعقة. فطبقاً للقياسات وجد أن عمر الشجيرات حوالي خمسمائة عام فهل كان تقييم مقادير الكربون مؤسساً على أسس خاطئة يا ترى؟.

وبالعكس فإن تقييم صحة تلك القياسات وأسلوبها يظهر واضحاً في الأمثلة. ولكن الشجيرات تؤلف حالة خاصة فقد كانت تلك الشجيرات تنمو ضمن غازات مركزة تركيزاً عالياً (غاز ثاني أكسيد الكربون دون ك 14) ولذلك فقد خف تأثير ك 14

العادي بواسطة وجود الكربون الـميِّت ونتيجـة لذلـك فقـد ظـهر عمـر الخشـب الحـي خمسمائة عام .

ويمكننـا أن نسـتنتج أن الانحـراف عــن وجـود ك 14 القياسـي سـببه مؤثـرات خارجيـة . وأن دراسـة هـذه المؤثـرات بالنسـبة لقبـور الفراعنـة يبـدو جديـراً بالاعتبـار والاهتمام من قبل الفيزيائيين وعلماء الآثار وحقاً إنّ مثل هذه الدراسـة سـوف يجعلُنـا نتقدَّم حثيثاً نحو فتح مغاليق الأسرار التي تكمن وراء لعنة الفراعنة .

أسرار الأهرامات

لقد قام رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي (نيكيتا خروتشوف) برحلة إلى مصر لمدة ستة عشر يوماً خلال عام 1974 وقد كان سبب تلك الزيارة مناسبة إتمام المرحلة الأولى من السد العالي الذي بنيَ بمساعدة الاتحاد السوفييتي.

وقبل رجوعه إلى الوطن وقف خروتشوف على باب فندق (ميناهاوس) الشهير الذي بنيَ في عام 1869 في أسفل الهضبة العالية التي بنيت عليها أهرامات الجيزة وقد شهد ذلك الفندق ملوكاً ورؤساء دول من جميع أنحاء العالم كضيوف. وفي عام 1943 عقد فيه اجتماع القمة بين تشرشل وروزفلت وشان كاي شيك. (وقد زار الرئيس البريطاني والرئيس الصيني هرم خوفو أما روزفلت فقد رفض زيارته مع الشكر).

في اليوم التالي لوصول خروتشوف عين له يوم على برنامج زيارته لزيارة الهرم ولكن حدث أنْ صلت برقية من موسكو في نفس ذلك اليوم وقد كانت المخابرات السوفييتية تنصح خروتشوف بعدم دخول الهرم وانصاع خروتشوف للنصيحة ورفض الذهاب إلى الهرم ولكن لم يحدث أي تفسير لهذا الحادث فماذا كان البوليس السري السوفييتي يخشى يا ترى؟.

لقد مضى أكثر من قرن والعلماء من جميع أنحاء العالم يفكرون بالأهرامات وهي الأعجوبة العالمية الوحيدة الباقية دون أن تمس، وقد عملت أول القياسات الدقيقة للأهرامات في نهاية القرن التاسع عشر ومنذ ذلك العهد فقد تبددت تلك الفكرة القائلة بأن الأهرامات قد بنيت في مكانها صدفة ودون أي سبب.

كان (صنفرو) أول فرعون أراد أن يبني لنفسه أهرامات حقيقية ولكن الهيكل الخارجي للهرم الذي بدئ به قرب (ميدوم) لم يتم لأن صنفرو نقل مركز عاصمته إلى الشمال ولذلك فقد أمر ببناء هرم آخر في داشور شمال صقارة وكان علوه 97 متراً وأما خليفتا صنفرو وهما خوفو وخفرع فقد بنيا أهرامهما قرب الجيزة وأما ددفرع فقد بنى هرمه قرب (أبو روشن) وعاد منقرع وبنى هرمه في الجيزة. وفي زمن الأسرة الخامسة أنشئت أهرامات ساحور وخلال الأسرة السادسة بدأ الفراعنة بناء الأهرامات قرب أبو صير. وهنالك 69 هرماً رئيسياً في مصر الآن فهل كانت هذه البنايات مجرد قبور أم هل هناك سر مغلق لا يزال يكتنف هذه المنشآت المعمارية الفردية.

لقد اعتقد عالم الآثار المصرية المعروف رتشارد ليبسيوس أن كل فرعون كان يضع الحجر الأساسي لأهرامه في بداية حكمه وبعد ذلك يبدأ في توسيع العمل بشكل يشبه إلى أبعد ما تكون الحلقات السنوية والتي تشير إلى عمر الشجرة ولكن وكما حدث في كثير من النظريات الخاصة، فإن البحث العلمي الحديث نقض هذا الاعتقاد فقد كان إنشاء الهرم يتم التفكير به وتخطيطه قبل وضع أي حجر من أحجاره وهذا الاستنتاج صحيح لا يتغير رغم المؤشرات التي تشير إلى إعادة النظر في خطط التنفيذ أثناء الإنشاء والعمل.

وعلى هذا فقد تغيرت خطط تصميم هرم خوفو مثلاً ثلاث مرات خلال العشرين عاماً التي استغرقها البناء ولكن الاتجاه الجغرافي ظل ثابتاً وكانت أولى القياسات التي أجريت بأدوات معقدة قامت بها الحكومة المصرية عام 1925 وقد أذهلت النتائج الخبراء الذين قاموا بتكرار القياس والشيء المذهل هو أنهم وجدوا أن أكبر انحراف للبوصلة عن أربع الجهات الأصلية هو 1/ 13 من الدرجة فقط وكان هذا الانحراف فقط في الجانب الشرقي للمحور الهرمي الشمالي الجنوبي.

لم يكن عند المصريين القدماء أي معرفة بالبوصلة ولكن لم يستطع أحد أن يفسر كيف أن 3 . 1 مليون قطعة من حجر الجرانيت وزن كل واحدة منها حوالي 16 طن يمكن أن توضع بجانب بعضها وفوق بعضها بتلك الدقة المتناهية حتى إنَّ الانحراف عن المخطط الأصلي البالغ طوله 23 متراً لم يتجاوز كسر الميلمتر مع عدم

وجود أي طين أو بلاط بين خطوط اتصال الأحجار بعضها ببعض ومع عدم وجود أي شق ولو بعرض سنتمتر واحد بين كل حجرين، ولا مندوحة لنا عن ذكر الأحجار الكلسية التي وضعت على قمة البناء الأساسي وهذا يجعلنا نتأكد أن هنالك تفسيراً آخر لتلك الدقة في القياسات لذلك البناء الضخم.

عندما كان الفرعون يقيس:

كانت وحدة القياس المصرية الأساسية هي الذراع وهي مؤلفة من سبعة أيْدٍ (واليد الواحدة هي قياس أربع أصابع) والأصبع يقابله 1.9 سنتيمتر وبذلك تكون اليد 7.5 سنتيمتر والذراع 52.5 سنتيمتر. وكانت القياسات تجري بواسطة عصا طولها ذراع وقد بقيت هذه العصي حتى الآن وكانت القياسات تجري بواسطة الحبال.

وإن استعمال كلا الواسطتين أي العصي والحبال كان عرضةً للأخطاء في حاصل القياس فالحبال معرضة للتقلبات في درجة الحرارة والرطوبة ويمكن أن تتقلص أو تتمدد ولكن كيف استطاع المصريون أن يتدبروا أمر الدقة في القياسات بمثل هذه الأدوات غير المناسبة.

ونحن نعلم كيف أحرزوا الدقة في بناء الأهرامات فهنالك ورقة بردي (رايند) المحفوظة الآن في متحف لندن تحتوي أمثلة عن كيفية القياس وهي تظهر أن المصريين كانوا يستعملون التوابع المثلثية منذ عام 3000 ق. م وتظهر الورقة أيضاً عدة أسئلة في الرياضيات مؤسسة على إنشاء الهرم والتي يمكننا أن نستنتج منها بسهولة أن المصريين لم يعرفوا كيفية قياس الزوايا حتى المملكة المتوسطة تقريباً فتدرّج انحدار الهرم لا يعبر عنه بالدرجات بل وحدات القياس وذلك بحساب فرق الإزاحة بين الأحجار في القمة والأحجار في القعر فإذا كانت زاوية الهرم $5 - \frac{1}{4}$ يد فمعنى ذلك أن الصف الثاني من الحجارة قد ارجع إلى الخلف $5 - \frac{1}{4}$ (يد) أي 39.4 سنتيمتراً أو $\frac{1}{25}$ بالنسبة للصف الأول وقد استعمل المصريون الكسور البسيطة فقط مثل $\frac{1}{4}$ أو $\frac{1}{5}$ أو $\frac{1}{25}$ وهكذا فقد كان طرح هذه الكسور البسيطة من الأعداد الصحيحة ينتج عنه كسور أخرى مثلاً: $2 - \frac{1}{4} = 1\frac{3}{4}$ أو $2 - \frac{1}{5} = 1\frac{4}{5}$

إذا درسنا الحسابات في ورق بردي رايند يبرز معنا شيء واحد وهـو أن مخطط أرض الهرم وعلوه قد أعطيت بأعدادٍ صحيحة بينما التـدرج في الانحدار يعبر عنها أحياناً بكسـور معقـدة مثلاً المسـألة رقـم 56 فـي الوثيقـة القديمـة (عمرهـا 3700 عامـاً) أعطي طول الهرم بـ360 ذراعاً وبعـد ذلـك طلـب حسـاب التـدرج الانحـداري الـذي يمكن حسابه باستعمال 5 – 25/ 1 (يد وذلك لأن الطول والعلو غالباً ما تعطـى بـأعدادٍ صحيحة في أمثلة رياضيـة أخـرى ولا شـك أن الأهـرام المصرية بشـكل عام (مـا عـدا القديمـة جـداً منـها) لـم تكـن أعمـالاً اعتباطيـة ولكـن أجسـاماً هندسـية قيسـت بعنايـة وعملت لها تصاميم قبل بنائها.

ولكن كيف تطور هذا الشكل الهرمي فهذا الشكل لا يتفـق مـع فكـرة المصريـين المثالية بالنسبة للجمال. فنحن لا نستطيع أن نرى إلا سطحين فـي وقـت واحـد وفـوق ذلك فإن الانحراف المنظور يميل إلى أن يشوش الناظر ولا نستطيع مهما امتد بنا الخيـال أن نعتبر أن اختيار ذلك الشكل الخاص كان لتسهيل قطع الحجارة المستعملة وتحضيرها في البناء وذلك يجعلنا نقف أمام نظريتين وهما أن ذلك الشـكل قـد صمـم أمـا ليكـون رمزياً أو ليكون وظيفياً عملياً فعالاً.

إنَّه لأمر عفوي أن ندعو الأهرامات سلالم إلى السماء، فالنتائج للبحث المستفيض يجب أن تكون مؤسسة على المصادفات وذلك لاعتبار تلك التفسيرات صحيحة ظاهرياً.

إن جميع سطوح الهرم المصري يمكن رؤيتها في نفس الوقـت فقـط مـن الأعلـى أي من الجو ولذلك فإن الشمس والضوء والإشـعاع أو القـوى الكونيـة الأخـرى يبـدو أنها قد لعبت دوراً في إنشائها. فالعالم البريطاني الدكتور بـراون لانـدون الـذي درس هندسـة الأهرامـات المعماريـة لمدة اثنـين وعشـرين عامـاً أثبـت أن الشـمس لـها علاقـة مباشرة ببناءِ الهرم فخط الأساس في هرم خوفو طوله عبارة 24. 365 ذراعاً وهـذا هـو عدد أيام السنة الشمسية فهل هذا هو لعبة بالأرقام أم مجرد مصادفة.

وإذا رجعنا القهقرى ونظرنا إلـى أصـل علـم الفلـك فمـن الواضـح أن الشـمس والقمـر كانـا همـا البـاعثين لنشـوء علـم التنجيـم وذلـك بتتابع ظـهورهما فـي السـماء

وتأثيرهما الظاهر على الحوادث هنا على الأرض فإذا كانت الشمس قادرة على فتح كأس الزهرة في الصباح والقمر على إغلاق الكأس في الليل فمن الأكيد أن يد القدرة الإلهية كانت قادرة على تدبير وتقرير أعمال البشر أيضاً.

فالشمس والقمر كانا أول كوكبين يقدمان للمصريين نظاماً فلكياً وبعد الملاحظة الدقيقة استطاع المصريون أن يضيفوا خمسة كواكب أخرى كانت تتحرك في السماء مثل الشمس والقمر مع التفاوت في شدة اللمعان واللون وهذه الكواكب هي: زحل والمريخ وعطارد والزهرة والمشتري وهكذا كانت الكواكب السبعة هي أول سبعة آلهة وهي أصل العدد المقدس (7).

المرصد:

إن العالم الفلكي البريطاني (رتشارد بركتور) الذي قضى عدة سنوات في البحث في هرم خوفو قال في كتابه الهرم الكبير: إذا أدركنا أنَّهُ في زمن الفرعون خوفو أن علم الفلك لم يكن إلا علم التنجيم وهو جزء هام من الديانة فعندها نفهم لماذا كوم المصريون تلك الكتل الهائلة من الصخور.

اعتقد بروكتور أنه قبل زمن خوفو كان الهرم عبارة عن هضبة هائلة عالية وصلت إلى مقصورة الملك في الهرم في الصف الحجري الخمسين وأن هذه الهضبة كانت تستعمل لأعمال الرصد. وبقدر ما تبدو النظرية تافهة من أول نظرة فليس هنالك من شك أن علم الفلك لعب دوراً لا بأس به في كيفية بناء الأهرام فإن أحد مداخل المقصورة الملكية في هرم خوفو يطل على نجوم معينة في أوقات معينة فهل هذه الحقيقة هي مجرد مصادفة يا ترى.

وقد ذهب دنكان مكنوجتون إلى أبعد من ذلك فقد اعتقد أن مداخل الأهرامات ما هي إلا أمكنة لرصد سيروس وأن تلك النجمة يمكن أن ترى أثناء النهار حين يكون مسارها يتحرك بين خط العرض 26ْ و 18ْ دقيقة والخط 28ْ درجة 18 ودقيقة في القسم الجنوبي من الكرة الأرضية. وكان سيروس أو (سوذيس) هو أهم نجم وذلك لأن ظهوره كان إيذاناً ببدء السنة الجديدة وفيضان النيل.

إن ظهور النجم سيروس في السماء قبل شروق الشمس يشير إلى بداية موسم الفيضان. وقد أكد العالم الهولندي (فان دير ويردون) الذي اهتم بدراسة أصول علم الفلك، بأن مصر قبل أن تقدم للعالم السنة الشمسية المؤلفة من 365 يوماً كانت السنة فيها مقسمة إلى دورة مؤلفة من ثلاثة فصول تبدأ بالفيضان وتشتمل فصل البذار وفصل الحصاد ثم استبدلت هذه السنة بسنة شمسية تتألف من اثنَيْ عشر شهراً وكل شهر ثلاثون يوماً مع وجود خمسة أيام كبيسة بحيث تصبح مجموع أيام السنة 365 يوماً ولكن بما أن السنة الشمسية الكاملة تزيد ستة ساعات على الـ 365 يوماً وهكذا يصبح الفرق يوماً كاملاً كل أربع سنوات وكانت بداية السنة المصرية تتراوح بين جميع الفصول بمرور القرون بل آلاف السنين كانت الفصول مقسمة إلى ثلاث فترات كل فترة أربعة أشهر وكانت أول أربعة أشهر تدعى أشهر الفيضان وأربعة الأشهر الثانية تدعى أشهر النمو والأربعة الثالثة كانت تدعى أشهر الحرارة.

وإن رصد موقع الهرم بالنسبة للشمس والظل تظهر أن المصريين كانوا يعيّنون النقاط الفلكية التوجيهية خلال السنة فالمثلث الشمالي للهرم يقع تماماً في الظل أثناء النصف الأول من السنة ولكن عندما تبدأ الشمس بالشروق من الشمال الشرقي والغروب من الشمال الغربي أثناء النصف الثاني من السنة فعندها يقع ضوء الشمس على الجانب الشمالي من الهرم. وهنالك فترتا انتقال عندما يكون نصف الجانب الشمالي في الظل والنصف الثاني في الشمس وهذا يحدث قبل أسبوعين من الاعتدال الربيعي وبعد أسبوعين من الاعتدال الخريفي وكان التأثير البصري مؤثراً في التاريخ القديم عندما كانت أحجار الأهرامات جديدة ولامعة.

وكان من السهل نسبياً حساب التقاويم في الماضي والمستقبل والتي تتألف السنة فيها من 365 يوماً ولكن تعيين يوم لأجل بعض الأعياد الدينية التي من المفروض ان تقع في فصل معين من فصول السنة، إنّ تعيين ذلك اليوم كان من الصعوبة بمكان ولكن الكهنة أخيراً بادروا لحل المشكلة بتعيين تواريخ للأعياد كل سنة من جديد وقد بقي التقويم المصري ساري المفعول حتى زمن اغسطس (من 63 ق. م ـ 14م) وهو أول

إمبراطور روماني عندما بدؤوا بزيادة يوم واحد كل أربع سنوات في الإسكندرية ـ حيث ولد أول تقويم إسكندري ولكن طبقاً لما ذكره العالم الفلكي بطليموس (حوالي 14م) والجداول الفلكية المصرية التي يرجع تاريخها إلى الأباطرة الرومان فإن كلا التقويمين كانا يستعملان جنباً إلى جنب لعدة قرون والحقيقة أن التقويم المصري قد أصلح قبل أغسطس بحوالي قرنين فالعلماء والكهنة والسياسيون الذين نشطوا في مدينة (كانوباس) شمال الإسكندرية والمشهورة بالموحى الذي كان فيها معبد سيرابيس قرر هؤلاء في عام 238 ق. م أن يضيفوا ست ساعات لسنتهم ولكن مرسوم كانوباس لم يوضع حيز التنفيذ حتى عهد أغسطس.

النجوم والمعجزات:

إن علم الفلك لم يكن أصلاً موجهاً للبحث العلمي بل كان عوناً للتوجيه الذرائعي خلال مسيرة الزمن السرمدي فإلى أين يستطيع الإنسان أن ينظر إلا إلى السماء لمعرفة الأشياء الثابتة والأنظمة والفترات الزمنية؟ وليس من العجيب أن نرى نجماً نلاحظه من مدة أشهر يختفي فجأة ثم يعود ليظهر بعد سبعين يوماً مثلاً.

لقد كان الشاعر اليوناني (هيسيود) تلميذاً ومريداً ومبشراً بالتعاليم المصرية القديمة وفي كتابه (في الأعمال والأيام) يصف أوجه النجوم والكواكب وقد كتب عن نهاية الشتاء يقول: «بعد ستين يوماً من دوران الشمس ينهي (زفس) أيام الشتاء وبعد ذلك يترك النجم Arecturus اركتورس طوفان أوقيانوس المقدّس وراءه ثم يشرق لأول مرة لا معاً متألقاً فوق الشفق الأحمر».

ولقد سجلت الأرصاد الأولية عن النجوم في أول تقويم حققه الإنسان وهو التقويم المصري الذي يرجع تاريخه إلى القرن العشرين قبل الميلاد ومن الغرابة أنه أي التقويم كان منقوشاً داخل غطاء أحد التوابيت وقد كان الإيمان بالحياة الآخرة قوياً جداً حتى إنّ القبور جهزت ليس بالطعام فحسب ولكن بالتقويم أيضاً.

وفي هذه التقاويم هنالك ذكر للنجوم التي لها علاقة بالزمن والتشكيلات النجمية الأخرى وهي تظهر أن المصريين عرفوا ستاً وثلاثين مجموعة من النجوم

والدائرة التي تدور فيها الشمس ظاهرياً قسمت إلى ستةٍ وثلاثين جزءاً وبما أن علم الفلك بدأ بقياس الزمن لذلك أصبح علم الفلك هو علم التنجيم بالنسبة للكهنة والسحرة وقد احتوت كثير من المعابد والقبور صوراً تعبر عن النجوم كما هي الحال في معبد (أدفو) و (إسنة) و (ودندارا) وفي قبور رعمسيس الثاني وسيتي الأول وسينموت وهو (مستشار حتشبسوت).

بينما نجد أن علم التنجيم لا يزال موجوداً إلا أن علم ارتياد الأهرامات قد نسي مع أن كلا العلمين كانا يقفان جنباً إلى جنب لعدة قرون فما السبب يا ترى.

هنالك تفسير بسيط وهو أن معظم الشعوب كانت تعرف وتمارس علم التنجيم في حين أن علم الأهرامات لا يمكن أن يمارس إلا في مصر فمصر هي المكان الوحيد الذي تتوفَّر فيه الأهرامات (ما عدا بلاد المكسيك حيث توجد أهرامات ولكن بأشكال هندسية مختلفة) فالمعاينة الشفوفية للأهرامات وهي فحص الأهرامات بتعريضها لنور يخترقها باستعمال أجهزة قياس حديثة فضلاً عن الأبحاث شبه العلمية التي لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن الماضي.

معنى وهدف الإنشاءات الهندسية:

إن الهندسة الرمزية للهرم الكبير أثارت اهتمام العلماء في جميع أنحاء العالم فتخطيط أرضية الهرم مربعة وأمَّا البناء نفسه فهو بشكل مثلث رمزاً للثالوث المقدس (اوزيريس، إيزيس وحورس) وهو يرتفع فوق المربع الذي هو رمز القضايا المادية وبما أن المصريين قد رأوا أن الموت هو أسمى مسبب للشعور بالواجب والتأمل الذهني لذلك جعلوا الموت يمثل بالمثلث الذي هو فوق المربع أي فوق القضايا المادية وهذا ما يجعلنا نعترف بقصدهم الرمزي هذا. ولكن هنالك تفسير محتمل لشكل الهرم الفريد وهو أنه قد أنشيءَ كصرح معماري له وظيفته ليعكس المعرفة العلمية التي كان يمتلكها الكهنة والسحرة وبهذا يخضعون الفرعون في قبره لتأثيرات معينة محدودة. وقد آمن الفيلسوف اليوناني بلوتينوس (205 ـ 257م) بهذه النظرية وكان قد أخبر عن وجود عبادات سرية في مصر القديمة ومع اعتقاده بهذه النظرية إلا أنه لم يقدم أي تفاصيل

وقد بـرر هـذا النقـص فـي المعرفـة بـأن ادعـى أن هنـالك قانونـاً لـدى أولئـك المتعبديـن المصريين ألاّ يخونوا أو يفضوا بأسرارهم لا حد من غير المريدين وكل من يخالف هـذه القوانـين يعـاقب بـالموت لكـلا الشـخصيْن الـذي يخـون والشـخص الـذي تسـلم لـه المعلومات الجديدة المحظورة الإذاعة. وقد كتب العالم البريطاني (سينيت) بتوسـع عـن الاحتفالات في تلك العبادات السرية بقوله:

كـان المبتدئـون يخضعـون لفحـوص رهيبـة للتثبـت مـن قدرتـهم علـى التحمـل وشجاعتهم وذكائهم وكانت المخدرات والضرب المبرح تسـبق الضغـط النفسـي الـذي يوحي للمبتدئ بأنه سوف يسقط في هوة سحيقة أو أن الصخور سوف تسحق جسـمه وتهشمه أو أنه سوف يسير فوق جسر متأرجح أو خلال جـدران مـن نـار أو أنـه سـوف يغرق أو أن الحيوانـات سـوف تهاجمـه، مثـل هـذه الشـعائر والطقـوس الاحتفاليـة قـد صورت في معبد (فيلا) وبعكس النقوش البارزة الطبيعيـة المصريـة الأخـرى، نـرى أن هذه النقوش رمزية تشير إلى السرية التامة في العبادات.

ويذكر وليم كنجز لاند في كتابه (الهرم الكبير بين الحقيقة والنظريات): إنه مـن المحتمل أن تكون تلك الاحتفالات قد عقدت في إحدى المقاصير الجانبية الكثيرة العـدد في الأهرامات وبعض كتب الموتى تحتوي على بعـض التلميحـات بأنـه مـن المحتمـل أن يكـون ذلـك صحيحـاً وهـي تذكـر القـوى المعاديـة المخيفـة والرهيبـة التـي يجـب علـى الأموات أن يواجهوها قبل أن يسمح لهم بدخول مملكة أوزيريس.

الاختلال العقلي في المقصورة الملكية:

هل من الممكن أن يساء استعمال الأهرامات في الاحتفالات التعبديـة؟ بالتـأكيد إنّ هنالك كثيراً من الشواهد على تأكيد النظرية وليس هنـالك فعـلاً أي شـاهد ينـاقض ذلك وذلك لأن الفرعون كان دائماً مطلعاً على الأمور من الداخل ولما كـانت طقـوس الدفن والاهتمام بالموتى هي من اختصاص الكهنة والسحرة فلم يكن أمـراً غـير عـادي أن تعقـد تلـك الطقـوس السـرية داخـل تلـك الصـروح الضخمـة (الأهرامـات) ويبقـى السؤال مفتوحاً دون جواب وهو هـل كـانت تلـك الطقـوس حقيقـة تجـري تحـت تـأثير المخدرات والضرب المبرح وهل كانت هذه الأشياء تستعمل حقيقة يا ترى؟

وكما رأينا سابقاً فإن شكل الهرم لا يؤثر على قضية تحنيط جثث الموتى وحفظها فقد برهنت التجارب على الحيوانات وعلى بعض أجزاء الجثث البشرية أن الأجسام بقيت محفوظة في داخل الأهرامات لأسباب لم تفسر بعد وبالطبع فإن هذه الاكتشافات الحديثة نسبياً لا يجب أن تفاجئ أحداً خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار المجهودات التي تبذل لحفظ تلك الجثث ومن المشجع أيضاً أن نلاحظ أن عمليات التحنيط بدأت بشكل عمليٍّ بعد أن امتنع الفراعنة عن بناء أهرامات جديدة وحتى ذلك العهد كانت العمليات التحنيطية البسيطة تفي بالغرض.

هنالك ملاحظة أخرى لم تفسر أيضاً وهي أن البقاء لمدة طويلة داخل الأهرامات يؤثّر تأثيراً سيئاً على التوازن العقلي فهل هذا هو السبب الذي جعل المخابرات السوفييتية تحذر خروتشوف من دخول هرم خوفو؟ إنّ الرجل الإنكليزي المدعو بول برنتون وهو ليس عالماً بالحضارة المصرية ولا بعلْم التخاطر قد فحص هذه الظاهرة بإمعان أكثر فقد طلب هذا الرجل إذناً من السلطات في القاهرة بالدخول إلى المقصورة الملكية في هرم خوفو وقضاء ليلة كاملة هناك وبعد تردد رق قلب رئيس شرطة القاهرة لإلحاح هذا الرجل ورجائه المتواصل فوافق على هذا الطلب وسمح له بقضاء ليلة داخل الهرم.

قضى برنتون الساعات الأولى من الليل في الدهليز العالي الضيق الذي يؤدي إلى المقصورة الملكية وبعد قضاء هذه المدة جلس في زاوية من زوايا المقصورة وفجأة شعر كما لو أنه أصبح عاجزاً عن التفكير بصفاء ثم أغلق عينيه واستسلم للرؤى والأحلام المزعجة وقد كتب بعد ذلك يقول «إن الخوف والفزع والرعب أظهرت لي بإلحاح الحقائق المرعبة فما شعرت إلا ويداي قد شدتا بإحكام دون إرادتي كأنهما في ملزمة وكانت عيناي مطبقتين ولكن تلك الأشكال والخيالات الرمادية كانت تنساب أمامي رغم إطباقِ عيني وتندفع كأنها الضفادع وتدخل في مجال الرؤية الداخلية وكنت أشعر دائماً بدائرة من المخلوقات المعادية تحيط بي وهي مخلوقات ضخمة تشبه عناصر الطبيعة الهائلة، أشباح مفزعة ظهرت من العالم السفلي، أشكال متنافرة، مجانين أشباح ضخمة شيطانية كانت تمر باستمرار من حولي مما سبب لي شعوراً بالغثيان».

لقد مارس هذا المستكشف عدة مغامرات في حياته ولكنه في هـذه المرة كـاد أن يصاب بالانـهيار العصبي فقـد شعر أن عضلاتـه قـد تصلبت فلـم يستطع أن يتحرك بسهولة وقد شَعَرَ أن قوى مشؤومة شريرة كانت تشد حواسه الخمس وقـد اخرج في اليوم التالي وهو خائر القوى.

من المحتمل أن العوامل العاطفية طبعاً قد لعبت دورها هنا حتى بالنسبة لمغامر مثل (بول برنتون) ومن ثم فمن من الناس يستطيع أن يستمتع بقضاء ليلة منفردة في مقصورة قبر خوفو في هرمه يا ترى؟ ولكن هنا لك شهود كثر شهدوا ظواهر مشابهة خلال النهار وعلى مرأى كثير من الناس.

يقول المؤلف: إنَّ آخر مرة زار بها هرم خوفو كان في عام 1972 وقد قابل عدداً من أعضاء البعثة السياحية الألمانية الذين أدخلهم المرشدون المصريون إلى الأهرامات. فهنالك سيدة إسبانية التحقت بالبعثة السياحية وفي أثناء الجولة بدأت هذه السيدة بالصراخ فجأة في النهاية العليا للدهليز الكبير المؤدي لمقصورة الفرعون ثم انهارت وهي على جسر المشاة ولم تستطع الحركة وبصعوبة بالغة نقلت إلى المخرج السفلي للبهو وعندما أصبحت خارج المكان خفت وطأة التشنج فسأل المؤلف هذه السيدة إذا كانت تستطيع أن تفسر الحادث أو إذا كان قد حدث لها حادث مشابه قبلاً ولكنها كانت مشوشة تماماً عندما قالت «لقد شعرت كما لو أن شيئاً ضربني فجأة» وفيما بعد أخبرني المرشد أن مثل هذه الحوادث طالما تحدث.

وهنالك الدكتور (مورتون) مؤلف كتاب «خلال ميادين التوراة» وصف كيف انه وقع فريسة هذه القوى الغريبة أثناء زيارته لهرم خوفو وقد كان مورتون قد قام برحلة جماعية فأصيب بشعور من الذعر بينما كان في المقصورة الملكية، وقد شعر بأنه على وشك الإغماء وبدأ يزحف على يديه ورجليه حتى خرج من المكان.

موت رائدين من مستكشفي الأهرام:

لقد مات اثنان من علماء الآثار كانا قد أمضيا سنوات في الأهرامات وقد كان موتهما مفاجئاً تماماً بشكل جعل حتى المتشككين يربطون حادثة موتهما بعملهما في الاستكشافات وكذلك فإن عالم الآثار البريطاني السير فلندرزبيتري، الذي كان من اكثر العلماء تمكناً وتضلعاً في نظريات الأهرام، قد مات دون أن يتوقع أحد ذلك

ودون أن يعرف سبب موته في مدينة القدس في فلسطين عام 1942 وهو في طريقه إلى وطنه من القاهرة.

وقد كانت وفاة بيتري بعد وفاة زميله جورج ريزيز بقليل وكان عالم الآثار الأميركي ريزنز قد عثر على لقيات هامة في العشرينيّات والثلاثينيّات من هذا القرن وبين أشياء أخرى اكتشف ريزيز قبر أم الفرعون خوفو وهي هيتيفير Heetephere وكان قبراً مجهزاً تجهيزاً فاخراً يقع على مسافة من هرم خوفو وفي عام 1939 أذاع أول إذاعة له من داخل المقصورة الملكية في هرم خوفو وكان موته في ربيع عام 1942 لا يقل إثارةً عن إذاعته من داخل الهرم فقد انهار ريزنز وهو داخل الهرم وظل مستلقياً هناك وكأنه قد أصيب بالشلل وقد سحب إلى خارج الهرم من خلال الدهليز الضيق هناك ثم نقل إلى خيام التنقيب حيث يحفظ علماء الآثار تجهيزاتهم وقد مات هناك دون أن يستعيد وعيه ومنذ هذه الوفيات الغامضة التي حدثت عام 1942 بدأ العلماء يدرسون جدياً الدلائل الفيزيائية داخل الأهرامات. ولكن العلماء الفيزيائيّين هم جماعة متزنون مشهورون بالاعتدال وضبط النفس وعندما بدؤوا البحث عن أسرار الأهرام نسوا كل ما كان معروفاً عن التقاليد التاريخية والهندسة الرمزية وبدؤوا يبحثون عن تأثيرات شكل الهرم ووظائفه وكانت المشكلة التي بدؤوا بمعالجتها هي هل أن شكل الهرم يجذب أي إشعاعات كونية أو ذبذبات مغناطيسية أو أي أمواج طاقة مجهولة وهل يعمل شكل الهرم كمكثف أو عدسة لاقطة لبعض أشكال الطاقة أي هل كان الكهنة المصريون القدماء يعرفون طرقاً وأساليب لتحرير طاقات هائلة من عقالها.

إن إحدى الأخطاء التي يقع بها بعض الناس في هذا العصر أنهم يعتقدون أن الإنسان قد وصل إلى القمة بالنسبة للاكتشافات أي إنَّ كل شيءٍ قد اكتشف ولكن الحقيقة أننا لا نزال في البداية فكل حرب تعلمنا أشياء جديدة فقد كان فردريك انجلز يعتقد في عام 1978 أن الحرب الفرنسية البروسية (حرب السبعين) كانت قمة الحروب التقنية وذلك لاختراع المدافع البعيدة المدى في تلك الأيام ونحن في هذه الأيام تعترينا الابتسامة عندما نفكر بتلك الملاحظة الساذجة.

عندما أسقطت أول قنبلة ذرية على هيروشيما وناجازاكي أرسل قائد القوى الجوية الأميركية الجنرال كارل سباتز برقية إلى البنتاغون بدأت كما يلي: «إن القنبلة

الذرية قد قررت مصير الحرب الجوية نهائياً» منذ تلك الحادثة أصبح الديناميت يعتبر مادة من طراز قديم وحتى الطاقة الذرية لم تعد أحدث أدوات التدمير إذ أصبحت أشعة الموت هي أحدث اكتشاف وهي ما يدعوه العلماء أشعة (لايزر) وهي توسيع وتطوير للأشعة الضوئية بواسطة انبعاث قوى الإشعاع.

إن كل هذه الأشياء هي أشكال مختلفة من الطاقة قد أوجب وجودها الحرب، التي هي «أب لكل الأشياء» كما قال الفيلسوف اليوناني هيراكليتوس وفي الحقيقة يجب أن نعترفَ إنه إذا أخضعنا هذه الأشياء للفحص الفيزيائي العلمي فإننا نجد أن مبدأ استعمال هذه الطاقة هو أسهل بكثير من الكهربائية فكم من التجهيزات المعقدة تلزم لتوليد الطاقة الكهربائية بينما من جهة أخرى نجد أن أشعة (لايزر) التي يمكن أن تستعمل لعمل أي شيء تقريباً في هذه الأيام من حفر الأنفاق إلى إنجاز عمليات العين، هذه الأشعة ما هي إلا تطوير وتقوية للضوء. وأما ما يدعى (مدافع لايزر) فهي عبارة عن حزمة من الأشعة الضوئية مكثفة تَقْوى من خلال انبعاث ذرات وجزيئات نشطة فعندها يخلق ضوء جديد يزيد عشرة ملايين مرة في لمعانه وصفائه عن ضوء الشمس العادي.

أشعة لايزر ليست سراً من الأسرار:

عندما بدأ فريق من الباحثين في تنفيذ أول تجربة لإنتاج أشعة لايزر عام 1960 سبب هذا الحدث المثير ضجة وإثارة في العالم فقد بدأت كلمة (لايزر) السحرية تظهر في كل مكان في الصحف، في التلفزيون في الجامعات وفي مخابر البحث وفي الاجتماعات والمؤتمرات والآن دعونا نفترض أن الدكتور ثيودور ميمان وهو رئيس فريق مشروع الأبحاث في ماليبو التابعة لشركة (هوجس) المشرفة على المشروع لنفرض أن هذا العالم قام بعملية غسل دماغ لزملائه ولمن ساعده من العمال وأجبرهم على الصمت التام وعدم إذاعة أي شيء عن هذا الاختراع وذلك بأن هدد أي عالم يفشي هذا السر بالموت ثم أقفل على زملائه وعزلهم عن الناس طيلة حياتهم ففي هذه الحالة يمكن للدكتور ميمان وزملائه أن يقوموا لمدة عشرات السنين بإجراء تجارب وتطبيقات جديدة لهذا الشكل من أشكال الطاقة. وبعد زمن وسنوات طويلة عندما يكتشف أمر هؤلاء الفيزيائيّين المخبولين ويتهمون بالزندقة والكفر فإنه من الممكن أن يكشف النقاب عن أنبوب زجاجي فضي حلزوني يحتوي على مقياس مدرج لونه

أحمر داكن (ياقوتي) لا يستطيع أحد تفسير وظائف هذا الجهاز ولا يستطيع أحد أن يصل إلى التفكير بأن هذا الجهاز الحلزوني هو الجزء المركزي لمدفع (لايزر) وبالطبع سيكون هنالك أشكال أخرى من الطاقة قد اكتشفت في أثناء ذلك ولكن علماء (ماليبو) سيكونون قد نقلوا أسرار أشعة لايزر معهم إلى قبورهم.

إن كون الفكرة سخيفة ليست قضية الحوادث نفسها ولكن المهم هو الفرضيات التي تكمن داخلها فليس هنالك بالحقيقة عملية غسل دماغ ولا تهديدات بالموت وليس هنالك من علماء محجوزين أو مسجونين في (ماليبو) ولكن كل هذه المقدمات المفقودة وجدت في مصر القديمة حيث كان الكهنة والسحرة يحكمون شعباً مطيعاً لا يعرف غير الطاعة لأن ما يعلمه وينجزه الكهنة كان فوق مستوى عقلية وقوة تخيل ذلك الشعب العادي البسيط وقوَّة تخيُّلِهِ ونحن غالباً ما نميل في هذه الأيام للتقليل من شأن الإمكانية العلمية لهذا الشعب الذي يعتبر أذكى شعب في تاريخ الحضارة.

ذكر الدكتور عمر جحود الذي نفذ في عام 1969 داخل هرم خوفو التحاليل التي أجريت بواسطة العقل الإلكتروني وهي إحدى تجارب لويس أفاريز الإشعاعية) حول الأشعة الكونية داخل ذلك الصرح (البالغ من العمر ثلاثة الآلاف وخمسمائة عام) ذكر هذا العالم أن ما يحدث داخل الأهرامات يناقض كل ما هو معروف من قوانين العلم والإلكترونيات.

وقد تكلم الدكتور جحود حول تحليل الأشرطة المغناطيسية التي سجلت عليها التأثيرات الإشعاعية داخل المقصورة الملكية فالنبضات أمكن تسجيلها بصرياً وصوتياً وقد أظهر مقياس الشدة الضوئية بوضوح خطوطاً ورموزاً وأشكالاً هندسية ولكن ذلك لم يكن ما أدهش الفيزيائي بل ما أدهشه فعلاً هو أن الرموز والأشكال الهندسية كانت تتغير وتتبدل يوماً بعد يوم رغم أنه كان يستعمل نفس الأدوات وفي نفس حالات العمل. وقد صرح الدكتور جحود لمراسل جريدة نيويورك تايمس بقوله «إما أن هنالك خطأ رئيسياً في هندسة الهرم كان يؤثر على قياساتنا أو أننا نعالج لغزاً محيراً لا يستطيع العقل البشري إدراكه ويمكنك أن تطلق عليه ما شئت من أسماء: غموض

أو أسرار أو لعنة الفراعنة، أو السحر وعلى أي حال فهنالك قوة تعمل داخل الأهرامات تناقض جميع القوانين العلمية».

لا علم فيزياء النجوم ولا علم التخاطر قد أصبحت قادرة على معرفة كنه هذه القوى التي تعمل داخل الأهرامات فهل هي طاقة نفسية وإشعاعات مادية او شكل من أشكال الطاقة لم يفكر بها أحد بعد لمجرد أنها ليست متوقعة أن تكون في ذلك المكان.

الأشعة السينية ترسل وميضها من الفضاء:

أحياناً يعثر العلماء على اكتشافات عرضية تعطي لمعاناً أو تلميحاً عن أسرار فيزياء النجوم وقد ذكرت إحدى صحف ميونخ في ألمانيا التقرير التالي في 9 آذار 1973 «الأشعة السينية تلمع من هيركوليس». «ومضة في نظام مزدوج للنجوم تسبب تأثيرات غريبة» ففي كل 23783 . 1 ثانية تصل الأرض لمعة من تشكيلة من النجوم تدعى تشكيلة هيركوليس وقد نقل هذه الومضات القمر الصناعي (أوهورو) وهذا القمر مجهز بأعقد الآلات لكشف الأشعة السينية وهو يفحص الفضاء فوق الغلاف الأرضي بدقة متناهية للتفتيش عن مصادر جديدة للأشعة السينية وقد وجد هذا القمر بنتيجة الفحص كثيراً من مصادر الأشعة السينية حتى إنَّ هذه الأشعة لم تعد من الأشعة النادرة في الوقت الحاضر.

إن الومضات ومصادر الطاقة في الفضاء التي تعطي دوافع قصيرة ليست شيئاً جديداً بالنسبة لفيزياء النجوم ولكن الشيء الجديد هو نوع الطاقة أي الأشعة السينية وأيضاً الحقيقة وهي أن هذه الومضات يتوقف نشاطها بعد 7 . 1 يوماً لمدة أربع ساعات ولكنه يبدو فقط بهذا الشكل وكما أظهرت بعض الأبحاث الحديثة، فإن الأشعة السينية تحجب عن الأرض بواسطة أحد الكواكب في تشكيلة هيركوليس كل 7 . 1 يوماً وهذا الكوكب قد اكتشف في عام 1936 وأعطى لقب (هـ. ز) هيركوليس وبما أن هذا الكوكب يتغير تألقه ولمعانه كل 7 . 1 يوماً فإننا يمكن أن نستنتج أن (هـ . ز) هيركوليس ومصدر الأشعة السينية المجهول هما نجمان منفصلان يدور كل منهما حول الآخر كل 7 . 1 يوماً.

إن هذا لا يعني أننا نوحي للقارئ أن المصريين القدماء كانوا ينظرون إلى الفضاء خلال مناظير فلكية ذات مرايا للتفتيش عن نجوم جديدة ولكن من المحتمل بالتأكيد

أنهم قاموا بعمل ملاحظات وحللوا ردود الفعل هذه ضمن نظام معين وهنالك نقطة واحدة أخرى فقد توفر لديهم الوقت الكافي للبحث فقد كان الوقت الذي مضى بين بناء هرم خوفو وموت توت عنخ أمون هو نفس الزمن تقريباً الذي مضى بين ميلاد المسيح واكتشاف أميركا.

لم يكن الاعتزاز الطبقي في مصر مقصوراً على أسرة الفرعون فحسب حيث كان الذكور من النسل يعطون نفس اسم الأب لمدة أجيال وأجيال ولكن كان ذلك الاعتزاز عميق الجذور في وعي الكهنة والسحرة وإدراكهم فالبحث في مشكلة صغيرة واحدة كان يمتد عدة أجيال. فالإشكال كان ينتقل من الأب إلى الابن بالإضافة إلى التجارب التي اكتسبها الأب عند محاولته حل ذلك الإشكال ومن الأستاذ إلى تلميذه وكانت العلوم عند المصريين القدماء عبارة عن علوم تجريبية أكثر منها علوم بحوثية وإنَّ أوجه الإنشاءات المختلفة تظهر بوضوح فمن يشك أن شكل الهرم وموقعَه قد اختيرا على أساس الخبرة المناسبة.

بعض افكار ختامية:

لم نقصد بهذا الكتاب أن نبرهن بشكل المتصر أن لعنة الفراعنة هي شيء حقيقي وموجود ولكن من الأفضل أن نقول: إنَّنا نقصد بهذا الكتاب أن يكون أولا بحثاً وراء الحقائق وثانياً فتح طرق ممكنة لتفسير هذه الحقائق فهل حوَّل المصريون القدماء قبور فراعنتهم عمداً إلى مصايد للموت بتركهم سموماً ذات فعالية تدوم حقباً طويلة تقدر بالقرون؟.

وباستعمالهم مواد مشعة؟ وبتسخير الطاقة الكونية فوق المشعة؟.

ومع ذلك فإن لعنة الفراعنة تبقى ظاهرة ليس لها أي تفسير نهائي، ظاهرة تمتد جذورها العميقة إلى مصر القديمة، تلك الحضارة التي تمتد إلينا خلال العصور لتعذب وتدحض وتذل غطرسة العلوم المعاصرة بأسرار الأهرامات والشعب الذي قام ببناء تلك الأهرامات.

الفهرس

بــــدأت قـــــصة لعنة الفراعنة مع اكتشــــاف مقبـــرة (توت عنخ آمون) ذلك الاكتشـــاف الذي هز الدنيا . وقــــــــــد عرف العلماء محتويات المقبرة وكشفوا أسرارها ودرسوا نقوشها واصبحت حقيقة ناصعة إلا أن قـضية اللعنة بقيت اللغز المحير الذي لم يجد العلماء له حلاً او تفسيراً. فكان كتاب (لعنة الفراعنة) بمثابة موسوعة علمية عن (اللعنة) ومحاولة جريئة لتقديم تفسير علمي بـمختلف ميادين العلم من فلك وكيمياء ورياضيات حتى الانشطار الذري وأشـعة لايزر.

ليكشف أسرار الأهرامات والموت.

Designed by Hala K Tel/fax +963 11 2324476